
أليس
ادامو فيتش
السفاحون


أليس
ادامو فيتش
السفاحون


أليس
ادامو فيتش
السفاحون

آليس
ادامو فيتش

السفّاحون

او نشوة السكاكين
حياة الجلادين

ترجمة خيرى الضامن

دار التقدم . موسكو

Алесь Адамович

КАРАТЕЛИ

Радость ножа или жизнеописание гипербореев

На арабском языке

A $\frac{4702120200-256}{014(01)-88}$ 242-88

ISBN 5-01-000740-1

الهيربرى فى الميثولوجيا الاغريقة هم اهالى الشمال الاقصى (الذى لا تبلغه ريح «برى» الباردة والواقع على حدود عالمنا مع عالم الاضداد) . وهم فى تصورات بعض الكتاب القدامى شعب عاش فى الشرق ، فى آسيا ، فى اواسط الالف الاول قبل الميلاد .

«فلنلتفت الى انفسنا . نحن الهيربرى ، اننا نعرف جيدا مدى انعزالنا وبعدنا عن الآخرين . قال عنا بندار فى حينه : «لا يجد المرء الطريق الى الهيربرى لا برا ولا بحرا» . حياتنا وسعادتنا على الجانب الآخر من الشمال والجليد والموت . اكتشفنا السعادة وعرفنا الطريق وعثرنا على مخرج من متاهة عمرها آلاف السنين . . . ليس فى عصرنا المعلول ما هو اكثر اعتلالا من الرأفة المسيحية . وواجبنا فى هذا المجال ان نطبب بلا رحمة وان نبتر بالسكاكين . فتلك هى صيغة حبنا للانسان الذى نعيش معه نحن الفلاسفة ، نحن الهيربرى . . .

فى حالات نادرة ، فى مختلف ارجاء المعمورة ، وفى مختلف الحضارات يصادف ان يظهر ما يعتبر جنسا ارقى ، وهو بالمقارنة مع البشرية جمعاء نوع بشرى متفوق . ان هذه المصادفات السعيدة كان يمكن ان تحدث دوما ، ويحتمل ان تحدث دوما . ولدى توفر الظروف المناسبة يمكن ان يحالف الحظ اجيالا وقبائل وشعوبا بكاملها» .

فريدريك نيتشه

«اذا اعترفنا بان هناك شعورا ، ايا كان ، اهم من حب البشر ، ولو فى ساعة ما او فى حالة استثنائية واحدة ، فما من جريمة الا وامكن اقترافها بحق الناس دون ان يعتبر مرتكبها نفسه مذنبا . . .»

ليون تولستوى

كلما تسلق القرد اعالى الشجرة . . .

آنا شيكلهروبر ، خادمة ، غير متزوجة ، انجبت طفلا اسمه الويس ، وتبناه شخص بلا مهنة محددة اسمه جون جورج هدلر ، وانجبت كلارا من الويس هدلر طفلا اسمه ادولف . . . ولد ادولف شيكلهروبر-هتلر فى مدينة براوناو

النمساوية في ٢٠ نيسان (ابريل) ١٨٨٩ .
العلامات الفارقة : ذاكرة جيدة واسنان رديئة .

. . . كان يبكي في المنام . استيقظ بسبب الوحدة والكآبة . فتح عينيه وتذكر بانه بدأ يمرض . فقبيل المرض تعود ان يبكي في المنام . كان لوحده في غرفة النوم الواسعة ذات الجدران الخرسانية الملبسة بالألواح والمبطنة بالسجاجيد الدافئة . لم يكن راغبا في رؤية احد . لكنهم كانوا ينتظرونه . فقد اجتمعوا هناك منذ الرابعة والنصف بعد الظهر . كان في انتظاره رؤساء اركان القوات البرية والجوية والبحرية . و«الشخص رقم ٢» و«الشخص رقم ٣» و«رقم ٤» و«رقم ٥» وكل المرقمين الذين رقموا انفسهم . يتطلعون الى الخارطة المنشورة على الطاولة ويثرثرون دون تكلف ويناقشون الموقف في الجنوب ويلقون نظرات حذرة على الكرسي الوحيد ويحاولون ان يحزروا افكاره هو وقراراته لهذا اليوم .

تعود ادولف شكلهروبر-هتلر من زمان على ان يفكر فيه الآخرون بانه هو الزعيم الاوحد ، ويروه هو ولا غيره . وصار بوسعه ان ينظر الى نفسه من الجانب بوصفه الزعيم الاوحد ، ولكن من الجانب فقط ، وليس من تحت الى فوق كما يتوجب على الآخرين ، بل على الاكثر كعريف حريص جدا رغم قلة الادب ، كمعاون يخيل اليه طول الوقت ان رئيسه لا بد وان يتصرف ليس بالشكل اللازم فتتدهور سمعته ان لم يساعده هو . «لماذا ترتعش يدك طول الوقت ؟ امسكها باليد اليمنى طالما ترتعش ! . . لماذا تشعر بالخجل وتحملق في ورقتك ؟ هل يليق ان تخرج نظارتك وتضعها على انفك

على مرأى من الجميع ؟ ! .

اصرخ ! اصرخ بصوت عال ولا اهمية لما تقول ، اصرخ وستسير الامور على ما يرام . سيعرفونك رأســـا وسيفرحون . . . » .

لم يغمض له جفن حتى الثالثة صباحا . كان يستمع الى تقارير ضباط العمليات ليوم امس عن عمليات الروس في اتجاه خاركوف والتي جاءت واسعة على غير المتوقع . هل من المعقول انهم حزروا بان الجنوب هو الاتجاه الرئيسي وليس موسكو ؟ . . وهم يريدون ان يسبقوك ويضعفوا شدة ضربتك . فات الاوان . كان يخشى مثل تلك الضربة السابقة في عام تسعة وثلاثين وفي عام اربعين ، كان يخشاها كالكابوس . فماذا لو بلغوا الطرق الاوربية المعبدة بالخرسانة ؟ ! ان ازاحتهم الى الوراء تكلفه انفاق كل الذخيرة المكدسة والبنزين والوقت . والاهم هو الوقت ، بالاضافة الى الحيلولة دون تعلمهم شيئا ، دون تعلمهم القتال : يجب ان ينهشهم كلا على انفراد ، الشيء الاهم ان ينهشهم كلا على انفراد ! نفس اولئك الجنرالات الذين كانوا يرتجفون امام الرحاب الآسيوية وامام دهاء ستالين صاروا فيما بعد يتدافعون مسرعين ليعلنوا بان كل شيء يجري بنجاح حسب المخطط ، بل وافضل من المخطط . وما كان احد منهم يتوقع المباغتة التكتيكية . كانوا يتوقعون المباغتة الاستراتيجية ، فهذا شيء مفهوم . وقد تمكن البعض من بلوغها عندما شرعت دولة ما بتحقيقها قبل غيرها واخذت تعمل بنشاط اكبر . ولكن هل يعقل ان لا يلاحظ العدو الآن اى شيء حتى آخر يوم مع ان الآلة الحربية الراهنة ثقيلة هدارة ؟ ! . .

ام انهم لم يصدقوا حقا ، ولم يريدوا ان يصدقوا ما رأته اعينهم وما سمعته آذانهم ؟ لقد تمكنوا من احراق الفى طائرة تقريبا على الارض . والبرقيات اللاسلكية التى امكن اختطافها غريبة عجيبة : «هجم الالمان علينا الآن ! يقصفوننا ويطلقون النار علينا والدبابات ترجف !» — «ماذا ؟ هل جننتم ؟ لا تردوا على الاستفزازات !» .

حقا ، اذا صمم القدر على قتل ضحيته فهو يعمى بصرها فى البداية . واذا اختار احدا فهو لا يبخل بالشارات . فما اكثر الشارات فى هذه السنوات ، سواء فى الشرق ام فى الغرب . . .

ولكن ما معنى هذا الحلم ، وتلك الدموع التى انهمرت من جديد ؟ تلك الدموع القديمة ، دموع الطفولة التى تقوده بعيدا الى الوراء حيث لم يكن هناك فوهرر ، وحتى لو كان هناك فلم يعرف به احد . ولم يكن هناك احد يريد ان يعرفه . لم يكن هناك فوهرر ، ولكن كانت هناك المخططات والاحلام ، الاحلام بالعظمة دوما ، احلام الفنان هتلر الذى سيثبت للجميع ويرغمهم على ان يزحفوا امامه ، كل الذين ما ارادوا ان يعترفوا به . . . هو الواقف عند رأس امه المحتضرة والعارف بانها ام المختار . كانت ام الفوهرر تحتضر تحت رعاية «طبيب الفقراء» اليهودى ادوارد بلوخ ! . . هل احتفظ الدكتور بلوخ ، يا ترى ، باللوحة التى اهديت اليه بعد الدفن ؟ هذه اللوحة المائية كالطلسم بالنسبة له . فكلما داهم الجيش الالمانى الطبيب اليهودى بلوخ ، ادوارد بلوخ من مدينة لينتس النمساوية ، اينما حل وارتحل ، فهو فى مأمن مثلما كان فى عام ١٩٣٨ . فاليد البعيدة القديرة على

كل شيء» تفتح امامه ابواب بلد مجاور . وكل مرة ابواب بلد مجاور ، طالما توجد بلدان مجاورة .

وربما سيكون ادوارد بلوخ آخر يهودى فى اوربا ، ثم فى اميركا ، ثم فى آسيا واوستراليا . . .

لا مجال للمرض الآن ، بينما متمرض انت من كل يد . فهل الوقت مناسب ؟ تماسك ، اضبط نفسك . انت بحاجة الى ذهن صاف . فهذا الهجوم يجب ان يصحح كل الاوضاع . فالشتاء برهن بانه ليس هناك من يعتمد عليه . واكثر ما يثير الغضب انهم يبدأون يتمتمون مدعين بانك لم تقل لهم شيئا ولم تحذرهم مسبقا . فليجلس لودفيغ كريغير من جديد ليسجل كل شيء ، كيلا ينكروا عندما يستعرض التاريخ النتائج . فهل يعقل انك لم تغسل ادمغتهم ولم تكرر عليهم مائة مرة ان الهدف الرئيسى ليس موسكو ، ليس موسكو ، بل الجنوب ، الجنوب بصناعته وبتروله ؟ ! ومع ذلك كل منهم يريد ان يسبق نابليون . ولا يهمهم ، لا يهم الجنرالات ان البقية الباقية من البنزين لا تكفى الا لشهر واحد . لقد جروا الجيش الى الثلوج ، الى الهلاك . واستعدوا للفرار الى بيريزينا وابعد منها ، مثل ابن كورسيكا ذاك . كانوا سيفرون حتما لو لم آخذ زمام الجيش بيدى ولم احول الكماشات الروسية الى معاقل المانية . ومهما نحيت بيك وبراوهيتش وامثالهما فانهم جميعا من طراز واحد وهم يعتبرونك مجرد «جندى اول» لم تبلغ رتبة ادنى ضابط مهما كرروا باصوات عالية معسولة : «سيدى الفوهرر» . ولو سلمت الجيش انذاك الى الكابتن ريم لوضعكم جميعا فى صف واحد مع اوطأ المراتب . وربما عبثا انى لم اسلمكم له ! ها — ها ، ما اشد

دهشتهم وعجزهم عن اخفاء تلك الدهشة ، وما اشد غيظهم عندما القى «الجندى الاول» توجيههم الفارغ عرض الحائط وكتب توجيهه بشأن الهجوم على القفقاس وعلى ستالينغراد . كيف لا يزعلون وانت لم تتعلم علومهم — لم تنتحل من كلاوزيفتس ومولتكه وشليفين — ومع ذلك تتدخل فى قدس اقداسهم ؟ ! انهم لا يستطيعون التعود ابدا على عدم وجود وزارة الحربية والاركان العامة بعد الآن . فهناك لا يتخلص المرء من كبرياء الجنرالات . انهم لا يستطيعون ان يدركوا بان العامل الرئيسى هو ما تولده عبقرية الفوهرر وليس ما ترسمه مساطرهم فى الاركان . انى نفسى لا استطيع ان اوضح كيف ينطلق ذلك من ذهنى ، ولكن هل الادلة قليلة ؟ سيسجل التوجيه رقم ٤١ فى الكتب الدراسية . انه توجيه حاسم بخصوص معركة حاسمة . ففى الوقت الذى ينتظر فيه ستالين هجوما جديدا على موسكو (وهم يتصورونها ذات قيمة) ساقطع عروق روسيا . فى الجنوب اولا . ثم طريق مورمانسك . وستبقى موسكو معلقة فى فراغ . غبار وبحيرة دم . لست بحاجة الى موسكو، ولست بحاجة الى بطرسبورغ ايضا . فليرتجف العالم : ساقتلع ضرسى اوربا المتألمتين . سترجع هملايا صدى ذلك . وامامى ايران والعراق ومصر والهند . . . والتبت ! ولن يحول احد اخيرا بينى وبين عيون الجبابرة .

الكون بارد املس مقعر مغلق ، وفيه تجويف مضاء بنور الشمس ، كمصيدة ذباب زجاجية . والجدار من جليد ازرق لا نهاية له . والعيون هناك : من الخارج وفى التجويف الدائرى ، داخل الكون الجليدى يزحف على الجدار المقعر

اولئك الذين يسمون انفسهم بشرا (ويتصورون بانهم ليسوا فى داخل الكرة بل على سطحها ، «على الكوكب») . ومن الخارج العيون . عيون من جليد . كلا . عيون متقدة ! انا وحدى ، وحدى اراها . لم يكن سهلا استدراجها واغواؤها من مسافة الف عام ، من قمة الف عام ، وايقافها وتركيزها علي ، على المانيا . يتصور جنرالاتى من امثال لوديندورف ان الروس هم الذين اوقفوا زحفى فى معركة موسكو. كلا . فقد تركتنى ، تركتنا العيون . قادتنا الى جانب فزحف الجليد وبدأ ينتصر . وتراجعت النيران . اشاحت العيون عنا لحظة لكى نتحسس ما سيحدث لنا لو انها تركتنا الى الابد . كما تركته وسلمته الي . يجب ان لا نخشى فرق سيبيريا ولا اميركا ، بل يجب ان نخشى غضب تلك العيون . انه ليس غضبا ، بل هو لامبالاة مباغتة وغياب . انها غائبة ، والجليد يزحف على ذلك التجويف . يجب ان نكون لهيبا لها ، وغضبا ورعبا ، وعند ذاك تنظر العيون من جديد وتنتظر وتطالب . وسيسير كل شيء كما تنبأت به انا . وسيقتنع الجميع بذلك مرة اخرى عندما يسرى مفعول التوجيه رقم ٤١ ويتقدم الجيش السادس مظفرا توجهه حاستى السادسة . ذلك توافق عجيب ! هذا هو سلاحنا السرى الرئيسى الذى تمتلكه المانيا طالما انا موجود . طالما انا موجود فقط . فوجودى اهم عامل . حان الوقت لادراك الحقيقة البسيطة : فالفوهرر طيب ليس لانه طيب ، بل لانه موجود ولا يمكن الاستغناء عنه . انهم يلوموننى على الحلول الارتجالية . يلوموننى انا ، تلومنى هذه الديدان الورقية التى ترتدى البزات العسكرية وانا الذى اعدت اليها ، انا

«الجندى الاول» و«الضابط الصغير» اعدت اليها الشارات الجنرالية والفيلدمارشالية . اعدت الى المانيا السلاح ، لكن هؤلاء لا يزالون يعيشون بروحية كلاوزيفتس ، والحرب بالنسبة لهم خادمة للسياسة لا اكثر . اما السياسة فى كراريسهم ومفاهيمهم فهى مجرد علم عن الممكن ، علم «الممكن» ! اى علم هذا ؟ سخافة . الممكن استطيع بلوغه حتى بدون اى علم . كل القضية فى بلوغ المستحيل . المسألة المطروحة هى حياة او موت الجنس ، بينما يتحدثون عن «الممكن» . ليست الدول هى التى تحترب اليوم ، بل الاجناس — الجميع ضد الجميع . مهما تشكل من احلاف وائتلافات . ويجب ان ينتصر ويبقى جنس واحد لا غير . فهل يمكن ان يتغلب جنس واحد على الجميع ؟ ولكن هل تتصورون امكان هلاك الجنس الجرمانى الآرى ؟ اجل ، انتم مرتبكون من شىء آخر : ما الداعى للصياح امام العالم كله ؟ لماذا نكشف عن اهدافنا النهائية ونكسب عداوات نحن فى غنى عنها ؟ فليتصور العالم ان «كفاحى» وان خطر ابادة الاجناس الوضيعة مجرد كناية بلاغية او مبالغة . . .

لا بأس ، فليتصور العالم ذلك على هذا النحو اذا كان يخاف ولا يجيد مواجهة الحقيقة ومواجهتى . ولكن ما الذى يجعلكم انتم ، انصارى وارقامى ، ما الذى يجعلكم انتم الالمان ، تجبنون ؟ اننا لا نزال فى بداية الطريق وفى بداية العمل .

ليس تضييع الاحلاف والائتلافات بالشىء المخيف . فألمانيا لم يكن لديها حلفاء امناء ابدا . الامر الرئيسى بالنسبة لنا هو عدم تفويت الفرصة . والتحالف المهم الوحيد

هو التحالف معهم ، مع الجبابرة . ولا اهمية الا لشىء واحد هو انهم اختارونى ، وانى معهم . انا اعرف ، اعرف تماما ، ان العيون ، قبل ان تلاحظنى ، لمحته هو ، لمحت عدوى الرئيسى . ولهذا السبب اكرهه اكثر من كرهى له بسبب بلشفيته التى يخوف صاحبى جوزيف اوربا واميركا بها . كانت العيون تتطلع اليه وتحسب حساباتها وتقدر تقديراتها . ولقد فهمت ذلك . فقد ظهر قبلى . وهناك آسيا . وهذا اقرب . كانت العيون تؤيده عندما كنا مشغولين فى شبه الجزيرة الاوربية التافهة ، فى ميونيخ ، بل وحتى عندما لم تكن برلين فى ايدينا . لم يكن لدى الالمان زعيم معترف به ، فمن الذى تراه تلك العيون ؟ لم يكن هناك غير الساسة التافهين الجبناء الذين يرتجفون من مجرد قرقرة بطون الفرنسيين والانجليز التى تهضم بكسل الغرامات الالمانية . كانوا يرتجفون من تلك القرقرة وكأنها هدير القذائف . فالى من تنظر عيون الجبابرة والحال هذه ؟ هل تنظر الى المسكين دوتشى وجنوده الذين يشبهون ممثلى الاوبريت بقمصانهم السوداء . عندما تحين الساعة لن اعينه ، على الاغلب ، حتى فى منصب حاكم ولاية . بسبب الرائحة الكريهة من فمه . وهذا السبب وحده كاف . فتلك الرائحة تفوح حتى من سماعة التلفون كما يخيل الى . انه يلتهم اللحم بنهم . وبالمناسبة ، فذلك مثال مشهود على الائتلافات ! فما اكثر شجاعة دوتشى ، بل وكل اتباعنا العفنين ، فى الهجوم الى الامام ، ولكن بعد ان يتفوق السلاح الالمانى وينتصر . كلا . هذه المرة ستدفع ثمن النصر بالكامل . ستذهب لاحراز النصر فى القفقاس ، وعند الفولغا ، ستذهبون

الى هناك جميعا ! . .

نعم ، لقد تأخرت ، وكان هو فى محط انظارها . لعن الله الجغرافية . لعن الله شبه جزيرة اوربا . ثم ان الشعب الذى ورثته يسبب متاعب ايضا . فهو وان كان غير ملوث جدا بالفولتيرية واليهود ، مثل الشعوب اللاتينية ، لكننى يجب ان اكون حذرا تجاهه . فالالمان اليوم ، وخصوصا الالمانيات ، لا يغسلون ايديهم اذا لمسوا يد الفوهرر او ثيابه او سيارته . وهم يحدثوننى عن ذلك بانفسهم من الاذاعة . ولكن ما اسرع ما كانوا سيغسلون ايديهم ويتنصلون لو لم تنجح عملية الراين وعمليتا تشيكوسلوفاكيا وبولونيا . . . فالتذبذب والتطرف من طباعهم . فقبل يوم واحد من فوزى كانوا قد صوتوا لصالح تيلمان الاحمر ، نعم ، قبل يوم واحد لا غير ! . .

فى الثانى والعشرين من حزيران (يونيو) ١٩٤١ عرفت كل شىء عنكم ايها الالمان . ابناؤكم تقدموا عبر اللهيب نحو الشرق لاحراز المستقبل العظيم لالمانيا ، اما انتم ، ويا للعار ، فقد اختبأتم فى جحوركم ومنازلكم وراء متاريس من الجبن والحذر . ولم يحضر ولا واحد من اهالى برلين — لم يكن هناك ولا متسكع واحد — الى جادة ولهلمشتراسى ليرحب بحرس الفوهرر ، حتى لكأن اجهزة الراديو تعطلت عند الجميع . . . لم يرغب الالمانى فى القاء نظرة على مسيرة القوات . فهل يجوز ذلك ؟ ! لقد اتضح ، يا انصارى المخلصين ، ان كل شىء ممكن معكم ! فمجدوا الفوهرر وانتصاراته المنقطعة النظير ، فان صوتكم المكبوت انطلق حالما بلغت مسامعكم الانتصارات العظيمة فى الشرق —

لكن ذاكرة الفوهرر جيدة . ان ذاكرتى ، على اية حال ، ممتازة يا انصارى المخلصين ! . . مع امثال هؤلاء بالذات تمكنت ان احقق ما لم يحققه احد ، فى غضون ٥ — ٦ اعوام ، وليس ٢٠ عاما . وكانت وسيلتى لبلوغ هذا الهدف هى الاذاعة وحدها . واليهود .

عند ذاك التفتت عيون الجبابرة صوبى . . .

الآن ساجعل منكم جرمانيين وسانتزع المتعفنات الالمانية من التاريخ ومن افئدتكم ! البدو والرعاة غزوا نصف العالم عندما ظهر عندهم زعيم وفكرة ودين حقيقى ليس للضعفاء والمساكين بل لمحاربين مخلصين للرسول . المغاربة ، وليس الرومان ، هم الذين ينبغى لنا ان نقتبس منهم الدين ، وبهذا الدين ، بهذا الدين نرث نصف العالم . الا ان الجرمانيين حدث لهم اسوأ ما يمكن ان يحدث : لقد حملوا على اكتافهم ذهب الرومان ، وفى نفوسهم عشعشت الجراثيم اليهودية المسيحية . كلا ! من آسيا البلشفية سنحمل ذهب النصر فقط . الذهب فقط . اما الجراثيم فسنحرقها بالنار فى مكانها كالكوليرا فى العصور الوسطى .

الا ان رعاياى الألمان يشتهون ويخافون فى الوقت ذاته . . . فما افخم المشاريع التى يبعثها الحكماء من وزارة شؤون الشرق ! اخذوا يتجادلون جدال الموظفين : كم عدد الذين يجب تهجيرهم بموجب الخطة العامة ؟ هل هو ٣٠ ام ٥٠ ام ٧٠ ام ١٠٠ مليون ؟ الا يقع على ضمير الالمانى التاريخى «عبء ثقيل» اذا عاملنا البولنديين كما نعامل اليهود ؟ الا يمكن تأليب الاوكرانيين على الروس وتأليب اللتوانيين واللاتفيين على اولئك وهؤلاء وعلى البيلوروسيين ؟

الجميع يحاولون الالتفاف على المبدأ الثابت : لا يجوز لاحد ، ما عدا الالمان ، ان يحمل السلاح من الآن فصاعدا وحتى فى شخص صاحبى روزينبيرغ صاصاً احد اللبراليين ان الكتابة على الورق والكلام فى المجادلات والاحلام الرومانسية شىء ، والممارسة من لحم ودم شىء آخر . فهو ايضا — فى السر طبعا — يعتبر نفسه معلما لى . فهم الذين «اكتشفونى» و «شحنونى» و «صنعونى» ! حتى الفوهرر بالنسبة للالمانى مجرد قطعة من السجق المحشى . ثوريو ولهلمشتراسى يريدون ان ينتصروا بواسطة السلافيين وحدهم على الآخرين ويبيدوهم . لا شىء فى رؤوسهم غير الاحلاف والائتلافات . الارقام لا تثير الرعب فى الاحلام وعلى الورق . ولكن عندما حان وقت العمل . . . حبذا لو تطلعنا الى امثال ماثير وفيتسيل هؤلاء والى صاحبى المهذب الفريد فى البلطيق وهم مكلفون ليس بحساب ملايين الارواح ، بل بقتل امرأتين او ثلاثا ولكن بايديهم ، وخصوصا اذا كن مع اطفالهن ، لو وضعناهن حيات امامهم وقلنا لهم : هيا ، نفذوا رسالتنا التاريخية لتجللوا بالعار مثل هيملر فى مينسك . امر باطلاق النار على مائة شخص ، لكنه شحب وبهت وفر كالمرأة اثناء اعدام العشرة الثانية منهم . ولاذ بالصمت . فهو غير مستعجل لتقديم تقرير بهذا الخصوص ! . . يجب اطلاق النار دائما وابدا ! اننا نحرق فى الشرق بالاضافة الى ذلك الكبريت الالمانى المستخرج من المناجم الجرمانية . فلن نحصل على فولاذ جيد بدون ذلك . وسنفعل ذلك دون رحمة . فالجنس النقى لا يصنع فى المختبرات بمقاييسكم للجماجم فقط .

كلا . ان ما يعوزنى ليس الخامات وليس «التسلح العمودى» و «التسلح الافقى» . فمهما ثرثر «الاخصائيون» من اتباعى فستكون هناك خامات وسيكون هناك سلاح اذا تمكنا من موازنة الموارد بمهارة . الذى يعوزنى هو الوقت ، لكى نصهر من هذه الخامات البشرية التى خلفها لنا التاريخ ، من قمامة الاجناس هذه ، فولاذا خالصا للجنس الجديد ، للانسان الجديد . ما ان تضغط على ريشة القلم حتى تتساقط مائة والف ومليون على الورق . وما ان تضغط على الزناد حتى يتساقط نفس العدد امام فوهة الرشاش . سيكون كل شىء سهلا وبهيجا بالنسبة للانسان الجديد . ولو كان عندى جيلان او ثلاثة اجيال حاصلة على التربية اللازمة لما كان هناك مستحيل . ولكن ما أعطيت من وقت هو ست سنوات فقط ، بالاضافة الى الفترة التى كنت اسير فيها الى دست السلطة . وحتى هذه السنوات الست لم تكن من حقى على ما يبدو . فقد كان يتعين ان ابدأ فى عام ١٩٣٨ ، من ميونيخ مباشرة ، رغم تنازل جبناء لندن عن كل شىء . الا ان جبناء المانيا تعلقوا بى على يدى ورجلى : الوقت مبكر ، لسنا مستعدين ، حبذا لو انتظرنا نصف سنة على الاقل ! لم تصبح اكثر قوة ، لكن باقى العالم افاق واستعاد رشده . وما كان يجب ان نمنحه تلك الفرصة . اضف الى ذلك تلك الحادثة الحمقاء ، حادثة الهجوم الايطالى على اليونان .

لقد انتزعوا منى وينتزعون شهورا واسابيع يمكن ان يبقى اثرها مئات السنين ! . .

كلا . كان يجب على ان ارفع صوتى حتى يسمعنى حلفاؤنا الرئيسيون . فاللهجة السياسية وهمس الاستعارة والكنايات

لم تجد نفعا معهم . كان يجب ان اصيح باعلى صوتى وبصريح العبارة . وكان يجب ان يروا بانى مستعد لاداء قضيتهم والخوض فى دماء لم يتجرأ احد على الخوض فيها ، علنا وعلى المكشوف فى اقل تقدير . كان يجب ان يصدقوا بان كفاحى هو كفاحهم . فبالنسبة لهم سواء اذا كان نهر الدم يجرى من الشرق الى الغرب او من الغرب الى الشرق . المهم ان يجرى وان لا يكون جدولا صغيرا . بل سيلا يجدد كل شىء ويحمل كل قذارات التاريخ وقمامة الاجناس . ثمن الفكرة يحسب بالدماء . ولفكرتى ثمن اغلى فى انظارهم . فما من فكرة سواها وعدت بهذا القدر من دماء التطهير ونيرانه . . .

لقد فهمت رأسا حالما حدث ذلك . فقد حولوا انظارهم اخيرا صوب المانيا . وخصوصا عندما بدأت الاحداث فى فنلندة الصغيرة . واكتسب الماضى منطقا اعلى تكشف لى فجأة . وفهمت : لقد حان وقتى . وحتى ما كان مخفيا مختبئا عنى الى حين ، حتى ذلك صار من اهتمامات العناية الالهية بانتصارى ونجاحى . لقد فتحت الباب على مصراعيه الى الشرق دون ان اعرف ماذا سأرى هناك . ولم اكن اعرف او اتوقع اى جيش لجب من الدبابات واية قدرة جوية عنده هناك . ولو كنت اعرف لما صممت على الاكثر . ولم يكن ذلك داخلا فى حساباتهم . فسمحوا له بان يخدعنى . ولذا استدرجونى ودفعونى للهجوم ولتدمير وكنس الجيوش المقيدة من ارجلها وايديها بخوفه من المصير ، بالخوف الذى اوحوه اليه واوهموه به . . .

وحتى عندما حشد كل ذلك قرب الحدود كان مندفعا

بايحائهم ، لكى اتمكن انا بضربة واحدة . . .

ينبغى ان نعرف ونفهم ان كل مشاعرنا واهدافنا ومصالحنا وحدودنا وما الى ذلك شىء صورى غير الزامى بالنسبة لهم ، مثل تصورنا العادى بان الارض كرة حجرية وصخرة مكورة . وانا الوحيد بين الناس اعرف ذلك ، انا الوحيد ارى عيونهم وارى «كوكبنا» كما هو فى واقع الحال — كرة جليدية من الداخل . فما ألذ ان تحمل فى دخيلة نفسك المعرفة الكبرى وتتحمل نظرتهم المسلطة عليك من عيون الرعب ! وحوالينا عالمنا الصغير المعتاد ، وخوف دنيوى عادى على محيا يفا : «عمن تتكلم يا عزيزى ؟ من «هم» ؟ من تقصد ؟ هل انت متوعك ؟» . ما ابسطها ! انها لا تصدق مع ذلك بانى اكبر من «سيدى الفوهرر» . عندما ارسلت يليزابيتا فيرستر ، تلك الجرمانية الباسلة ، شقيقة نيتشه العظيم ، تحية الى «اول سوبرمان على الارض» خيل للجميع ان ذلك مجرد مجاملة لفظية جميلة . فكل شىء بالنسبة لهم مجرد كلمات فى آخر المطاف .

انهم لا يتوقعون ، حتى «ارقامى» المقربون لا يتوقعون ان الناس الجدد موجودون ، يعملون هنا ، وانى رسولهم . ان وجودى من اهم العوامل .

لو كان كل ما تحملته وتجاوزته قد تحملته وتجاوزته من اجل احد ما او شىء غير هذه الفكرة لما كان له داع . لقد تمكنت من كل شىء وتسنى لى ان اجعل عيون الرعب تتطلع الى المانيا . نفس المانيا التى اهانونى فيها وحطوا من كرامتى ولم يرغبوا فى الاعتراف بى ونعتونى «بمأمور البريد» وهددوا «بطردى بالسوط» الى النمسا . . . لا بد وان ذلك

الوغد البولونى غجيسينسكى موجود ، مختبئ فى مكان ما ، بعد ان تجرأ على استلام رتبة بوليسية المانية . لقد تجرأ على تهديد الفوهرر المرتقب بالسوط وتخلص من العقاب. واختبأ الآخرون ايضا ، فما اكثر المختبئين ! لقد فروا الى المجهول ، الى الموت او الى خارج البلاد . اما الثور العجوز هيندينبورغ فقد فر الى الامجاد الالمانية ، الى التاريخ . باول فون بينيكندورف اوند هيندينبورغ ! اعطونى وقتا وساجعل اسماءكم اقصر من هذا الاسم . لقد حل زمان الارستقراطية الجديدة . وسيأتى زمان تغدو فيه المدافن الالمانية اوسع . سأبعثر رفات هذا البهلول البليد قبل غيره . . .

«ما قيمة هتلر هذا ؟ ساجعل منه مأمور بريد يلعق الطوابع التى عليها صورتى . . .» . كيف تجرأ على التفوه بمثل هذا الكلام ؟ !

الويل لك ايها البغل العجوز . لقد عرفت فيما بعد من انا ، كما عرف غيرك . شددت بفتور على يد مستشار الرايخ الجديد الذى دعاه الشعب الالمانى لاستلام السلطة . بفتور ، لكنك شددت على يده ! كان «فون اوند» يدرك ، يدرك تماما ان ادولف هتلر ما جاء ليلعب لعبة الثرثرة البرلمانية . جاء ليقذفكم كلكم . وسنرى اين تبقى «صورتك» ، ايها البغل العجوز ، عندما اشرع انا بتحويل التاريخ الالمانى كما يجب . سيأتى الوقت ، وستحين الساعة ! . .

ما اكثر ما اتهمونى به ولامونى عليه ! اتهمونى بالفرار من الجيش النمساوى ، ولامونى على حرف «د» «اليهودى» فى لقب جدى . . . لامونى حتى على السيارة «باربعين الف مارك» . ظل هؤلاء المصياحون من الفصائل الهجومية يلوموننى

حتى حل ليل السكاكين الطويلة وروضهم . لامونى على السيارة التى انقذت الفوهرر فيما بعد عندما خلصتنى من رصاص البوليس بعد ان انكسر عظم ترقوتى وانا بيدى هذه . لكنها انقذتنى . فمن انتم بدون الفوهرر ؟ والى اين كان المصير سيسير بكم لولا الفوهرر ؟ ما اشد جشع الرعاع الذين يحاولون ان يستولوا على المرء ويفرضوا سيطرتهم حتى بعد ان يغلبوا على امرهم ويخضعوا له . انهم يمدون ايديهم بالولاء لكى يستولوا عليه بالكامل . ويوفقون فى ذلك احيانا ، مثل هيلى العسلية ، ابنة اختى المكتنزة البدن والمتوترة الاعصاب . وعندما لم توفق بالكامل التقطت المسدس وخلصت سيدها من وجودها . وقالت : «سأذهب اذن» . وذهبت . انزوت واطلقت النار ، غيورة عصبية ، مثل المانيا نفسها . دفعت الثمن بنفسها . الغيرة وعدم الولاء — تلك هى طبيعتهن . حتى يفا حاولت ان تبدأ من ذلك فى الشهور الاولى لعلاقتنا. كانت طول الوقت تهدد بالانتحار متسممة . كل ذلك لكى تفرض هيمنتها بعد ان خضعت . ولكى تخون بعد ان تهيمن . فلدى الجموع ولدى المرأة بهذا الخصوص احساس دقيق وغريزة مجربة وطريق قويم . ونفس الجشع موجود . فمن خلال الحب والخضوع تنتزع كل الافراح التى لا تستطيع ان تعيش بدونها . يريدن للرجل ان يعيش من اجلهن ويتنفس انفاسهن ولا شىء آخر . حتى الآن اخفى عليهم يفا ، فلو عرفوا لزعلوا على حتى الموت . كيف لا ، وانا عاقد القران مع المانيا . الالمان الطيبون المخلصون مستعدون لانتزاع كل شىء من الفوهرر الحبيب . الا ان الفوهرر ليس بحاجة الى شىء . مطلقا . فلديه ما لا تجيدون حتى التفكير

فيه ، ولا يحزره حتى الذين يعرفون بقصة يفا ، حتى اقرب «الارقام» . حتى جيرمان ، ذاك الخنزير الافريقي . والرايخسفوهرر العليم بكل شيء لا يعلم . كيف حال صاحبي الاعرج جوزيف يا ترى ؟ هل تضرب ماجدة ذاك الالماني القمىء ام انه يجعلها تتجنب الاطفال متمتعا باللذة والجهود ؟ كم عددهم الآن يا ترى ؟ خمسة ام ستة ؟ لمح هملر الى علاقته بامرأة سلافية ، بتشيكية سافلة . يا للشيطان الصغير ، يا للاشتراكي !

انني على علم باسراركم المعيبة وعيوبكم السرية يا رعاياي الالمان المطيعين للقوانين . يا فاسقون غدارون ، يا مجتهدون حذرون . نحن مترابطون بسر مشترك امام العالم . فانتم حتى امامي تتظاهرون بالسذاجة . ما اكبر هذه السذاجة الالمانية القديمة ، وما اكبر هذه النزاهة على مرأى من العالم كله ! انهما بالذات اعظم دهاء الماني واعظم نفع . وكما ان الشفابيين اعظم الكذابين في المانيا . كذلك نحن اعظم الكذابين في اوربا . فالحمد لسذاجتنا الشيطانية . واذا كنا سنتفوق على الاجناس الاخرى فبسذاجتنا التي كانت تغذي دوما الشعور الالماني بالاحقية امام الجميع في كل شيء . فمن اكثر مني تمسكا بهذا الشعور الالماني العبقري ؟ لا داعي للتحايل امامي على الاقل . فانا معكم دوما في كل شيء . ثم اننا نطالب بنزاهة دوما بما هو ضروري فقط ولا شيء اكثر ! نطالب وفقا لحق الحضارة الالمانية وحب العمل الالماني . نطالب بنزاهة . ان شعور اي الماني متألم من اجل المانيا انما هو اكثر المشاعر عدالة . انه شعور شعبي اكثر مما عند اي شخص آخر . ما كان هناك احد ابدا

يريد ان يعير اهتماما لحقوقنا ومطالبنا التي هي عادلة تماما . ونحن نعلن اليوم بنزاهة اننا اصبحنا من الآن فصاعدا امة ابادة . وعلى الانكلوسكسونيين ان يحيلوا الينا مع الشرق الاوسط وافريقيا وآسيا هذا الدور وهذا الحق .

ان نزاهتكم الساذجة ، ايها الالمان ، هي نزاهتي انا ايضا . لكنني لن اسمح لكم بان تمارسوا اللعبة المعروفة تماما : لن تتمكنوا ان تتنكروا بسذاجة لزعيمكم الفوهرر . ولن تتنصلوا وتغسلوا ايديكم التي امتدت صوبه وحاولتم بها ان تلمسوا ثيابه او جناح سيارته على الاقل . فانا لم آت بنفسي ، نحن لم نأت بانفسنا . لقد دعوتمونا انتم . ولو لم تتحايلوا وتتظاهروا بالسذاجة لما كنتم المـــانـــا . لم تخرجوا معنا الى شوارع ميونيخ . كنتم تتطلعون بحذر من وراء الستائر عندما تقدمنا لمواجهة الرصاص . ولم تمنحوني كل الاصوات مع انكم اغويتمونا . اما شتراسر الوغد فكاد يشق الحزب ، وكان كل شيء على شفا الهلاك . واضطررت الى ان اصوب المسدس الى صدغي ولم اتمكن من المحافظة على الحزب الا بالتهديد باني سانتحر وساخرج من اللعبة . لقد حولت عيونهم صوبي وغيرت سير الاحداث لصالحنا . ولديكم ادلة براءة دوما وفي كل شيء . ومع ذلك فلم نظهر من تلقاء انفسنا . لقد ظهرنا من احقيتكم الدائمية ، ظهرنا من الغيظ الالماني الساذج على الجميع : على اصحاب البنوك ، على الحمر ، على الغرب ، على الشرق ، على الهزيمة ، على المجاعة ، على الاقرباء والغرباء . انتم الذين دعوتمونا ! .

لقد اخترت الكفاح ضد الجميع حتى النصر الكامل ،

مما يعنى — وانا لا اخفى ذلك ابدا — ابادة المغلوبين عن بكرة ابيهم . وقد وافقتم على ذلك وسرتم ورائى ، وراءهم . لاننى حزرت ما فى نفوسكم ، حزرت ما كنتم تخجلون منه دوما وتخشون منه فى سريرتكم . نحن مترابطون . ولا تأملوا بانهم سيسامحونكم على ما لا يسامحوننى عليه اذا لم ننتصر .

اننى اراكم جميعا ، حتى النهاية ، وانتم ترونى على قدر ما لديكم من شجاعة ، وعلى قدر ما اسمح لكم به . ان السر المشترك بيننا ينتهى حيثما يبدأ سرى انا وحدى ، وحيثما يبدأ سر اختلاطى بالجبابرة . وانا اتكلم معهم ليس بالالمانية . وانا نفسى لم اكتشف ذلك فى الحال . ولم اكن افكر فى السابق مطلقا باية لغة نتكلم عندما تتطلع عيون الرعب الى وجهى . يفا مرتعبة تتساءل عما حدث لى ، وهى مستعدة لتلمس رأسى لولا خوفها من اغاظتى . واكثر ما يخيفها انى اتكلم بلغة لا تعرفها . لا تعرف مما اتكلم سوى الاسماء : ديتريخ وبيتش وليانتس وكويتشيك . . . ولكن ما علاقة كويتشيك ، هذا الموسيقى المسكين ؟ عم اتكلم ؟ نعم . هكذا يجب ان يكون : لغة خاصة ليست فى متناول الجميع ، لغة العارفين . ولكن اذا لم نختر الالمانية فاية لغة نختار نحن الذين اخترنا انفسنا ؟ نحن نخطط لكل شىء ، اما حكماؤنا ، كل حكمائنا ، فلم يكلفوا انفسهم حتى عناء التفكير فى ذلك . ولم يخطر ذلك ببالى رأسا . فما اكثر الشعوب النافلة والاجناس الفاسدة . ولكن لها لغاتها ايضا . وهى كذلك من غنائمنا . الا ان احدا لم ينتبه اليها . وكان الرأى الشائع ان ذلك من سقط

المتاع ، وانه شىء لا نفع فيه ولا يستحق الا النسيان . ولكن تلك فروة رأس رائعة للمنتصر . كيف لا ؟ فذلك انعطاف مفاجئ فى الفكر . مزاح من التاريخ . ولا احد يفكر فى الكيفية التى سيتفاهم فيها البشر الراقون وبم ستحتمى طائفة الاسياد عن الذين فى الاسفل ؟ وكيف ستتفاهم مختلف الطوائف التى سنشكلها ؟ والحل الامثل هو تخصيص لغة لكل طائفة ، بالاضافة الى اللغة الرسمية ، الالمانية مثلا . فبدون ذلك لا يتجلى الشعور بالتفوق والتنور والعلاء ، وذرى التبت . فهل من حاجة الى ابتداع لغة خاصة اخرى ، لغة الاسبرانتو الجديدة ، شىء مقرف . انها جثة . كلا . يجب الحصول على لغة دافئة من لحم ودم ! فمن قال ان ذلك يتعارض مع فكرتنا ؟ فنحن لا نرفض حتى اللوحات الفرنسية التى هى تفسخ وفساد ، ولا نرفض الكتب القديمة ، حتى الكتب المسيحية ! ان الريخسمارشال غورنغ مشغول بنقل كل شىء الى قصوره . هذا يريد لوحات وذاك منجما وضيعة ، لكن احدا منهم لم ير اعظم غنيمة هى لغة العدو ! الا يجدر بنا ان ننقل الى اعلى ذروة لغة اليونانيين ، مثلا ، او الالبانيين ، او شيئا ما اقدم . حتى هنيبعل والاسكندر لم يلاحظا هذه الغنيمة ، مع انهما كانا يعرفان حقوق المنتصر.

ماذا لو اخذنا الفرنسية او حتى الانجليزية ؟ لكننا سنضطر الى بذل جهد لتحوير الانجليزية ! ان جزيرتهم المعلولة المسلولة ليست اصعب كل شىء . ما قيمة الجزيرة : نغلقها فى وجه الزوار عاما او عامين بعد ان نرسل اليها كل الكتائب التى تتدرب الآن فى الشرق . لقد افاد باخ — زيليفسكى بان لديهم هناك ، وخصوصا فى بيلوروسيا كثيرا من العبر

والدروس التى تستحق الاهتمام . . . اذن ، ستغلق الجزيرة ، ثم نفتح ابوابها على مصاريعها : ادخلوا وانظروا ! ماذا ؟ اين الانجليز ؟ تقولون انه كان هناك شعب بهذا الاسم ؟ ابحثوا عنه جيدا ، ابحثوا ! فلا بد ان يبقى منه شىء اذا كان موجودا . . . .

سيكلفكم غاليا كبرياؤكم الجزائرى وتعنتكم واستعدادكم الدائم للتدخل فى الشؤون الالمانية القارية ! ولكن هناك ايضا ذاك الغول الاصطناعى البشع الذى يطل من وراء المحيط . والذى ابتدعه نفس الالمان المتحذلقين المتهورين . وسيكون من العدل لو تكلمت القارة الاميركية باللغة الالمانية فقط . وسيبقى فيها فقط ما سينطق بالالمانية . الا ان المشكلة ليست فى ذلك ، انها فى الديدان المتكلمة بالانجليزية — الآسيويين والافارقة والاوستراليين . ما اكثرهم فى العالم كله . فكيف يمكن انتزاع الفروة الانجليزية من كل هذه الرؤوس البيضاء والصفراء والسوداء ؟ ! ولكن كلما عظمت المهمة تصاعدت الحماسة . سنعمل فى غضون ١٠ او ٢٠ او حتى ٣٠ عاما على جعل اللغة الانكليزية التى كانت لغة «عالمية» فى زمن ما تخدم فقط اربعمائة شخص او اربعين شخصا فقط . والهدف هو عكس الهدف الذى يتوخاه اهالى الجزيرة المتكابرون . لا جدال فى انهم ساروا بثبات ومهارة طوال اربعمائة عام لبلوغ هذا الهدف وارغموا قارات جديدة على التكلم بالانجليزية . اما الآن ، فعلى العكس : يجب ازالة مليار ممن يتجرأون على فهم لغة الاسياد من وجه البسيطة . هدف خيالى لا يبلغه الا الآلهة ، وربما فيما قبل المسيحية . وستكون الالمانية هى اللغة المشتركة للذين سنسمح لهم

بالبقاء على «وجه البسيطة» . وستكون هى اللغة الآمرة . فهى كأنما خلقت من اجل ذلك . وليس من قبيل الصدفة ان مروضى الوحوش يستخدمون الالمانية بالذات فى السيركس وحدائق الحيوان فى كل البلدان . نعم ، نعم ، باللغة الالمانية ، الغش وحده مهذب ! من قال ذلك ؟ يجب ان تحذف من الالمانية المشاعر والعواطف الزائدة . فما اكثر الآثار التى خلفها فيها الانسانيون المتباكون الذين استخدموا طوال القرون مشاعر الرأفة والمؤاساة الوضيعة . ان ما كان لزاما ان تحول دونه هو عادة الحذلقة الالمانية . سيسعون بنزاهة الى اعادة بناء كل شىء على طريقتهم الخاصة ، على الطريقة الالمانية ، وكأننا قد جئنا لنرغم الاوكرانى على غسل الرصيف امام مسكنه . فليعيشوا ما تبقى من حياتهم فى قذاراتهم الازلية ، فليس من واجبنا ان نرفع مستوى ثقافة الاجانب وتعليمهم ومعالجتهم . اننا نفرض النظام الالمانى ولكن بمعنى آخر تماما . ان كل كلمة المانية ستدوى كاشارة او ايماءة ، وانهم جميعا يجب ان يهرعوا باقصى السرعة لتنفيذ الاوامر . طرق السيارات فى المقام الاول . وكل ما يجب ان نعلمهم اياه هو اشارات المرور . مع ان ذلك ايضا غير ضرورى . فلربما من اللازم استخدام لغة الايماءات . وحتى هذا كثير عليهم . فلن يسيروا على الطرق التى سيعبدونها ، سوف ينقلون عليها . ان كل قرية وكل شارع فى المدن اللاآرية التى تقضى نحبها يجب ان يعيشا حياة متقوقعة معزولة . فليس لهما ماض ولا مستقبل ، ليس لهما الا ما هو موجود الآن . وما هو موجود كالآتى : عمود شاهق فى مركز كل منطقة معزولة ، وعلى العمود مكبر صوت تنبعث منه الكلمات الالمانية الآمرة .

وفى باقى الاوقات تتعالى منه الموسيقى . سيول لا تنقطع من الموسيقى التى تغسل ادمغتهم وتطهر ذاكرتهم من الماضى كله . فلا تاريخ هناك ، لا شيء عن الماضى ، لا شيء عن المستقبل ، حتى تصل الى المدن والبلدات التى تعشش فيها الاحراش سيارات تنقل الجميع الى الشرق على الطرق المعبدة . لا توجد طرق جيدة هناك الآن ولا يسود الاستقرار المطلوب ، لكن النظام يجرى احلاله . القادة النـــابهون يستخدمون بشكل لا بأس به المبانى الخشبية ذات السطوح المصنوعة من القش . حتى الكنائس عند السلافيين مسقفة بالقش . ذلك شيء وثنى ، كالمحرقة المستخدمة لمرة واحدة . ولكن كلما توغلنا فى اوربا ، فى اوربا الخالصة ، تصبح الامور وتتعقد بدون نظام مرتب جيدا وبدون تكنولوجيا . فمنازل السلافيين الغربيين ، ناهيك عن الشعوب اللاتينية مبنية من الطابوق والحجر . ذلك منظر مثير : فنحن اذ نتقدم الى الشرق نبدأ فى الوقت ذاته بالتحرك من الشرق الى الغرب تحقيقا لاهدافنا العنصرية . . .

فى الخامس عشر من حزيران (يونيو) ١٩٤٢ اقدم السفاحون بامرة قائد كتيبة الاس اس اوسكار باول ديرليفانغير على قتل وحرق اهالى بوركى البيلوروسية ، وهى من قرى ناحيــة كيروفسكى بمحافظة موغيليف . وبالاضافة الى ذلـــك كانت كتيبة ديرليفانغير الخاصة (وهى من الكتائب الكثيرة التى عاثت فسادا فى اراضى بيلوروسيا) قد ابادت حوالى مائتى قرية اخرى ، اى اكثر من مائة وعشرين الف شخص . ومن تلك القرى قرية خاتين .

يو . ف . بوكروفسكى (نائب مدعى الاتهام الاول فى محكمة نورينبيرغ) : هل تعرف شيئا عن وجود لواء خاص تشكل من المهربين واللصوص والمجرمين الذين اطلق سراحهم ؟

باخ-زيليفسكى (الرئيس السابق لاركان جميع وحدات مكافحة الانصار لدى رايخسفوهرر قوات الاس اس) : فى اواخر عام ١٩٤١ وبداية عام ١٩٤٢ افردت كتيبة بقيادة ديرليفانغير لمكافحة الانصار فى منطقة مجموعة «المركز» المقاتلة فى المؤخرة . كانت كتيبة ديرليفانغير هذه مكونة بالاساس من اصحاب السوابق ، لكنهم فى الواقع مجرمون جنائيون حكم عليهم بسبب السرقات الفاحشة وجرائم القتل وغيرها .

بركروفسكى : ما هو فى رأيك السبب الذى جعل قيادة المؤخرة الالمانية تقدم على زيادة عدد وحداتها من بين المجرمين ؟

باخ-زيليفسكى : اعتقد ان لذلك صلة مباشرة بخطاب هنريخ هيملر فى فيفيلسبورغ فى مطلع عام ١٩٤١ قبيل الحملة على روسيا ، حيث قال ان هدف الحملة على روسيا هو اعدام واحد من كل عشرة من السلافيين ، وتقليص عددهم الى ٣٠ مليونا . ولاجل التجريب تشكلت تلك الوحدات الوضيعة التى كانت فى الواقع مخصصة لتنفيذ هذا المخطط .

كانت الكتيبة الخاصة بقيادة الدكتور اوسكار ديرليفانغير مكونة من ثلاث سرايا المانية (بالاضافة الى الالمان كان هناك فاشيون نمساويون وسلوفاكيون ولاتفيون ومجريون ، وكان هناك فرنسيون من فوج المشى رقم ٦٣٨) ومن «سرية بارتشكه»

(اوغست بارتشكه من الالمان المحليين ، مدير شرطة ناحية كليتشيفسكى) ومن «سرية ميلنيتشينكو» (ايفان ميلنيتشينكو من البنديريين *) — من الكاثوليكيين واللوثريين والارثوذكس والمسلمين والملحدين . . .

وكانت منطقة بوركى مكونة من سبع قرى يقيم فيها اكثر من ١٨٠٠ شخص . . .

من افادة السفاح فيودوسى فيليوفيتش غرابوفسكى وهو من مواليد قرية غرابوفكا فى محافظة فينيتسا ، ومن افراد كتيبة ديرليفانغير :

«توجهنا للقيام بهذه العملية من تشيتشيفتشى بالسيارات والدراجات النارية ... واتذكر ان الربيع انقضى والبطاطس تفتحت ازهارها ... قبيل الرحيل قال بارتشكه (ويسميه رجال الشرطة بارتشيك للتبسيط) — اننا متوجهون الى منطقة بوركى لنجدة الالمان لان الانصار فى هذه المنطقة اطلقوا النار عليهم . وعلى بعد ثلاثة كيلومترات تقريبا عن منطقة بوركى توقفت السيارات والدراجات النارية على طريق موغيليف — بوبرويسك . وبأمر من بارتشيك نزلت فصيلة اناتولى سولداتينكو وفصيلة دميترى دوبريتين وكذلك قسم من الالمان والاوكرانيين . وقال بارتشيك ان هاتين الفصيلتين ، بالتعاون مع مجموعة الالمان والاوكرانيين ، يجب ان تطوقا القرية المركزية والقرى المتاخمة لها من الشرق

* البنديريون هم افراد عصابات القوميين الاكرانيين الارهابية العسكرية الفاشية فى اوكرانيا الغربية .

والشمال . وواصلت الطريق فصائلنا الاخرى وكذلك قوات الالمان وقسم من سرية ميلنيتشينكو . . .» .

القرية الاولى

ايفان يفدوكيموفيتش توبيغا ، من مواليد ١٩٢٠ ، مسقط الرأس قرية يفيتسكو-نيكولايفكا فى محافظة دنيبروبتروفسك . اقام فى بيلوروسيا منذ عام ١٩٣٣ . انهى المدرسة الابتدائية من سبعة صفوف . اختصاصه خراط ميكانيكى . الطول ١٨٠ سم ، لون العينين بنى ، لون الشعر فاحم . شكل الانف مدبب ، الشفتان ممتلئتان .

العلامات الفارقة : التواء فى الرقبة وميلان الرأس الى الكتف اليسرى .

يا ويلكم من عمال . يعلمونكم ولكن بدون فائدة . يا ليتكم تقعون فى يد الرئيس الشتورمبانفوهرر دوليفان (ديرليفانغير) حتى يقطع آذانكم . يدخنون ويضحكون حتى نسمع ضحكاتهم من وراء المستودع . ولكن الالمان والبنديريين فى القرية ، فهم يعرفون واجبهم ! يتصيدون الشحم من السراديب ويقصفون الاسطبلات . ويتراكضون من حوش الى حوش كالمهووسين . . .

نبش توبيغا فى جيوب المعطف المجرى الاصفر المتهدلة كالضروع الخاوية . اذيال المعطف مرفوعة مدسوسة تحت الحزام . الجو قائظ كما فى يونيو ، لكنه لا يخلع معطفه . ولان رأسه مائل دوما الى كتفه ولان رقبته المعروقة

ملتوية ، يخيل للرائى انه ينصت طوال الوقت : اذنه اليسرى متجهة صوب الارض واذنه اليمنى مشنفة صوب السماء .

نبش فى الجيوب الملتصقة بقمصلة الاس اس الخضراء المزينة ببنادق صغيرة بيضاء متصالبة وقنابل يدوية على الياقتين السوداوين . وتذكر وحزر وضرب على ساقه فرحا : موجود . واخرج من جيب بنطاله قطعة خبز يابسة وضعها بحذر بين شفتيه الممتلئتين كشفتى الحصان وراح يمصها . انحنى ورفع بيديه رشاشا بركيزة متباعدة القوائم كان يتثاءب ضجرا عند قدميه . وقال بصرير من فمه : «طيب . اذهب» . وتشكى من جديد : «علينا ان نبقى واقفين هنا . . . » . ثم طأطأ رأسه ودسه كرأس حصان داخل السير الاخضر الفاتح المدهن فاستقر الرشاش بارتياح على صدره افقيا . وعدل توبيخا من وضعية الحديدة الثقيلة كيلا يضايق احدهما الآخر .

اين هذا السافل ، دوبروسكوك ؟ من اين جاءنى الله بهذا المعاون ؟ القى باسطوانات الخراطيش على الرمل ، والقى بالمعطف . واختبأ هو الآخر وراء المستودع وكأنهم هناك لا يستغنون عنه . ها هو قادم . هيا ، تعال . لالقنك درسا الآن واقول كلمة تسرك . ها هو يعرج مثلما يكتب ، هذا الكولخوزى الاجرب . هذا القصير العفن . دسوا قدميه فى مؤخرته ونسوا ان يخرجوهما منها وهو ايضا متوجه الى هناك . انه مستعد للتخلى عن الرغيف بشرط ان يسمحوا له بالذهاب الى الحريم ليخوف ويقرص النساء مع انهن بين الحياة والموت من شدة الهلع . وهو يدبر المكائد مع كاتسو . وهما دوما بانفين مخدشين وبوزين كالجرذان العفنة . كلا ، لو كنت

بدل دوليفان لعلمتكم ما هو العمل . انه يزحف مجرجرا قدميه . اما انا فيجب على ان احرس المنزل الخالى . ولم تبق فيه الا امرأة واحدة . نعم امرأة واحدة تلوح من جميع النوافذ . تتراكض من نافذة الى اخرى على طول المنزل . وقد نفد صبرها . ها هو حبيبك قادم . فلا تتصورى انهم نسوك . تذكروك ولو بعد نصف ساعة ، وها هو قادم اليك . ما أسوأ هؤلاء النسوة مع ذلك ! حقا ، انهن كمستودع الدجاج . يقتادونهن قسرا ليضربوهن ويقتلوهن . ومع ذلك يحملن الخبز والقصع والصرر بل وحتى الوسائد واثقات من انهم سينقلونهن الى المانيا . كيف لا ؟ فهى تنتظرهن على احر من الجمر . ما اكثر المآزر وكسر الارغفة والاسمال المنتشرة بين نبتات البطاطس فى الحقل . لكنها جميعا لا تسوى شيئا . لم آخذ منها غير منديل واحد مشجر عن آخره ، هدية لامرأة ساقطة من موغيليف ، فلتتبختر به . وانتزعت ايضا علبة ثقاب . كانت اصابعها تطبق عليها بشدة . حبذا لو سألتها : الى اين تحمليتها ؟ ربما تطبق عليها اصابعها منذ ان اخذوها من قرب الفرن فى الصباح . قلت لها : «اعطينى ثقابا لادخن يا عمتى !» فلم تفهمنى . سأموت من هؤلاء . من اين لهم الثقاب ؟ الالمان لا يجلبون ثقابا . فمن اين لهم به ؟ على العلبة علامة معمل بوريسوف . الحانوت اجهزوا عليه فى عام ١٩٤١ فلم يبق فيه شىء . فهل يرسلون اليهم من موسكو حقا ؟ الم يقولوا ان اهالى هذه القرية كلهم من الشقاة . لقد كنت هناك ، فى بوريسوف . الحمد لله ، كنت فى كل مكان . لكننى لم اذهب الى منزلى منذ مائة عام . ثم اين هو منزلى ؟

لماذا تسير غافيا ؟ اين اسطواناتك ؟ لماذا تقول «لا بأس» ؟ لو كانت الامور لا بأس بها لما قلت لك شيئا . فما ان يسدد الشقاة الضربة من تلك الغابة حتى تتراكضوا ويتسخن الجو حقا .

— كفاك ، يا ايفان .

— قل ايفان يفدوكيموفيتش توبيغا . . .

— الافضل ان تعطيني سجارة يا ايفان يفدوكيموفيتش . لعابى كالمطاط ، اعطنى سجارة .

— وسروالك ؟ هل هو ثقيل ؟

— ملأنا حفرتين بالكامل .

— وتلك التى تركتموها للانسال ؟ هل تحتفظ بها لنفسك مع كاتسو ؟ سيفرك دوليفان عيونكما اذا كنتما لا تريان . ربما هناك عشرة منهم وراء الفرن او تحت الارضية . فهل يتعين على ، انا توبيغا ، ان اسحبهم من هناك بدلا عنكم . لا تأملوا فى ذلك .

— عندما يحترق المنزل سيخرجون بانفسهم . فلماذا تجازف ؟ اصحيح ما اقول يا ايفان يفدوكيموفيتش ؟ اعطنى سجارة .

لا يزال دوبروسكوك القصير القامة ، بوجهه الصغير الاحمر المجعد كوجه طفل ولد توا ، ينقل رجليه بخطوات قصيرة فى جزمة ثقيلة ويبصق طول الوقت من فم ناشف ، بصقة جافة اثر كل كلمة يتفوه بها . عيناه محتقنتان متألمتان ومراوغتان فى الوقت ذاته . تطلع متهيبا الى النافذة التى لاح منها وجه امرأة ابيض واخذ يراوح بخفة بنوايا دفينة قرب توبيغا الذى اطل من فوق وراح يسلط عليه نظرات ساخـــرة

من رأسه المائل كما تتطلع الدجاجة الى دودة زاحفة وتكاد تنقرها وتلتهمها ، فى حين يمطط دوبروسكوك الفاظه ليطيل الكلام والزمان . . .

— قبل الحرب كان شبابنا يترددون على بوركى نفسها ، واقول صراحة ، لمعاكسة البنات .

— ولم يأخذوك معهم يا قصير ، اليس كذلك ؟

— كانوا يكررون اسم القرية دوما ، ويقولون فلنذهب الى بوركى . . .

— ولم يأخذوك . . .

— لم اكن بحاجة . الحقيقة انهم كانوا يترددون على القرية ، فهى كبيرة جدا . والدخان يتصاعد من منازلها هنا وهناك .

— كان رئيس الكولخوز اكثر المترددين على القرية . فهل من السهل جمعكم يا طفيليون ؟ هل من السهل جمع امثال هؤلاء العاملين ؟ لماذا تراوح فى مكانك ؟ خذها ومن بقى معها واذهب . انت تتلمس النساء بيديك ، بينما يسرق البنديريون كل ما فى الصناديق والسراديب .

وفجأة اخذ توبيغا يمسك جنبيه وبطنه وصدره ويتحسس كل جيوبه . ثم تجمد مسرورا كأرنب بلغ انثاه ، ويكاد يهمس بصوت محتضر وعينين زائغتين . تجمد توبيغا بنظرة زائغة غائصة فى الاعماق وكأنه ينصت الى شيء . وارتخى رأسه المائل حتى التصق بالكتف . وابتلعت تفاحة آدم اللعاب مرة واخرى كصمام فى انبوب . نعم ! وجدها !

3-304

(يبدو ان شخصا ما يضع فى جيوبه مفاجآت طوال الوقت) . اخرج علبة السجائر المدعوكة وتطلع الى ما فى داخلها وقال مسرورا : «واحدة» واطبقت اسنانه الصفراء على السجارة . لكنه لم يلق بالعلبة الفارغة بل دسها فى جيبه .

ومضى عبر البساتين الى القرية التى يتراكض فيها الجنود ببزاتهم السوداء والزرقاء من حوش الى حوش . تلفت حواليه واومأ غاضبا الى معاونه واشار الى حقيبة مخازن خراطيش الرشاش . ثم اشار الى النافذة التى تلمع مرتعبة . وتلمس دوبروسكوك سدارته الالمانية وشارة العظمين والجمجمة عليها وكأنه يريد ان يتأكد من وجودها ، وعدل وضعية البندقية الفرنسية على كتفه وقد بدت طويلة جدا بالنسبة له ، ثم عدل طرف قمصلته السوداء ومضى الى المنزل . وفى النافذة لا يزال وجه المرأة يرتعش برعب ابيض وتوقع مخيف . وضرب دوبروسكوك ارضية المدخل القذرة بكعبى جزمته ضربات صائتة وكأنه يعطى اشارة ما .

جاء ليخطفنى ، جاء ليقبض ارواحنا يا ولدى . سيقتادنا الى هناك ، الى ذلك الركن الرهيب الذى اقتادوا اليه الجميع . جاء دورنا ، يا ولدى ، دورنا جاء . كانوا يصرخون ويتنحبون باعلى الاصوات ، لكن الهدوء خيم الآن . ينتظروننا هناك وراء ذاك الركن الرهيب . ها هو عزرائيل قادم . يا ولدى الذى لم اقبله بعد ! او ربما ابنتى ؟ ! لم تبك ولا مرة بعد . لم اسمعك ولم ارك ولا ادرى هل انت ذكر ام انثى . لا تطرق ابواب قلبى بقدميك الصغيرتين ، لا داعى لذلك . انا هنا ، معك ، اما هذا فلربما يرأف بنا .

كان يدفعنى طول الوقت الى ركن الغرفة ، الى الجدار ليحجبنى عن الالمان الآخرين عندما جمعونا وغص بنا المنزل . كانوا يسحبوننا من الايدى والثياب ويضربوننا ويصيحون بنا وتعالى الصراخ والضجيج . التفت وعرفنى . لقد ادركت انه عرفنى واخذ يدفعنى الى الجدار بظهره . لا تخف ولا تتململ يا ابنى ، يا ابنتى . فما نفع بقائنا هنا لوحدنا ، ولم يبق احد ، لم يبق لنا انسان على وجه البسيطة ؟ ! لن تسمعا شيئا . سأتألم انا وحدى ، ساعانى افظع الآلام . من حسن الحظ انكما لم تظهرا بعد الى الوجود . ولن تريا هؤلاء . . .

— آ . . هذه انت ؟ مرحبا يا ابنة اخى . هذه انت ؟ الحقيقة انى رأيتك واخذت افكر . عرفتك رأسا ، مع انك حبلى . كيف تركك رجلك المعلم وانت حبلى فى مثل هذا الوقت ؟ هل التحق بالجيش ام بالعصابات ؟ لماذا تنظرين الى النافذة طول الوقت ؟ تريدين ان يروك من كل بد ؟ لن ينسوك على اية حال . فماذا افعل لك الآن ؟ من آخذ بدلا عنك ؟ هل هناك شخص آخر مختبئ ؟ ربما وراء الفرن ؟ من هناك ؟ اخرج اقول لك بطيبة خاطر ، اخرج والا سالقى قنبلة يدوية . لا احد هناك . هل ترين ؟ لا احد . لكنهم ارسلونى ويظنون ان احدا بقى هناك . فى حين انك لوحدك . لماذا تنظرين هكذا ؟ ألم تعرفينى ؟ الا تذكرين اولاد غابروس ؟ نحن من عائلة دوبروسكوك . الا تذكرين ؟ كنت صغيرة عندما جئت الينا من المدينة مع امك . فلماذا هربت الآن من المدينة الى هنا ؟ الى العصابات ! كان الافضل لو بقيت هناك ، ام انه لم يبق

هناك طعام ؟ فى بيتنا صورة لك ولمعلمك ، زوجك ، اين هو ؟ لا تخافى ، فانا من اهلك . الا تتذكرين آل غابروس ؟ كان عندى اخ . اخى فيودور ضاع اثره حالما راجع دائرة التجنيد . ذهب ولم يعد . لم يبعثوا فى طلبه . ذهب الى دائرة التجنيد بنفسه . . .

هل يعقل بانى لم اعرفه ؟ ! انهما متشابهان كفلقتى حبة . لكن فيودور طويل القامة . اما وجهه فهو مثل هذا الوجه : منكمش كأنه يبكى . كنت اتصورهما كليهما مضحكين ولا استطيع ان انظر اليهما . كان اخوه قد جاء مع ابيه العجوز الى بوبرويسك ليدرس فى احدى المدارس . لكن ذاك بدا طيبا . وعندما رأيت هذا تذكرتهما رأسا . تذكرتهما منذ ان اقتادونا من القرية عبر الحقل الى هنا ، الى هذا المنزل . وقد نادى احدهم شخصا بلقب دوبروسكوك ، لقب عائلتنا . كان المنادى شرطيا ، وسمعت اللقب فى الحال ، مع اننى لم اكن افهم واسمع شيئا فى ذلك اللغط والهرج والمرج ، بسبب صراخ الاطفال والتفكير فى الجهة التى يقودوننا اليها وماذا سيحدث لنا . . .

— يعنى انك انت ايضا جئت الى بوركى ، اليس كذلك ؟ انا ايضا جئت لاول مرة . الكل يكررون : بوركى ، بوركى ! فتياننا كانوا يتزوجون البنات منها . يـــا للمصيبة : الدنيا مقلوبة ، وانت تنوين ان تضعى طفلا . هل جئت الى هنا مع زوجك ؟ اراد ان يلجأ الى العصابة . لا يريدون السكوت ، لكن النساء والاطفال يدفعون الثمن

بدلا عنهم . ماذا يريد هؤلاء الانصار ؟ اليس الافضل ان يسكتوا كالآخرين ؟ ماذا افعل لك ؟ قولى ؟ ماذا ؟ اين اخبئك فى هذا المنزل ؟ كل شىء سيحترق . وعلي ان احضر لهم شخصا . ارسلونى من اجلك . ثم ان توبيغا وآك . . .

عم يتكلم ؟ يا الهى ! ماذا يريد منا ؟ من الذى يبكى بهذه المرارة ؟ ولماذا انا هنا ؟ اصحيح اننى انا نفسى هنا ابكى وانتحب وان ذلك يجرى فعلا ؟ يا الهى !

— اغضبوا الالمان ونحن ، انا وانت ، مضطـران لتحمل العقاب . قولى لى ماذا استطيع ان افعل ؟ حتى لو بقيت هنا ستحترقين حية . فكرت بانى سأجد وسيلة لمساعدتك . فانت ابنة اخى مع ذلك . ولكن من اين اجد الوسيلة ، وها هو توبيغا قادم . لقد هلكنا . ها هو قادم . وليس وحيدا . من معه يا ترى ؟ اليتيم ! من اين جاء ؟ وهل نحن بحاجة اليه ؟ اعذرينى ، اردت ان اساعدك ، ولكن . . . الا تسمعين ؟ («الا تزال هناك يا زير النساء ؟») ها هو توبيغا ينادينى ! اذهبى ، هيا . الا تسمعين يا امرأة ؟ نرجوك بطيبة خاطر ! . .

. . . ابكى ، انتحب ، اعوى ، اسحب شعر رأسى . فلا اريد ان ارى الدنيا ، لا اريد ان اعيش . لكننى خائفة جدا من الذهاب عبر هذا الحقل وسط المناديل والجزمات وقمصلات الاطفال المنثورة هنا وهناك . انا خائفة من رؤية

ذلك المستودع ، ذلك الركن الذى ذهب الجميع الى ما وراءه وحل فيه صمت رهيب . كل من يصل الى الركن يقف من كل بد : الاطفال يفرون ، لكنهم يتصيدونهم ويقتادونهم عنوة الى هناك ، الى ما وراء ركن المستودع . . . ما اسعدنى لان اطفالى لن يروا شيئا من ذلك . سنترك نحن ايضا منديلا فى هذا الحقل . سنترك المنديل ، وسيأتى غريشا من الغابة . فقد وعد بان يأتى : عندما اضع مولودى ، ليأخذنا من العمة مالانكا . سيأتى ويأخذ المنديل ، وسيعرف اين نحن . سيعرف مكاننا . الا ترون يا اولادى ! لا احد يضربنا ولا احد يدفعنا . ها هو يرفع منديلى ويلحق بى ويسلمنى اياه . لانه عمنا ، لانه جدكم . وخلفه اثنان . يقهقهان بمرح وسرور . لا اريد غير اجتياز الركن . ولن افكر فى شىء . . . وراء المستودع الصامت الرهيب اصوات وقهقهات . ها هم يقفون وسط الحقل وقرب الجدار ببزات سوداء وخضراء وزرقاء يتطلعون الى . لقد صمتوا وراحوا ينتظرون . يجب على ان افعل شيئا . وهم ينتظرون . يجب ان اموت . ولكن اين الآخرون ؟ اين خبأوهم ؟ ها هم يدفعوننى بضربات مؤلمة على الكتف وعلى الظهر . يدفعوننى اليه . هذا هو الذى ينتظر بفارغ الصبر وراء ركن المستودع . الكل يتطلعون اليه والينا ، اليه والى ، وينتظرون . لم يرفع بصره الى ولم يرنى ، لكنه غاضب على اكثر من الجميع . انه حاقد على . هل هو حاقد على لاننى يجب ان اقتل من كل بد ؟ يده التى تحمل المسدس تستقر قرب ساقه . لكنه عار حتى الخصر ، وقد شد القميص كمئزر . صدره المترهل بليل من الشعر الكثيف . لم ار فى حياتى شعرا بهذا القدر على جسم انسان . ويداه

سوداوان . كلا . على يديه قفاز سياقة طويل حتى المرفق . . . وقف على حافة الحفرة . ليتنى لا انظر الى الحفرة ، لا انظر الى هناك . اوراق البطاطس داستها الاقدام واريق عليها شىء يشبه الصمغ ، ورمل التربة متلاصق . . . يلتصق بالقدمين ، بين الاصابع . لم ارتد حذاء ؛ كنت استعد للرحيل الى المانيا ، ومع ذلك لم ارتد حذاء . انا حافية الآن . . . اما هم فيقهقهون ويتصايحون ويتضاحكون : «انظروا الى بطنها . حامل . ذلك من فعل دوبروسكوك . اسرعى يا عمة . فان كاتسو يجيد ذلك بشكل افضل» ! والحفرة صامتة . تفغر فاها وتقترب متسعة . عقب البندقية مغروز فى جنبى ، يدفعنى الى الامام . اما الاسود العارى فيتراجع طول الوقت ولا يرفع يده مع المسدس الازرق . انه يتراجع صوب الحفرة . . . يجب ان لا انظر اليها ، لا انظر اليها . رائحة حادة تفوح منها . يجب ان لا ارتعب . لا يجوز لى ان ارتعب . فهذا يؤذى اطفالى . كلا . الافضل ان اشيح بوجهى ، لا اريد ان ارى شيئا . يا عم ، ماذا تفعل لنا ؟ وجهه الصغير الخائف تكسوه التجاعيد ، فما اشد الشبه بينه وبين وجه طفل يبكى .

اطلق دوبروسكوك النار على المرأة التى التفتت اليه . لم تسمع صوت الاطلاقة . خطت خطوة الى الوراء ، وخطوة ثانية فثالثة وهوت على ظهرها فوق القتلى فى الحفرة . اقترب توبيغا من الحفرة وخيل اليه ان يد المرأة لا تزال تمسك بذيل ثوبها وتسحبه ليغطى ركبتيها .

كانت نائمة . . .

افادات اهالى «القرى الملتهبة» — كراسنيتسا وبوركى وزيتشين وفيليكايا قوليا :

«لم يبحثوا فى الجودار . كانوا يفتشون المنازل الواحد اثر الآخر . وربما كانوا يبحثون على مقربة منا . لكن احدا لم يبحث عنا . كنا نعانى من ارهاق شديد ، من الخوف الممزوج برغبة فى النوم . . . كانت الريح تهب صوبنا ، والدخان المنوم ، وروائح الاجساد المحروقة ، روائح ثقيلة مرهقة . وكنا نريد ان ننام . . .»

«أتريدون ان احدثكم كيف بدأ ذلك ؟ كنت احصد الشعير . وسنابل الجودار منتصبة . وبين تلك السنابل ازهقوا اثنى عشر روحا . وعندما بدأوا يقتلون اولئك الاشخاص رقدت ووجهى الى الارض وغفوت . لم اسمع كيف قتلوهم . لم اسمع صرخة ولا صوتا . وعندما استيقظت فيما بعد رأيت العجب . منزلى سقط ، ومنازل الجيران . كل شىء يطقطق . والخنازير تصأصىء والماشية تتصايح . نهضت وبقيت واقفة . فجاءت جارتى وقالت :

— لماذا انت واقفة هنا ؟ قتلوا الجميع !» .

«وجاء شرطى على ظهر حصان وراح يقتل من بقى على قيد الحياة . كلما رأى شخصا محتضرا اجهز عليه وقتله . اقترب منى . ففتحت عينى قليلا ونظرت اليه خلسة . اما الاطفال فقد ناموا بلا حراك» .

«كنت آنذاك فى مجموعة اخرى . كنت الرابع والعشرين فى تلك المجموعة . لا اذكر الا ما بقى فى ذاكرتى قبل تلك اللحظة التى امرونا فيها بان ننبطح . سقطت ولم اسمع اطلاق النار علينا . ربما كنت نائما . لقد حدث لى شىء ما» .

اصحيح ذلك ؟ اصحيح اننى هنا وليس ذلك حلما ؟ ولكن لماذا يتعين على ان اكون فى مكان غير هذا ؟ امى هنا وابى هنا . انهما معى ، انهما يحبانني ؛ والامور تطيب عندما نكون معا . اصواتهما طيبة فى الصباح قبل ان يحدث ما يحدث خلال النهار وقبل ان يعلو الشجار . ولكن ابى يصادف ان يزعل فى المساء عندما يتعب من المشاحنات مع عمال البناء ، وعندما تتحدث ماما معه وينتهى الهدوء بصوت اقرب الى الهمس ، ولكن بشكل يختلف مع ذلك عما فى الصباح . فلماذا تصورت ان امى ماتت (اتذكر اننى تصورت بانها ماتت) ؟ ها هى معى الآن ، معنا ونحن جميعا معا . نعم ، هناك الحرب ، الجبهة هناك ، وامى ليست هناك ، وابى ايضا . فانا هناك وحيدة . اما هنا فنحن جميعا معا ، ثلاثتنا معا ، وهما فى عمر الشباب ، وهما حقا اب وام . وخصوصا ماما . وغرفة نومنا المشتركة : الضوء يتسرب عبر الستائر البيضاء ، والبطانية الحريرية الحمراء الصارخة تلوح من فتحة كيسها . ويناديني ابى : «يا صغيرة !» ، فازحف من سريرى الى الارضية المطلية الباردة كالزجاج ، وتتلقانى يداه وتسحبانى الى سرير «الكبار» الناعم الفواح برائحة التبغ . واغوص بانفى ووجهى فى الحرير الاحمر الاملس البارد بعض الشىء وادخل كيس البطانية الابيض ، ويد ابى تبحث عنى هنـــاك وتدغدغنى ، وامى تهدئنا قائلة : «كالصغار !» . ورفعنى ابى بيديه عن البطانية ، عن «الارض» عاليا ، وشعرت ببعض الالم من اصابعه وادركت بان ضلوعى لا تزال طفولية هشة . واحسست بالخجل لسبب ما ، ربما من الدغدغة ، لكن

فرحى اشتد لذلك . امى تضحك معنا ، الا انها لمحت خجلى رأسا واختطفتنى من يدى بابا وانزلتنى من «السماء» الى البطانية . واخفقت يداها الجميلتان اللتان تفوح منهما رائحة المساحيق والليل ورائحة اخرى فى المنازلة مع يدى بابا ، وقامت القيامة وتعالت القهقهة وتشابكت الايدى والارجل . وانزلنى ابى على صدره الخشن الشائك فغاص فيه وجهى وفمى وشفتاى ، وبعد ذلك دحرجنى ، كقط صغير ، الى امى : «اذهبى الى كيس اللبن هذا» . وارتعبت ماما وزعلت وقالت له : «جننت» . وخاطبتنى لاشعر بالخجل : «انت كبيرة» ، لكننى مع ذلك التصقت بها حالما تلقفتنى ، التصقت بها بشدة ، فسمعت دقات خافتة ، خافتة فى البداية ، ثم تعالت تدريجيا حتى امتلأ العالم كله بطرقات شديدة ، فانا هناك من جديد ، فى منزلى ، تحت القبة العالية فى كنف قلب ماما .

السكون هنا والقلق ، التحليق والتشبث اللجوج . . . شىء ما صار يبعث السرور فى نفس الطفل ، فهو يبتسم ، عندما يسمع الطرقات المدوية المتناسقة ، وينكمش وتتجعد تقاسيم وجهه عندما ترتفع القبة العالية وتحلق منطلقة به ، بينما تتكاثر الطرقات وتشتد حتى تصم الآذان . من نطفة الام جاءته دفقة دم وجلبت له الاحلام . كل اجيال البشر الذين عاشوا فى زمن ما وقضوا نحبهم من زمان حاولت ان تخترق عليه احلامه وتزاحمت فى دماغه الصغير وفى كل خلية من جسمه الضئيل ، وحاولت من جديد ان تعود الى المكان الذى اختطفها منه الموت وابتعد بها اكثر فاكثر . لم ير الاحلام

بالعين ، كان يتحسسها بشكل حضور طيب او شرير . الطيب يمتزج بالطرقات الابدية المتناسقة ، والشرير يتكاثر عندما تتصاعد الطرقات مدوية تصم الآذان متلاحقة تثير القلق . ومع كل طرقة ينفجر الكون ويتكشف من بدايته الى نهايته ، ويحمل هذا الصوت القبة الى اعلى ويسندها هنا ويحول دون سقوطها ، ويجتذبها طوال الوقت . . .

كان الجنين بشهوره الستة راقدا تحت قلب الام الحى ، راقدا معها على جثث الآخرين . وتشير الساعة السويسرية على ساعد الالمانى ليانغى الى الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين حسب توقيت برلين .

. . . ابعدتنى ماما عن صدرها باستحياء ، بل بغيظ ، وبابا يقهقه وقد رفعنى من جديد بيديه الممدودتين ، وانا ارى المرآة الكبيرة مغطاة بقطعة قماش سوداء طويلـــة مثل فستان ماما الجديد . يا الهى ، كلا ، لا يمكن ان تكون ماما قد ماتت ! رفعنى بابا لكى استطيع ان اراها ، وانا لا انظر الى وجهها ، بل الى المنديل فى الاصابع الصفراء ، منديل رقيق مثل فراشة لماعة . انا لا انظر الى وجهها ، فاذا رأيته ستكون قد ماتت بالفعل . يا الهى ، همست لى النساء اللواتى تحت : «ابكى ، يجب ان تبكى ، ابكى . . .» . وأشحت ببصرى صوب المرآة ، صوب قطعة القماش السوداء ، وتذكرت كيف ذهبنا ثلاثتنا لنتصور ، فى حين اختفى تحت السواد ذاك الشخص الذى جئنا اليه . . . حالما تسقط قطعة القماش السوداء سأرى كل شىء ، كل شىء ! «لا تخافى ، ابكى ، يجب عليك ان تبكى . . .» .

مرت ثلاث دقائق على اطلاقة دوبروسكوك : فقد تطلع توبيغا فى تلك اللحظة الى ساعته وكانت تشير الى الحادية عشرة والدقيقة الرابعة والثلاثين حسب توقيت برلين . وهنا بالذات فتحت المرأة عينيها ، للحظة فقط ، ورأت واخذت معها ، الى نوم الخلاص ، المنظر التالى : اقدام هائلة فى جزمات تطل عليها ، وترتفع الى السماء ابدان مائلة وكأنها فى حالة سقوط ، ابدان ضخمة جدا ، اكبر من ابدان البشر . وتلقف سمعها صوتا بعيدا كالعواء . . .

وسمع السفاحون عويلا هائلا فى القرية المجاورة وراحوا يتحدثون عنه .

— انظروا ، استيقظت جماعة ميلنيتشينكو الآن .

— كلا ، فهناك الفرقة الالمانية الاولى .

— متى تحل نهايتهم ؟ ! — قال بغضب سفاح عار حتى الخصر ويداه سوداوان فى قفاز مما يرتديه السواق . كان يتطلع الى الحفر ويمسح بطنه المكسو بالشعر وأبطيه ، مسحها باحد ردنى قميصه القذر المتمنطق به كالمئزر ، ثم مسحها بالردن الآخر . خلع القفاز من يده والقى به الى الجدار بعيدا عن الحفرة ، وشرع بخلع القفاز الثانى ، وهو قفاز طويل ضيق ، فلم ينخلع من يده العرقة المكسوة بغطاء كثيف من الشعر . انكمش وجهه كما لو كان يتألم وتطلع الى توبيغا الواقف جنبه فى معطفه ، ورأسه مائل على كتفه وهو يلوك عشبة . العينان السوداوان تحدقان فى توبيغا ، وتتحولان الى دائرتين ، لكن ذاك لا يلاحظ حسب الظاهر ان مظهره قد يكون منفرا .

— لماذا لا تخلعه ؟ لماذا ؟ من الذى ارغمك ؟ انا أسألك من ؟ هل ارغمتك ؟

اهتاج السفاح العارى العرق واشتاط غضبا وكأنما يريدون ان يقمطوه فى الجوخ المترب ، جوخ معطف توبيغا .

— من الذى لسع صاحبكم كاتسو ؟ — سأل توبيغا مهتما .

— المعطف ، المعطف ، صاح العريان متألما — لماذا لم تخلع المعطف ؟

— انتم مستعدون لان تخلعوا كل شىء — قال توبيغا باستهانة وصوب ماسورة الرشاش نحو الحفرة : — انظر ، بعضهم يزحفون . فما اسوأ عملكم ايها الكسالى !

واقترب الآخرون واخذوا يتطلعون ، وقال احدهم :

— اطلق صلية ، مثل التوقيع فى يوم القبض .

عدل الرشاش على صدره بتكاسل ، كما يفعل رسام دعوه ليصحح رسما تافها لطخه رسام آخر ، وحرك السبطانة ووقف وجنبه الى الحفرة ، حتى انه رفع رأسه المائل على كتفه وعدله فصار مستقيما تقريبا . وسحب سير الرشاش بشدة كى يصوب الماسورة الى تحت ، فانطلقت الصلية فى الحال . كانت صلية دخانية طويلة . واستدار توبيغا ببطء وكأنه يعاند ويقاوم نابضا مشدودا يجتذبه ، استدار على حافة الحفرة الكبيرة فى حقل البطاطس والمليئة بالبشر . وسار على الحافة ، تدوس قدماه عيدان البطاطس المدماة كالاحشاء ، سار بحذر كيلا يتزلق ولا يخل بمشيته الوئيدة المعتادة . انداح الصدى الذى يسد الفراغات بين الصليات ، انداح عبر الحقل وارتطم باجمة البتولا الخضراء البيضاء وعاد فارتطم بمنازل القرية

فى الجانب المقابل .. (ومن هناك زحف قطيع ابقار مسالمة كما فى المراعى) .

مدد توبيغا الصلية كخياط ماهر يمدد الرتق بيد متينة متأنية ، وهو ينصت بانتباه الى عمل الماكنة . كان يتطلع ويرى كيف يرتعش الاموات مرتعبين وكيف يبعثون الانين ، كما خيل اليه ، وكأن الحياة عادت اليهم بنتيجة عمله . . . فى البداية مست الصلية جدار الحفرة (صحيح انها لم تكن دقيقة فاثارت الرمل الاسود والاصفر) ، وبعد ذلك ضيق توبيغا دائرة الصلية تاركا وسط الحفرة برهة اخرى ، وهناك رقدت على الظهر منكمشة تلك المرأة التى اقتادها دوبروسكوك . (وخيل لتوبيغا ، وربما كان ذلك فعلا ، ان يديها امتدتا اكثر الى ذيل ثوبها عندما سقطت هناك) .

لن يزحفوا عندى ، لن يزحفوا . يا ويلك ايتها الكومسومولية التى لا تعرف الحياء . كيف تنامين هكذا وكأنما انت فى منزلك ؟ سأطيل الصلية ، اطيلها حتى تنتهى آخر رصاصة فى بدنها بالذات . . . يجب ان لا افوتها ، يجب ان تنتهى الصلية عندها بالذات . لا قبلها ولا بعدها ، آخر خمس طلقات ، خمس رصاصات فى الوسط ، على بدنها ، عليها بالذات . . .

صوب الصلية الهادرة نحو المرأة الراقدة فى الوسط ، وتناثر رأس مدمى لشيخ كان راقدا خلف ظهرها ، وها هى الصلية تكاد تطالها . . .

لكن الرشاش صمت خاويا وكأنه لم يطلق شيئا ، سوى رائحة البارود العفنة تزكم الانف .

— اين المخازن يا خنزير ؟ انا أسألك ! — تطاير لعاب توبيغا ووقع رذاذا على وجه دوبروسكوك الذى راح يرمش بجفونه دون ان يفهم شيئا .

— اجل ، المخازن — فهم دوبروسكوك اخيرا واستدار واسرع بخطوات قصيرة متلاحقة واختفى وراء المنعطف .

وابتعد توبيغا عن الحفرة بمنتهى الهدوء وقال ليسمعه الجميع :

— هكذا ! تعلموا يا كسالى .

— يا توبيغا — صاح فجأة شرطى شاب كل صدره مغطى بالسيور (كان توبيغا قد عاد معه من القرية ، ومعه لحق بدوبروسكوك والمرأة) — فلنذهب ، والا فان بارتشيك سيلوى رقبتك الى الجهة الاخرى . مفهوم ؟ وسيلوى رقبتى انا المراسل ايضا .

— اخرس يا احمق .

— وما شأنى انا ؟ طلب منى ان اعثر عليك واجلبك حيا ام ميتا . فهو بحاجة اليك .

والله انا لا ابخل بمخزن كامل من الخراطيـــش لاغرزها فى هذا اللص المصباح . لا احد يتذكر لقبه ، فى حين عنده كنيتان : «اوديسا» و «اليتيم» . صوته كريه كعواء الكلب ، وهو وقح صور الامور بشكل جعل الآخرين يضحكون ، وهم مستعدون للضحك لاتفه الاسباب . ولو كانوا بدل توبيغا لتباهوا اكثر . فقد بعث آمر السرية فى طلبه هو وليس غيره . فالآمر لا يستغنى عنه . لكن توبيغا يختلف عن غيره ، فاذا استدعوه ذهب ، ولكنه لا ينوى الاسراع

راكضا ، بل ولا ينوى الانسياق وراء الفرحة .

يجب ان يذهب طالما استدعاه آمر السرية ، ولكن توبيغا هنا تحت امرة رئيس آخر هو لانغى ، ومع انه من رتبة بسيطة ، لكنه المانى جرمنى خالص وليس مثل بارتشيك . آمرا الفصيلة واقفان يتحدثان قرب جدار المستودع ، فهل يليق به ان يتدخل فى حديثهما . لانغى لا يجيد الروسية اطلاقا ، لكن سيتشكار آمر روسى برتبة المانية ، وقد سمع ما قاله اليتيم ، وعليه بالتالى ان يبلغ الالمانى بما سمع . فهذا واجبه — واى واجب آخر لديه يا ترى ؟ — وهو فى منصبه هذا مع لانغى . انه يساعد لانغى فى قيادة «الفصيلة الروسية» . وهناك سبعة المان فى الفصيلة كيلا يشعر لانغى بالضجر ولا يبقى وحيدا بين الغرباء . فى السابق كان فى الفصيلة الواحدة ثلاثة المان فقط ، اما الآن فان عددهم ازداد وصار سبعة او عشرة فى كل فصيلة غير المانية . حدث ذلـــك بعد ان فرت حضيرة بكاملها الى الغابات ، وهى حضيرة حراسة الجسر الاحدب . فقد استولى عليهم الحنين الى السوفييتات . لن ابخل بمخازن الرصاص لقتل هؤلاء .

سيتشكار الابله هذا يكاد يطير فرحا لانه يتكلم الالمانية بطلاقة كألمانى خالص . فقد درسها عندما كان طالبا . وهو يثرثر ويتشدق على الدوام ساعيا الى عرض وطنيته . اما لانغى فيستمع ولا يصغى ، ينظر ولا يرى . اصبعه ينبش دوما فى اذنيه . ينبش اذنا ثم يتطلع الى اصبعه ، وينبش الاذن الاخرى ويتطلع الى اصبعه ، وهو لا يحب اطلاق الرصاص القريب الهادر ، فقد اتلفت المطرقة البخارية سمعه .

— كان هناك احياء يزحفون فى الخلف — اوضح توبيغا

للالمانى متأخرا . هذا الالمانى صلب كالحديد وهو لغز غير مفهوم . وقد سمحوا له بان يربى شاربين اسودين كثيفين . لا احد من الالمان بشاربين ، ما عدا كبار الضباط بشواربهم المبتورة كما عند هتلر . وذلك لان شفتـــه العليا مشقوقة . حلمه الوحيد وفرحته الوحيدة ان تعـــود الكتيبة الى الثكنات فى بيتشيرمك ، وكل فرد من افرادها يجد بنفسه اسلوب الراحة . بعضهم يجمع طردا لارساله الى المانيا ، وبعضهم يبيع هنا السمن والثياب ليشترى بثمنها خمرا ، اما لانغى فيذهب الى اليهود . وهذا معروف للجميع . «اين الآمر لانغى ؟» — «اين عساه ان يكون ؟ انه يتشمم اليهود» . اليهود يعملون فى السرداب ، وهم اسكافيون ماهرون جلبوهم من بولونيا . ويحتفظون بهم خصيصا من اجل آمر الكتيبة واصدقائه . وهو لا يغادر جحرهم . «ماذا يفعل هناك ؟» ، «ماذا يستفيد الكلب من الارنب ؟ فهو لا يحصل الا على قوائمه فيشمها على قدر الامكان» . ولكن يقال ان لانغى لم يعمل بالمطرقة البخارية ، بل عمل بمطرقة الاسكافيين . فقد كان لديه محل تصليح احذية فى المانيا . ولذا يحن اليه ويذهب لتشمم الجلود وليس اليهود . فهو يأخذ الحذاء من بوروخ ويضع المسامير فى فمه ويبدأ عمله ويصدر خوارا عندما يمتدحه بوروخ قائلا : ما اكثر مهارة آمرنا لانغى . لو اخذته فى فرقتك سيكون من الطليعيين ، وسيكشف عن قابلياته فى وقت ما . انه حسب الظاهر وديع مسالم ، لكنه هو بالذات الذى نصح الرؤساء بتزويد المقاتلين من غير الالمان بخراطيش خاصة لتسهل رؤية الجهة التى يطلقون النار عليها . فالرصاصات المتفجرة مضيئة . ولن يتمكن احد

من تضليل لانغى ، وسيطلق كل شخص النار على الجهة المطلوبة . هذا الاسكافى يعرف ما يعمل ، مع انه يستمع ولا يصغى ، ينظر ولا يرى ، لكنه يرى ويسمع ما هو ضرورى له .

— طيب ، هيا اعملوا — لوّح بيده مشيرا الى الجهة التى ينتظر فيها بارتشيك مجيء توبيغا . ذلك يعنى ان سيتشكار اوضح له مع ذلك . فما اكثر الجهود التى يبذلها هذا «الطالب» ليكون واحدا منهم ، وليعرض وطنيته !

دخلا حقل الجودار وتوجها الى الغابة تاركين بين السنابل اثرا لكل منهما . السنابل ليست كثيفة وليست متساوية ، وهى تحاول بشق الانفس ان تغطى الرمل الاصفر ، ولكن دون جدوى . هذه هى التربة البيلوروسية !

فاين دوبروسكوك آكل البطاطس ؟ من حسن الحظ انه وجد حقيبة المخازن ولم ينسها ، هذا الجلف الذى ظل حيا بعد هجوم انصار كليتشيف . ربما كان يسير بخطواته القصيرة المتلاحقة عندما فر رجال بارتشيك من الانصار فى كليتشيف . فما اكثر الشقاة الستالينيين من أكلة البطاطس . اما الآن فلا يعجبهم كيف يشويهم الالمان من منهم على حق ومن على باطل . الا ان هذا الارنب ابدى مهارته اليوم . فقد اطلق النار على امرأة وكأنه يطلق من مدفع .

— ما اشطرك ، فقد فعلتها وسبقت كاتسو .

— لن يغفر له كاتسو ابدا — تدخل اليتيم فجأة — حالما هدّف الاشعر سبقه دوبروسكوك . . .

انهم يطلقون النار من جديد هناك قرب المستودع .

ماذا ؟ هل يريدون تصحيح عمل توبيغا من جديد ؟ من المتعذر رؤية الجميع من وراء المستودع ، لكن طرف الحفرة مرئى وعليه الالمانى لانغى . انه واقف يمسك برشاشته قرب ركبتيه ويطلق صليات قصيرة . فقد تعود دوما ان يهيئ للآخرين فرصة للعمل ، لكن الطلقة الاخيرة من حصته . فهو يأتى ويبول على عملك ، مثلما يبول الكلب على عمود . الافضل لك لو علمت امرأتك الالمانية ان تبول فى عنق القنينة !

ها هو يشحن الرشاشة من جديد . فماذا رأى يا ترى ؟ ام ان تلك الحبلى التى لم تبق لها فى المخزن خمس خراطيش ولم تبلغها صليته قد عادت اليها الحياة واخذت تعدل ذيل ثوبها من جديد ؟

— يا توبيغا ، كم الوقت فى ساعتك ؟ — صاح اليتيم من بعيد . وهو مسرع فى الامام كعادة الكلاب — قال لى بارتشيك : يجب ان تحضره حيا او ميتا قبل الثانية عشرة والنصف .

— يا ويلك ، سترى من الحى ومن الميت !

كانت الساعة تشير الى الحادية عشرة والدقيقة الخمسين . لم يعودوا يطلقون النار قرب المستودع . وكان لانغى الواقف على حافة الحفرة يعبئ رشاشته براحة يده .

انعطف توبيغا نحو منخفض مكسو بشجيرات خضراء ، شجيرات بتولا كثيفة ، ولا بد من ينبوع فيها . واسرع اليتيم فى المقدمة . وراح ينبش الحفرة المعتمة بيده المشمرة الردن ، وقال متأوها :

— ماء لعين ، بارد جدا .

— هل تتصيد السرطان ؟ اسحب يدك ولا تلوث الماء .

شرب توبيغا براحة يده ورش الماء على وجهه ومسح الرشاش الدافئ بيده البليلة فلمعت اصباغه القاتمة في الحال . وانحنى ليغسل جزمته ، وهنا تلقى ضربة مؤلمة على قفاه ، وتعالى صوت يحاكي اطلاق النار .

جفل اليتيم وكان لا يزال يشير باصبعه كما لو كان مسدسا . ومنخرا انفه القصير كفوهتي ماسورة مزدوجة ، وتكورت عيناه من شدة الفرح والشماتة . لكنه سرعان ما ارتعب ، عندما عدل توبيغا قامته وانتصب رأسه المائل على كتفه عادة ، انتصب معتدلا عاليا كرأس افعى . وحرك بعصبية ترباس الرشاش .

فصأصأ اليتيم :

— الا تفهم الفكاهة ؟ !

— خبيث انت يا يتيم . . . — تلكأ توبيغا في الكلام ، وادرك اليتيم ان لحظة مرعبة مرت بسلام .

مسح توبيغا وجنتيه النحيلتين السوداوين من كثرة الشعر براحتي يديه البليلتين ومضى الى الغابة . واقتفى اليتيم اثره شاتما متذمرا . وراح يتشكى ويهدد :

— يظن اني سأغفر له . كلا . سارسلك الى مستشفى المجاذيب في موغيليف ، وسأعالجك اذا كنت مريضا . . .

القرية الثانية

من افادة ميفودي كاربوفيتش باغري ، وهو من مواليد ١٩١٣ ومن اهالي قرية ميخايلوفكا في ناحية بولتافا :

«انتسبت الى فصيلة الاس اس التنكيلية بعد ان كنت في معسكر اسرى الحرب ، وذلك لكي تتحسن ظروفي المعيشية والمادية . . . قرية خوتينوفو هذه كانت ذات صلة بالانصار . دخلنا منزلا كان فيه خمسة اطفال او اكثر . وخرجنا الى الباحة فقلت باني لن اطلق النار عليهم ، وهو ايضا اشار الى قلبه وقال : انا ايضا لا استطيع ، وسألته : «لماذا ترفض ؟ فمن يطلق النار عليهم ؟» . فأجاب ، سندعو شخصا من منزل آخر ليطلق النار بدلا عنا . . .»

من افادة رولف بورهارد مدير القومندانية الالمانية في مدينة بوبرويسك :

«حدث ذلك ، على ما اتذكر ، في بداية تموز (يوليو) ١٩٤٢ . سألني ميولر وهو موظف في دوائر الامن اعرفه من العمل ، سألني عن احوالي . فأجبته : لا بأس ، لكن الاغذية قليلة لا تكفي لارسالها في طرود الى البيت . واجابني ميولر ان بامكاني ان اذهب معه يوم الاحد ، اذا سنحت الفرصة الى الناحية ، وهناك يمكن الحصول على اغذية .

وفي صباح الاحد ذهبت الى دائرة الامن وتوجهت مع ميولر بسيارة صغيرة الى قرية كوزوليتشي . وتبعتنا ثلاثة شاحنات فيها افراد الاس اس .

طوق افراد الاس اس قرية كوزوليتشي في ناحية كيروفسكي ، واقتادوا الاهالي من منازلهم . اخرجت مسدسي من جرابه وشاركت ايضا . صف كل الاهالي ما عدا العمدة وعوائل الشرطة واقتيدوا الى طرف القرية ، وهناك حشروا في الطاحونة .

وبعد ذلك احرقت الطاحونة . واطلقنا النار على الذين حاولوا الفرار . ورأيت كيف كان رجال الأس اس يدفعون او يلقون بالاطفال والشيوخ والعجائز الى الطاحونة الملتهبة .

وبعد ذلك عدت مع ميولر الى بوبرويسك . وتم الاستيلاء على كمية كبيرة من الاغذية ، كان نصيبي منها حوالى كيلوغرامين من السمن وقطعة من لحم الخنزير . . . »

ما اجمل هذه المنازل التى تحترق . منظرها يثير الشفقة . هؤلاء الجشعون ، هؤلاء الكولخوزيون المتخمون بالبطاطس كانوا يعيشون فى ظروف جيدة . الرمل اصفر ، لكنهم لم يعانوا من المجاعة حتى فى عام ١٩٣٣ عندما كان غيرهم يموتون جوعا . ولذا فهم يفكرون فى الاتصال بالانصار ويحلمون بالسوفييتات . لم يشبعوا من ستالين ومن الكولخوزات . ولكن كان من الممكن عدم حرق المنازل طالما طردنا البلاشفة الى الابد . الا ان الالمان انفسهم ربما لا يعتقدون بانهم طردوهم الى الابد . فهم من جهة يبخلون بقطعة الحلوى وكأنها قدس الاقداس ، ومن جهة اخرى ينثرون فى الريح والدخان كل هذه الثروات . اما البنديريون فلا يهمهم شيء ، انهم هنا بصورة مؤقتة ، كل ما يريدونه هو ان ينهبوا ما يمكن نهبه ، وها هم يتراكضون من منزل الى منزل . يضربون ويحرقون ثم يعودون الى اوكرانيا الغربية . وهم ليسوا افضل من غيرهم .

ولكن اين هذان الابلهان ؟ الى اين ذهبا ؟ كلا الاخوين ضرّاط ، دوبروسكوك واليتيم . انهما يتراكضان فى اذيال البنديريين الذين صاروا يطلقون النار وسط القرية . ولكن هل

ينتفعان منهم كثيرا ؟ فلو خلعت بزة احد البنديريين لوجدت تحتها الكثير من السراويل ومن البلوزات النسائية ، حتى تراه يشبه رأس الملفوف . وعلى هذه الصورة يصل الى موغيليف . ها انا ارى صاحبى . اوقفهما جندى المانى وهما يوضحان له من هما والى اين يقصدان ولاى غرض . كلا . انه ليس المانيا . فهو يتكلم بلهجة روسية محلية ، لكن الالمانى واقف خلفه وبيديه صرة وسخة .

— سيشكركما بالطبع . اعملا معروفا .

— ماذا يريدان منهما . اما اليتيم فهو يبحث عن اتفه الاسباب ليصيح باعلى صوته :

— يا توبيغا ، هل تريد ؟ هذا الفرنسى يدفع الثمن سمنا ولحما مشويا ، لقاء منزل واحد فقط .

هكذا اذن . جاء ارعن آخر ، فرنسى هذه المرة . يعطونك سمنا مسروقا وعليك ان تعمل بدلا عنهم . يبيعون ويدفعون الثمن بانفسهم . لو كان الرئيس دوليفان هنا لزق السمن الساخن فى جلودكم .

— مثل يهود بوبرويسك ! يدعو جاره ليذبح الدجاجة .

— انت لا تعرف شيئا يا توبيغا — اليتيم مستعد لمساعدة الآخرين عندما لا يطلبون المساعدة منه — ذبح الدجاج يحتاج الى سكين حلال . اما آلتك فهى تصلح لكل الاحوال . توبيغا ماهر جدا ، حتى ان بارتشيك لا يستطيع ان يبول بدونه . توبيغا اخصائى يعالج بمخزن واحد ما لا تستطيعه حضيرتك كلها . اعملها ، يا احمق ، فالسمن جيد جدا . اعملها انت طالما كل امثالك فى اوديسا متعلمون .

ما اغرب هؤلاء الالمان ! فمن جهة يطاردون الشخص حتى

في آخر الدنيا كيلا يفر منهم ، ومن جهة اخرى يروح ويجيء امامهم ولا يرونه . فلو كان هذا الفرنسي بانفه اليهودي موجودا في عام ١٩٤١ لاوقفه اي شرطي واجبره على خلع سرواله . انه يهودي قح . ولكن ما شأني انا ؟ هل يعنيني ذلك اكثر مما يعني الالمان ؟

— طيب ، ضع السمن هنا طالما انتم لستم من اهلها . دوبروسكوك ؟ اين دوبروسكوك ؟

اختفى من جديد واخذ المخازن معه . ستلقى جزاءك يا ملعون . سأقشط جلدك بلا سكين . . .

المنزل كبير ، وهو مبني بمهارة لا جدال فيها . حتى البوابة عليها سقف خاص يطل عليها ليطيل في عمرها . والشبابيك كلها مخرمة . لكن صاحب البيت اخطأ عندما حفر نجمة خماسية فوق النوافذ . ظن ان النجمة ابدية . لكن هناك قوة اقوى منها : ستحترق مع بيتك يا عم . هل هو موجود الآن هنا يا ترى ام اختبأ مع العصابة ؟ لن يفهم المرء شيئا عند هؤلاء الكولخوزيين . فهو هنا وهناك في وقت معا . لكن احدا لن يخدع دوليفان . فهو لن يميز بين الناس ولا ينوي ان يشغل نفسه بذلك .

يتطلعون من النافذة وقد التصقت وجوههم بزجاجها . كيف لا وشارعهم لم ير مثل هذا العدد من الضيوف من قبل ؟ النساء يتطلعن طبعا . فالرجل اذا كان في البيت لا يحدق في النافذة . سيلقي نظرة جانبية منحرفة وهو مختبئ . قضية النساء مفهومة ، فكل شيء معروف مسبقا : ماذا وكيف نفعل بهن . وهذا امر صائب طبعا ، حيث يعزلن على حدة عادة ثم تجرى «معاملتهن» بعد الرجال . اما اذا

كانوا معا فيمكنك ان تتوقع منهم كل شيء . فهم كالبترين في الهشيم . لماذا تتطلعن ؟ ربما تعرفنني ، نعم ، قريبكن قادم ، الا ترينني ؟ اني ابتسم فلا تخشين شيئا . نعم ، ربما تعرفنني . . . ولا داعي للتظاهر بشيء ، فانا لست مثل كاتسو ، فهو عندما يمشي يشبه الثور المندفع صوب البوابة . ويتفرق الجميع ، وتصم الآذان من الصياح والعويل . ولكن ما الداعي لذلك اذا قلنا الحقيقة ؟ فالتظاهر شيء يستطيعه كل احمق . الافضل ان تبين ذلك بالعمل . واذا كان الموتى في حفرة او كومة يمكنك ان تقلبهم كما يحلو لك . اما الاحياء فيجب ان تفكر في البداية من اية جهة تأتي اليهم واين تقف ازاءهم . لا تبخل بالكلمات والنكات ، فلن يحدث لك شيء . هكذا اذن : افتح باب السياج واغلقه كيلا تفر الدجاجات . انت سيد قادم الى اصحاب البيت . انا قادم ، قادم ، لا تنظرن الي باستغراب . لم يتسن الوقت للعم كي يكمل بناء المدخل . عندما ينزل الثلج سيدخل من الشقوق . غرز الاوتاد فقط وربطها الى العوارض من فوق ولم يكفه الوقت لبناء الدهليز . الطسوت والدلاء في الاركان والرحى لطحن القمح ، والاسمال وسقط المتاع في كل مكان . . . ماذا هناك ؟ من يلعب هناك لعبة الغماية ؟ آه يا اختي ، اين اخوك ؟ اركضي الى المنزل ، الى ماما ، ليس لديك ما تفعلينه هنا . الا يوجد شخص آخر هنا ؟ تحت هذه الاسمال ؟ وفي الجماليون ؟ كلا ، اصعد بنفسك ايها الفرنسي الاجرب ، فانا لست من رجال الاطفاء : يا ليته يصعد ويمد انفه الى هناك فيتلقى ضربة على الرأس ، وخلاص ! من يتحرك ويصر في هذه السلة ؟ قطط ؟

هذا انت ؟ تكورت مثل القنفذ . كيف استطعت ان تختبئ في هذه السلة الصغيرة ؟ اذهب الى المنزل ، الحق باختك .

— مرحبا يا آنسات ! لماذا اجتمعتن كما في العيد ؟ ام انكن تنتظرن الخطّابة ؟

عليك الا تلوذ بالصمت اذا دخلت على الناس منزلهم ، انطق بما يدور على طرف لسانك ، ولكن لا تلزم الصمت ابدا .

— لماذا طردتن الصبية والصبي من المنزل ؟ مشاكسان . اليس كذلك ؟

لعنة الله عليك يا فرنسي . كيف اشتريتني ؟ فهنا ثلاث عوائل او اربع . تجمع كل الجيران في منزل واحد كأنما عمدا . ربما لان رجلا هنا . ففي كنف الرجل تأتي الشجاعة . ها هو جالس على المصطبة قرب النافذة . انه لا ينظر من خلال النافذة ، فهذا لا يثير اهتمامه . لعنة الله عليك يا فرنسي . كيف بعتني هذا المنزل ؟ تتطلع اليّ الاعين من كل الاسرة ومن فوق الصندوق ومن دكة الفرن ، من كل مكان . منثورة كحبات الفول . حول كل امرأة ربما خمسة اطفال ، وعدد النساء : واحد ، اثنان ، ثلاثة . . . لا اقل من سبع .

حالفه الحظ . انتن كثيرات وهو لوحده . لماذا لوحده ؟ حالفه الحظ مثل الديك . . . .

المهم ان تتكلم ولا تصمت ، ولا اهمية لما تقول . . . فيجب ان يسمعوا صوتا عاديا غير حاقد .

ومن حسن الحظ ان في المنزل غرفة واحدة كبيرة وليس عدة غرف . عفارم عليك يا عم ، فانت لم تنصب هنا

حاجزا للمطبخ . فهنا يمكنني ان اقف وارى الجميع دفعة واحدة . لعنة الله عليك يا فرنسي ، لقد بعتني واشتريتني . لماذا تتطلعون هكذا ؟ الم تروا انسانا من قبل ؟ لم اسرق منكم شيئا ، فلماذا تنظرون الي كلص شرير ؟ عيون الاطفال هنا اكثر من الرصاص الذي عندي . غيري لا تكفيه ثلاثة مخازن .

— أتريدون حلوى المارميلاد ؟ هل تعرفون ما هي المارميلاد ؟

اعاملهم مثلما يعاملنا الالمان ، فهم يتصورون باننا لم نر في حياتنا مثل هذه الحلوى العفنة . الحقيقة اننا تعلمنا ان نعتبر المارميلاد ايضا طعاما من الاطعمة ، وصرنا نأكلها مع الخبز وكأنها زبدة .

— الفرن جيد عندكم . خبريني ، يا عجوز ، هل يدفئ العظام جيدا ؟ رائحة الخبز تفوح . انه جاهز . اخرجيه والا سيحترق . من منكن الزوجة الكبرى ؟

لماذا تتطلع هكذا يا عم ؟ ماذا كنت ستفعل لهن لو استطعت ؟ ولكن ما في اليد حيلة . ولذا ابق جالسا ودخن ايها الشقي . فلماذا تنظر هكذا ؟ فات الأوان . رائحة الخبز تفوح ، وكان بوسعكم ان تعيشوا مثلما يعيش الناس ، ويأكلون الخبز مخلوطا بالتبن والبطاطس ومختلف الاضافات . انتم لم تلتهموا التراب الناشف ولا اوراق القاقلي . فقد كانت عندكم دوما ثمار وفطر وان كان متعفنا . كان لديكم ما تأكلون ، وهذا هو سبب الحماقة التي تعشعش في ادمغتكم ، ولا احد يستطيع ان يخلصكم منها .

منذ عدة سنوات وانا اعيش في بحبوحة ، ومع ذلك



يدوخ رأسى حالما ادخل منزلا يخبزون فيه الرغيف . اللعاب يسيل واكاد اشرق به . منذ تلك الفترة ، من ذاك الزمان . كانوا هنا يخبزون الرغيف حتى فى عام ١٩٣٣ ، وربما كانت نسبة البطاطس وجوز البلوط وقشرة الشجر فيه اكبر . اما هناك فاذا لم يكن شىء من هذا موجودا فلا حيلة فى الامر . خمس سنوات وفيرة ، فاذا حل القحط بعدها فما العمل ؟ الذين وصلوا الى هنا عادت اليهم الحياة . كنت اظن انى سأجن لكثرة الذين ماتوا منا فى القرى وفى محطات القطارات . كانوا هزيلين كعيدان عباد الشمس من الموسم الفائت . اما الدهاة هنا فقد اختاروا بقعة لا يحسدون عليها حسب الظاهر . مستنقعات وغابات لا غير ، وها هم يعيشون بدون قمح ولكن بدون مجاعة ايضا . لماذا تحملقين فىّ يا شيطانة ؟ انت نائمة على دكة الفرن فابقى هناك وسخنى عظامك . فكم جمعت هناك وحجبت ببدنك ؟ طائفة كاملة من افراخ الدجاج ! انها تشبهها تماما ، تشبه تلك المرأة المعروقة الغاضبة . كانت القرية تسمى رودنيا . وحواليها غابات الحور الرومى الحبة الخضراء . اما السواقى والدروب فقد علاها الصدأ وصارت صفراء مثل الزعفران . كان اهالى قرية رودنيا يقولون انه فى زمن ما كانوا يصهرون حديد المستنقعات هنا . تفضل وخذ ما تريد من الحديد ، احن ظهرك وخذه مثلما تقتطف قطرا او ثمرة . ولكنى عندما سقطت من قطار الاحمال وجبت هذه الاماكن مترنحا من الريح والمطر ظننت ان الطريق ليس اصفر بالفعل ، بل انى اراه بهذا اللون لانى جائع جدا . وزحفت حتى وصلت اول منزل وهويت على العتبة عندما شممت فجأة رائحة الخبز . وبكيت ،



يكيت ، يا بنات الكلب . وكل هذا قليل بالنسبة لكن ، وتنتظرن الانصار . سيطول الانتظار .

— ألن يحترق خبزك يا ربة البيت ؟

من ربة البيت يا ترى ؟ ها هى فى بلوزة بيضاء ، وعلى يدها طفل رضيع ، وقد وقفت قرب رجلها ، فهذا يبعث فيها الجرأة . همت بالتحرك الى الامام ، لكنها القت نظرة على الرجل .

— لا داعى لذلك يا عمة ، فانا لا احب الخبز الساخن . فقد اوضحت لى احدى العجائز مدى العمر : البطن ينتفخ وستظل تنشج حتى تهلك . لكنى لا ازال على قيد الحياة . والفضل لتلك العجوز . عفارم عليكم ، فانتم لم تشعروا بالجوع هنا ، ورائحة الخبز تفوح دوما .

— تصادف حالات مختلفة .

— عجيب . انت تجيد الكلام ايضا يا عم ؟ يمتص عقب السجارة بنهم وكأن احدا يريد ان ينتزعه من شفتيه الآن . شارباه يكادان يحترقان . لقد اثار دخانا قدر ما يثيره اجتماع كولخوزى كامل . كم عمرك يا عم ؟ حوالى الثلاثين ، مع انك متقنع باللحية . انت من اقسى الاشقياء مع انك تتظاهر بالبراءة وبساطة الكولخوزى العادى . فهو لا يعرف شيئا ولا يعرف احدا . انه يريد ان يدخن قليلا وينفث الدخان قليلا . ثم ماذا ؟ يداه ترتعشان وتتشبثان بالركبتين . ولو كان يستطيع لأنشب اظفاره فى عنقى ، وامسك بخناقى . اجلس ، يا عم ، حتى ارشك ساخنا من هذه . انت داهية ، لكن توبيغا ايضا ليس احمق . هل سمعت به ؟ سأقف هناك . سأتمشى قليلا ثم اقف



هناك ، لابلغ السرير وما تحت السرير وما على دكة الفرن . . .
حقير انت ايها الفرنسي ، فكم جمعت منهم هنا ؟ العيون تتطلع من خلف اكتاف النساء والارجل الصغيرة سوداء كقوائم القنفذ . . .

ماذا هناك ؟ ماذا بك ؟ . تململ العم من جديد . السجارة ، النار بين الاسنان ، لكنه اخرج علبة دهان الاحذية الناشفة واخذ يفرك التبغ باصابعه . ام انك تريد ان تقدم سجارة الى الضيف ؟ كلا ، ليس عندى وقت للتدخين معك . ربما انت غير مستعجل ، اما نحن فلدينا جدول للوقت والرؤساء ينتظرون .

— عندكم على الجدار كولخوز كامل .

صورة كبيرة للاهل مزججة بل ومؤطرة . والجميع يحملقون بجد وكأنهم ينظرون الى الرشاش . الرجال والنساء فى ثياب جديدة ، وأحدهم ، وهو شاب ، يرتدى قبعة .

— اقول اقاربكم كأقارب البرجوازيين !

قل ما شئت ، فهم صامتون يتطلعون بنظرات جامدة كما فى الصورة الفوتوغرافية . لم اصرخ ولم اصوب الرشاش ، لكن هؤلاء النسوة يشعرن بكل شىء مسبقا . وفجأة عادت الحياة الى ربة البيت ، حتى توردت وجنتاها قليلا ، لكن عينيها جامدتان .

— نعم ، ساقدم لك الخبز الآن .

احست بان الضيف لم يعد لديه ما يفعله ، فقالت انها ستسرع الآن وتقدم الخبز ، اما انت فخذه واذهب عن اطفالها . وتطلعت اليها سائر النسوة ، وكن ينتظرن شيئا ما منها . وربما كانت امرأة شابة نابهة . انظر الى قميص

الرجل ، انه نظيف ناصع . فهى تعتنى به . يا له من ابله محظوظ . الآخرون يريقون دماءهم ، بينما هو يتدفأ فى كنف المرأة الشابة ، ارتدى قميصا ابيض ، فلا يحق لك ان تمسه . به سأبدأ . وسيستغرب ويدهش . عيونهم دوما مفعمة بالدهشة والاستغراب . . . انظر ما شاء لك فلن تتمكن من تصيد اللحظة الحاسمة . يا للشيطان . اننى لا افعل المطلوب . لقد تماديت فى اللعبة . حتى البطن يقرقر . لعنة الله عليك ايها الفرنسى .

— ماؤكم جيد ؟

— نعم ، آبارنا عميقة .

— ماء جيد بارد . تقول : الآبار عميقة ؟

قلت يا عم ، لكنك لا تدرى ماذا قلت . دولفان يحب الآبار العميقة . اول ما يقوم به فى كل قرية هو ان يلقى نظرة على بئرها . فلا داعى لتضييع الوقت فى حفر الحفر . . .

— هل بقى عدد كبير من الرجال فى بوزكى ؟

— نعم ، بقى عدد منهم . وعندنا شرطة خاصة بنا ، لكن افرادها قليلون .

— كم ؟

— عشرة او اكثر .

— لسبع قرى ؟ قليل بالفعل . وانت لم تنتم فلماذا ؟ تعودتم ان يعمل الآخرون بدلا عنكم .

انتفضت ربة البيت كالدجاجة . ستقول انه مريض ضعيف وهلمجرا . . .

— اضلاعه ضعيفة .

بالفعل ، كما توقعت . هذا هو المضحك المبكي . سيدهش الفرنسي وصاحبه اذا خرجت الآن من المنزل الهادئ كما دخلته . خذا سمنكما ايها الطفيليان .

— لماذا انت صامتة يا عجوز ؟ احكي لهم حكاية الدجاجة والبيضة الذهبية . احفادك يزاحمونك وستسقطين قريبا من دكة الفرن . كم عددهم ؟

انها راقدة على حافة الدكة فهي تحجبهم لتحميهم ، وتظن انها انقذتهم . اعرف كل شيء مسبقا ، ومع ذلك اماطل كل مرة واتردد ، اتطلع اليهم وامكنهم من التطلع الي . انهم يسمعون صوتي ، لكنهم يحاولون الا يفوتوا اللحظة الاهم . انهم صامتون ، لكن همسا يأتي من جميع الانحاء : اذهب من هنا ، اذهب ، اذهب .

على الصندوق عجوز ضئيلة نظيفة بيضاء كأنها جاهزة لوضعها في التابوت . وجهها الصغير مغضن كوجه دوبروسكوك ، وهي تتطلع الى النوافذ طول الوقت ، انها تستمع الى ما يجري هناك وتحمل الآخرين على الاستماع .

— آه يا اطفال ، يطلقون النار . ماذا يفعلون هناك ؟ يطلقون النار على الدجاج ؟

انها تتكلم وتتساءل وتتطلع ، وتتملكها الرغبة في التصديق بانهم يطلقون النار على الدجاج . وهي تخاف عليّ انا ايضا ، وكأنني لست شرطيا ومعي رشاش ، بل انا واحد منهم واخاف مثلهم . اعرف كل شيء مسبقا ، مسبقا . وهم ايضا يحاولون الا يفوتوا اللحظة التي اكف فيها عن التحرك امامهم وعن الكلام . . . ومع ذلك تفاجئهم تلك اللحظة بصورة مباغتة دوما . بل انا ايضا ادهش كل مرة عندما يتبدل كل شيء

حالما اضغط على الزناد باصبعي ، بهذا الاصبع . . . الرشاش يهدر بين يدي ثم يصمت ، ويتبدل كل شيء . يرقدون بركب ومرافق ملمومة او ينبطحون بصورة تفوق الوصف ، وهم مندهشون مثلي بان كل شيء قد حدث مع ذلك . . . عجيب ، اشعلوا القنديل ، يعني انهم كانوا يعرفون باني قادم . ابو لحية ، كالكولخوزي ، يمسك بين اصابعه بشيء لا يعلمه الا الله . رش الملح ، رشه ! وسأضيف انا .

— هكذا اذن : الله في السموات العالية ، وستالين بعيد ، اما الالمان فهم هنا . الا ترون كيف انقلبت الامور ؟

ينبغي ان ابتعد الى ما وراء المائدة لكي ارى الجميع ، واصعد لارى اولئك الذين اختبأوا خلف ظهر العجوز على دكة الفرن . ولكن يجب ان ابدأ بالرجل . ثم اعود وامشط ما تحت السرير . طيب ، سآخذ خطا مستقيما : من الرجل حتى السرير ثم الصندوق فالدكة ، واعود بنفس الخط . هؤلاء انتم يا صغار . وجدتكم هنا اذن . هل انتم كثيرون تحت السرير ؟

الافضل دوما ان تطلق من العتبة ، لكن الفرن حاجز لعين . واذا كان الباب خلفك تشعر دوما باطمئنان اكثر . ولكنك لن تبلغ من هم على دكة الفرن . وعند ذلك يجب ان تقطع الصلية في منتصفها وتبدأ من جديد . اما اولئك فهم ينصتون في الشارع وينتظرون ، فليسمعوا صلية واحدة ، واحدة فقط ، ينتهي بها كل شيء . ولكن ليس بنفس السهولة التي نبقر فيها بطون الضفادع .

— لماذا رفعتم الايقونات السوفييتية ؟ لماذا خبأتم الأب والمعلم ؟

— من ؟

عجيب ، لقد نسى ، لم يعد يتذكر ، لم يعد يفهم !

— علقت الصور القيصرية وظننت ان ذلك سيعجب الالمان ؟ افلا تعرفون ان ذلك هو يانكيل ؟

— من ؟

— لماذا تسأل ؟ مسيحكم ! يانكيل ، والفارق انه معمد . الا ان الالمان لا فرق لديهم بين المعمد وغير المعمد .

الحقيقة انى لا افهم تماما موقف الالمان من الله والقساوسة والكنائس . انهم حسب الظاهر يسمحون بها ، فقد فتحوا كنائس هنا وهناك . ولكنهم اثناء المحاضرات السياسية ينعتون الله واليهود بنفس النعوت . كل المفاسد ينسبونها الى اليهود . اما الاله الالمانى فهو يسمى بشكل آخر : وغالبا ما يذكره هتلر فى خطبه : القدر ، العناية الالهية . ذلك ما لا يعلمه حتى الشيطان . اما آمر السرية فهو مستعد لرسم شارة الصليب فرحا اذا رأى كنيسة ظلت سالمة فى مكان ما . فالكنائس من خشب قديم جاف مشبع بالاصباغ ، ولذا تحترق كالهشيم . ثم ان الناس يتوجهون اليها باطمئنان وبسهولة ورغبة ، ليس كما يقادون الى العنابر او مبانى المدارس . وهم يأملون بان الالمان يؤمنون باله ايضا . انهم يؤمنون باله ايضا . انهم يؤمنون ، ولكن باله غير الهكم . . .

اعرف كل شىء مسبقا . ولكنى لا استطيع ان اقدر كيف ستكون النتيجة لاعرفها بالضبط . فكل مرة يظهر ما يعيق او يأتى من يعيق . يجب اجراء الحسابات والتقديرات دون استعجال . فلم يصادف مرة ان سارت الامور بلا

مفاجآت . ينتبهون فجأة فيركض احدهم الى النافذة ويصرخ ، ولا يبقى مجال للنظام ، فنضطر الى اطلاق النار بصورة عشوائية لمجرد السيطرة على الموقف وحشر الجميع فى كومة واحدة . ثم ان صاحبك الابله يمكن ان يقوم بفعلة حمقاء فيثير الناس ويرعبهم . وعند ذاك تأسف لان امك قد ولدتك . وتلوث بالدماء والمخاط . ويستولى عليك غضب شديد . ولكن ما الداعى للغضب فى الحقيقة ؟ فنحن المذنبون ، لاننا لم نتعلم العمل جيدا .

يجب ان نجد وسيلة مناسبة لمعاملة الناس ، وعند ذاك ستجرى الامور حسب الاصول .

— اين رجالكن ؟ لماذا لم تبقينهم معكن ؟

— وهل يمكن ان نبقيكم طويلا ؟ انت مثلا . . .

عجيب ، هنا امرأة موردة الوجنتين وسمينة . لم الاحظها رأسا . انها تبتسم ، تحاول ان تبتسم . ولكن عبثا ، فانا لست من اولئك الذين يمكن اغواؤهم . هذا قد يعبر على كاتسو او على معاونى . فهذا من نصيبهم ، اما نصيبى فآخذه بنفسى . انه هناك ، فى الفرن . والعجوز التى تنبأت لى بالهلاك هلكت من زمان ، اما انا فلا ازال . . .

— انا ، ما شأنى انا ؟ انا لا اختبىء ، ولكن رجالكن الانصار . . . وانت يا ابا لحية لماذا لم تلتحق بالعصابة ؟ ام انك تلعب على الحبلين ؟

— انا مرتاح فى البيت .

عجيب . بدأ يغضب . شىء مثير .

— فلماذا لم تلتحق بالشرطة ؟ لماذا ؟

ليس لديه ما يرد به على هذا السؤال . لكن المرأة

الشابة الموردة الوجنتين لا تريد ان تصمت ، ولم يتلاش صوتها بعد .

— اى شرطة هنا فى بوركى ؟ لا تجدهم الا قرب المنازل التى تصنع العرق . وحالما يخيم الظلام يختبئون . يأتى الواحد منهم اليك ويجلس عابسا قرب النافذة ولا يسمح بخروج احد حتى الى الخلاء . فهو يخشى من انه يمكن ان يدل عليه هؤلاء . . . الانصار . فمن بحاجة الى مثل هذا الشرطى ؟

— صحيح . كيف يجوز ان يجلس عابسا طول الليل وفى المنزل مثل هذه المرأة الشابة ؟ لو كان الامر بيدى لسلمته الى العصابات كما يسلم الكلب العاجز الى الذئاب .

لماذا اطيل اليوم اكثر من اى وقت آخر ؟ ألكى اغيظ ابا الضفادع ذاك ؟ فليتعذب فى التفكير : فقد اغير رأيى وارفض سمنه . اطلت الكلام مع الشقاة . احاول ان اقنعهم بالالتحاق بالشرطة . لاحظ كيف ينظرون : لا نعرف شيئا ولا ندرى بشىء . لكننا نحن ندرى . . . ما وراء دكة الفرن مرئى جيدا اذا صعدت على الصندوق . لكن عددهن هناك ، على هذا الصندوق حوالى عشر ، سيتبلل فانزلق . الاطفال يتطلعون بفضول الى هذا الرجل الذى يتمشى هنا ويسخر . . . ماذا لو ذهبت حقا ؟ فهل انا مدين لاحد ؟ السمن ؟ استطيع الحصول عليه حتى بدون هذا الفرنسى اذا اردت . كل ما اردته هو ان ابين لكم قيمتكم وقيمتى . كل ما عندكم هو التسمية : فرنسى او نمساوى ، وعندما تصل الامور الى حدود الجد فكلكم رعناء لا افضل من معاونى دوبروسكوك .

— وربما تريد خبزا بالفعل ؟ فهو طازج .

كانت ربة البيت الناصعة البياض كأنما تتسمع خلسة . فرن صوتها وهى على استعداد لتسلم رضيعها الى جارتها لتسرع لاخراج الرغيف من الفرن . لكنها لم تسلمه ، بل ضغطته بشدة كيلا ينظر الى اية جهة ، وارسلت امرأة اخرى الى الفرن :

— يا فينيا ، انت اقرب الى الفرن فاخرجى الخبز وقدميه للرجل حتى اذا اراده كله .

يا لك من نحيفة ناصعة البياض . انها تشعر بكل شىء . انها تخشى ان تفتح عشها ، تخشى على وليدها ، دودتها . اما فينيا فهى ترسلها للتأكد ، للاستطلاع : هل سأسمح بالوصول الى العتبة ام لا ؟ » .

— سآخذ بنفسى .

عندما كنت جالسا على العتبة لا اقوى على الزحف آنذاك ، دوختنى رائحة الخبز . كنت جالسا ابكى ، وكانت العجوز مشغولة بالفرن القائم ترش الماء من القصعة على الارغفة الساخنة المستديرة الكبيرة ، والقريبة . وكانت تحاول اقناعى : «لن آكلها لوحدى ، ساعطيك انت ايضا ، ولكن انتظر ، والا سينتفخ بطنك وتهلك مثلما هلك احدهم امس . . . » .

— آه ، يا اطفال ، ماذا يفعلون ؟ — التصقت العجوز الضئيلة بالنافذة حتى سقطت المزهرية على الارضية وتهشمت . يطلقون النار على الناس ، على الناس .

حدث ما توقعته . فلا بد من ان يقسد احد الحمقى اموري . ها هو يفتح مسرحا امام النافذة . ابذل جهدى واعمل للحمقى وهذه هى النتيجة . اثنان يرتديان خوذتين ، ربما هما

من الالمان ، وجدا امرأة واطفالا فى البستان ، اطفالا كثيرين ، وبدلا من ان يقتاداهم الى المنزل او الى المستودع على الاقل اطلقا عليهم النار فى مكانهم . وقفا جنبا الى جنب وراحا يطلقان النار من بندقيتيهما بتصويب مباشر على كومة الاطفال . ولم يفكرا باطلاق النار على المرأة قبل الجميع كيلا تزعق بمثل هذا العويل . . .

— اوى ، آه — بدأ العويل هنا فى المنزل ايضا ، ماذا تفعلون ، ماذا تفعلون ؟ !

قلت الزمام ، وستقوم القيامة الآن . نهض العم جافلا ، فقد سمع صوت ترباس توبيغا ، وصرخ فجأة بعينين جاحظتين :

— اطلق علي ، علي . فربما انا من الانصار بالفعل . ولكن الاطفال ، ما ذنبهم ؟ هل انتم بشر ام ماذا ؟

ستفهم الآن طالما سألت . هدوءا ، هدوءا . . .

اندفع هيكل الرشاش الى الوراء وكأنه مرتعب هو الآخر . ارتد العم وارتطم بالمصطبة وهوى عليها . ظل يصارع المصطبة امدا طويلا ، طويلا جدا ، مستأثرا بالصلية التى كان يجب ان تتحول الآن صوب السرير وتمتد عبر الصندوق . ولكن فات الوقت ، فقد تفرقوا فى انحاء مختلفة وانبطحوا على الارضية ، بينما لا يزال الرجل ينتفض متشنجا . ولم تعد الصلية كافية لتجهز عليهم جميعا . كنت اتوقع ان شيئا سيعيقنى . فلا يصادف ان تسير الامور بلا مفاجآت . ثم ان هذا الابله اخذ المخازن معه . لن آسف على آخر خرطوشة اذا انفقتها عليه . اتجه الرشاش صوب السرير تلقائيا وهو يقلب الايدى والرقاب ويرش الحيطان بالاصباغ ، ثم بحث عن الذين كانوا على الصندوق وحواليه على الارضية ، لكن المائدة اعترضت الطريق

وحالت دون المرور لرؤية دكة الفرن كلها . ثم ان الذين على الارضية قرب القدمين يعيقوننى ايضا ، فمن المخيف ان اسلم لهم قدمى . ومع ذلك بلغت الدكة ، ها انى قد بلغتها ، نعم ، خذى نصيبك انت ايضا ايتها العجوز الشيطانة ، وسنرى اى درع واق هو بدنك ، ومن يختبئ وراءه ويحميه . لن يختبئ الكثيرين . كل ما فى الدكة من عصير انفجر رأسا فتخضبت بالاحمر ، وراحت تعوم فيه من فوق . . .

وانقطع الهدير والصدى يدوى فى الداخل . الدم يبقبق ويشخب فى كل مكان . ربما هم يتنفسون . طبعا يتنفس اولئك الذين تحت السرير وعلى الارضية ، لكن ذلك من شأن الفرنسى . يجب ان آخذ الخبز ، والا سيحترق . . . ساخن جدا ، هذا الخبز اللعين ، انه يلسع ! فلتذهب يا احمق ، والا ستحترق وتتفحم مع هؤلاء . . .

القرية الاولى
الساعة ١١ والدقيقة ٥١
حسب توقيت برلين

فتحت عينيها كيلا ترى ماما ميتة وتلك المرآة السوداء . اطلت الشمس على حفرة البطاطس واستقرت اشعتها على عيون الموتى . فلم تر الالمانى السمين المشوب واقفا على الحافة يعبئ رشاشته .

ربما خيل اليها انها فتحت عينيها . فاشعة الشمس الساطعة اخترقت حمرة الجفون المغمضة .

. . . قربت المرآة الدائرية الساطعة من عيني ، وقد تسخنت على رف النافذة . ها انا ارى شفتي الحمراوين القانيتين اللتين تفوحان برائحة ممنوعة ، رائحة احمر شفاه ماما . واقوم بمحاكات «القبلات» المتعطشة المخجلة . انا في المطبخ ، لكنني راكعة على ركبتي لسبب ما ، مثل جدتي عندما تركع امام الايقونة كل صباح . كلا ، انا اعرف السبب . ذلك لان هذا مخجل . فلو رآني احد لكان الموت افضل . وهذا يثير لدى ، انا التي لا اعرف الحياء ، شعورا لذيذا مفرحا للغاية . ومن افظع الامور لو باغتتني ماما او بابا هنا ، وراء الستارة ، وانا راكعة على ركبتي والمرآة في يدي . تفوح رائحة شراب الابقار والبطاطس الساخنة . وامامي دلاء وسخة وطست كبير بعروتين . فلدينا «ماشية» ، مثل سائر اهالي القرى في ضواحي بوبرويسك . انا راكعة على ركبتي بشفاه مصبوغة ، وارسم شارة الصليب بيدي كما كانت جدتنا تفعل . ولو رآني احد الآن لمت في الحال . المرآة التي في يدي ، وهي كالايقونة الدائرية الصغيرة ، ظلت في منزلنا من تركة جدتي . عندما كانت جدتي على قيد الحياة كانت عندنا ايقونة مرسومة كبيرة في ركن الغرفة فوق السرير . وبعد ذلك رفعوها واعطوها لا ادري لمن . انا لا اعرف كلمات جدتي ، لكن شفتي الحمراوين الوقحتين تهمسان بها . شفتان عسليتان محظورتان ، وكلمات محظورة . على هذه الصورة تلحس ماما شفتيها عندما تصبغهما استعدادا للذهاب مع بابا لزيارة احد . وهي تضمهما باغراء وجمال . ويقترب منها بابا من الخلف (وهي تراه في المرآة) ويضع يده على كتفها وتلمس اصابعه جيدها ، ويبتسمان لبعضهما البعض وكأن الدنيا خالية من اي

انسان سواهما ، وحتى انا غير موجودة . وتشعر ماما بالاحراج والارتياح ، مثلما اشعر بهما الآن . وهي ترفع يده من كل بد : «لا تشوش علي ، فقد نتأخر» — «ثم ماذا ؟ فلنتأخر» — «ليس في ذهنك ، يا ايفان ، الا الحماقات . . .» . انا هنا وراء الستارة ، وهما في غرفة اخرى ، لكنني اراهما لسبب ما ولا استغرب . الا يعني ذلك انني نائمة ؟ لماذا لا استغرب ؟ شفتاي ضخمتان غريبتان بسبب احمر الشفاه ، وتفوح منهما رائحة الهشيم وروث الابقار واللبن . ماذا افعل ؟ ما سبب وجودي هنا ؟ سيدخل احد الآن وسأموت من الخجل . تفوح رائحة عسلية منبعثة من دفء الابقار ، تفوح رائحة الروث . وانا مع غريشا في الجماليون ، نحن راقدان على القش . وتحتنا البقرة تجتر متأملة وتتنفس متأوهة وحيدة بشكل يثير الضحك مثل قربة كبيرة خاوية ، واسمها مضحك ايضا «ابجدية» ، كانت تسمى هكذا عندما اشتريناها . واقول له : «انت والبقرة تتنفسان بشكل واحد» . . . واضحك واغلق فمه بشفتي ليستعيد هدوءه ، فيهدأ لحظة . وجهه يطل على وجهي مباشرة ، وجه تواق عنيد ملحاح على طريقة الاطفال . امسك يديه بشدة ، واسلمه شفتي الحمراوين واستولي على انفاسه واضحك ، واشعر برعب حلو . . . في اشعة الشمس دخلت سنونوتان المستودع كالطلقة والتصقتا بالعش الاسود الذي لا يزال بليلا وقبلتاه ثم انطلقتا تنظفان مناقيرهما بزقزقة كلها ملامة : «ماذا تفعلان هنا ؟» .

— حبيبتي ، حبيبتي !

همس لاهثا مستعطفا خجلا ، فهو خائف من ضحكتي السعيدة . يتصور اني اضحك عليه ، بينما اضحك من

الخوف ، لانى صرت اعرف . . . لقد حدث بيننا كل ما يمكن ان يحدث . وبقيت امدا طويلا لا اعرف ولا احزر ، وفجأة فهمت : حدث بيننا ما حدث ، فنحن كزوج وزوجة . نرقد معا ! ومع ذلك يخيل الينا ان شيئا ما آخر سيحدث . كنت اعذبه (واعذب نفسى) بالخجل والخوف واشوش عليه وعلى نفسى ، ولم نلاحظ من خلال هذا التشويش ان كل شىء قد حدث بيننا . لكننى فهمت فجأة ، وهو لا يعرف بعد . كان سيرتعب وسيفرح لو فهم باننا صرنا رجلا وامرأة ، وان كل شىء تم بيننا . اشم رائحة الحب الحامضـــــة المخجلة . . . ام انها تفوح من وراء الستارة ؟ كلا ، من تحت ، من البقرة . من الحفرة . . . من اية حفرة ؟ ماذا اقول ؟ اين انا ؟ . .

يخيفنى ان احدا تحتنا هناك يتنفس ويتأوه . . . لكنى اعرف انها البقرة ، بقرتنا ابجدية . ولكن ما الذى يجعل انفاسها فظيعة الى هذا الحد ؟ ماذا لو كان ذلك حلما فقط ، وانا لست هنا ، وغريشا ليس معى ، وشىء ما يحدث هناك فى الجهة التى انطلقت اليها السونوتان ؟ انا اعرف ، اعرف كل شىء . نحن نرقد معا ، نعيش . . .

القرية الثالثة

هدوء مطبق يخيم على المكان ، لا يعكره سوى طقطقة مخازن العتاد بيدى دوبروسكوك وبصاق اليتيم بين حين وآخر ، الدخان الثقيل اللزج وصل الى هذه الانحاء ، الى غابة الصنوبر

المخلخلة ، فصار اللعاب مرا فى الفم وكأنه لعاب غريب . ثم ان هذا يبصق طول الوقت وكأنه لا يعبأ بشىء . يصفر ويبصق وقد نشر يديه الخفيفتين واخذ يمسح راحتيه اللصوصيتين بأغصان الصنوبر . لقيط تربى فى دار الايتام ، وله دار فى كل مكان . يتطاول على كل من يصادفه وعندما يتلقى الجواب ينقلب على ظهره رأسا ويهز ذيله . امثاله من عديمى المبادئ هم الذين يلجأون الى العصابات ، ويجلبون المصائب على الآخرين . دوليفان مهتاج كالوحش ، يصب جام غضبه على كل انسان دون تفريق . وهم يعدمون اثنين مقابل كل شخص يفر . وبما يعدمون اناسا لا جريرة لهم ، لمجرد انهم وقعوا بين ايديهم . الاحمق وحده يظن ان الالمان يمكن ان يفعلوا كل ما فعلوه فى بوركى لو لم يكونوا واثقين تماما من انهم منتصرون وان البلاشفة لن يعودوا . فهم لا يكرهون انفسهم ، وما كانوا سيقدمون على ذلك لو انهم يعتقدون بان الروس سيأتون ايضا الى القرى والمدن الالمانية . ثم ان اولئك الذين فى الغابات هل سيغفرون لك خدمتك فى كتيبة دوليفان ؟ اركضوا ، اهربوا اليهم وسيسألونكم ماذا فعلتم فى بوركى وما الذى جعل الدخان لزجا الى هذا الحد فى المنطقة كلها . لكن توبيغا لا يعنيه شىء لا من امر اولئك ولا هؤلاء . فما لهم فليبق لهم ، وما للالمان للالمان . اما توبيغا فما عنده يكفيه . انه يعيش من اجل نفسه ، طالما يعيش ، وطالما تمسك يده بهذا . طالما الرشاش موجود يبقى توبيغا على قيد الوجود . وعندى مسدس ايضا ، فحامل الرشاش له حق بسلاح شخصى مثل آمر الوحدة . لن تقبضوا على توبيغا حيا . اما اذا مت فيمكنكم حتى ان تحنطونى .

ها هو حقل الجودار يلوح من جديد ، لكنه اكثر كثافة هنا ، في المنخفض . زعق اليتيم واسرع راكضا الى الامام كأنما يريد ان يقذف نفسه في الماء ، وراح يغترف السنابل بيديه ورجليه ، فهو كالجرو الاحمق يفرح لكل شيء . رأى بين السنابل نبتات واطئة وكثيفة من التوت البري فركض اليها وصاح من هناك :

— هايل ، تحياتي !

وفي الحال قامت قربه امرأة محدودبة اخذت تتمتم بانها بريئة وان اطفالها يتامى ولا زوج لها . . . ما اكثر اليتامى هنا ، وكلهم يرتدون ثياب ابيهم . بعضهم في قمصانه وبعضهم في جزمات كبيرة وستر رجالية ، وكلهم صبيان . ها هي الشيطانة تخبئ الجنود ، اضف الى عمرهم عامين وستراهم يتوجهون الواحد في اثر الآخر الى الغابات ، الى العصابات . ويخلقون المزيد من المشاكل لدوليفان .

— انا نفسي يتيم — قال الاحمق فرحا وتطلع الى رشاش توبيغا ، ثم الى توبيغا ولسان حاله يقول : بذلت جهدي من اجلك ، فاعمل ! هذا فرنسي آخر اذن ! . .

— ما رأيك يا توبيغا ؟ اليس الافضل ان نجعل دوبروسكوك يسير في الامام ؟ اعملوا يا رجال !

وواصل سيره ، يا له من شرير . ولحق به دوبروسكوك متملصا . فاذا حدث شيء سيقولان : توبيغا ظل في الاخير وعليه ان يطفئ المصباح . آه يا ملاعين ! . .

— هيا انبطحي ! لماذا تنقنقين كالدجاجة ؟ ارقدي على الارض .

اما اولئك الاثنان فقد ابتعدا وهما يتلفتان بمرح وينتظران

متى تدوي الموسيقى . لامثال هذه الاسود الضاحكة التي لا تجيد غير الحماقات ابتدعوا مختلف الكلمات والنعوت في الجرائد وفي المحاضرات السياسية : «اسود» ، «اشباح» ، وما الى ذلك . لكنهم في الحقيقة ظلوا مثلما كانوا عليه : رعناء لا اقل ولا اكثر . ما الذي يحرق جنبي ؟ الخبز في الحقيبة ، لا يزال ساخنا .

— انظر ما يفعل ، انظر الى ابداعاته — صاح اليتيم ليعلو صوته هدير الرشاش . والتفت دوبروسكوك هو الآخر وراح يتطلع الى توبيغا وهو يطلق النار ، لكن دوبروسكوك لم يستدر ، بل وقف ينظر من الجانب وكأنه غير موجود هنا . ظهر توبيغا العريض ورأسه المائل على كتفه يستديران برفق ومرفقاه يرتجان لانتفاضات الرشاش .

استدار وعدل وضعية الرشاش والقى عليه نظرة ملؤها العناية والحرص ثم مضى في اثر دوبروسكوك واليتيم .

— كلا ، سأعود لالقي نظرة — اندفع اليتيم عائدا ، لكن توبيغا اعترض طريقه .

— الى اين يا اسد الاسود ؟ تريد ان تنهب بعد ان تم كل شيء ؟

— وما شأنك انت ؟

ودوى في تلك اللحظة هدير . وتموجت السنابل الى يمين اليتيم كأن ريحا مفاجئة هبت عليها . جفل اليتيم الى اليسار وسقط . وجلس دوبروسكوك القرفصاء من الخوف والشماتة . قفز اليتيم ، وبدلا من الوجه كان هناك شيء ابيض بثقوب للعينين والانف .

— مجنون ! بليد ! سأبلغ من يهمهم الامر ! يتصور ان كل شيء مسموح به له طالما هو احمق ! لو حدث لى مكروه هل تعرف كيف سيكون جزاؤك ؟ .

اليتيم يلوح بيده ويقوم بمختلف الحركات ، بل ويختطف البندقية بجبن وتهيب ، ومن عينيه ومنخريه العريضين ينسكب سائل مخاطى .

تصبب العرق من توبيغا ، فقد ارعبه اليتيم كثيرا ، اذ كان بوسعه ان يبلغ شجيرات التوت ويرى المرأة واولادها احياء . وعند ذاك يشيع خبر توبيغا الذى تصرف تصرف جبان لا يجيد التصويب ، كالازعر ، كذاك الشرطى ذى النظارات الذى خرج من المنزل وهو يتقيأ ويلوث الباب . ظل الجميع فيما بعد يسخرون منه طول الطريق . توبيغا نفسه لا يعرف كيف حصل ذلك ولماذا : فقد حصد شجيرات التوت كلها وكـــــل السنابل التى حولها دون ان يمس المرأة واطفالها .

. . وربما هم راقدون بين شجيرات التوت يتهامسون ويشيعوننى بنظراتهم دون ان يصدقوا بحظهم السعيد . كانوا ينظرون اليّ نظرتهم الى اله الرحمة عندما انصرفت . يجب ان ابتعد مع هذين الاحمقين باسرع ما يمكن . فهذا اليتيم الشرير يطلق الشتائم متذمرا طول الوقت . اما دوبروسكوك فهو يتمتم راضيا لاننى خوفت اليتيم . امامنا غابة كثيفة وليس مجرد شجيرات . يتسكع فيها اشخاص من قوات التطويق ربما هم المان او من جماعة ميلنيتشينكو ، طبعا هم البنديريون وليس غيرهم . انهم دوما يسيرون معا ويتطلعون بارتياب . وعندما يقتل الواحد منهم فلا بد من ان يعثروا على صليب تحت

قميصه . وقد سمحوا لهم حتى باطالة اللحى ، بل وسمحوا لهم ايضا بحمل شارة السهم الثلاثى على السدارة الالمانية ، وعندهم قسيس خاص بهم . ها هم مستلقون على العشب تحت الشجيرات ، يطبخون ويأكلون ، فهذا ما لا ينسونه فى كل الاحوال . ولكل منهم موقد خاص به . انهم يسخنون قطع الشحم على اعواد من الشجر . ويتطلعون اليك وكأنك ذاك الشخص الذى ذبحوه يوم امس . كفاية ، الم تشبعوا من النظر الي . لا تخافوا ، عندى سمن ولا احتاج الى شحمكم . وها هو العود موجود ، والنار من هبات الله . وانتم تعرفون ذلك اكثر من غيركم ، فانتم لا تذبحون الدجاج الا باسم الله . يصلّون من اجل الفوهرر ومن اجل المانيا العظمى ثم ينطقون عبارة «يحيا الاستقلال» ويسكبون دمعة ، ثم يتجولون كالسكارى بعد الحمام نظيفين طاهرين موردى الخدود . وينظرون الى الشرقى كأنه قملة قارصة .

— لماذا تتراكضون هنا ؟ ماذا لو اعتبرناكم من الشقاة ؟ ولو اطلقنا النار عليكم فماذا ستقول ؟

— سأقول انك احمق .

— اخرس ! تتظاهرون بالذكاء الى ان يأتيكم المانى اكثر ذكاء منكم .

— يبدو انهم لم يحتجزوك كفاية فى الكولخوز يا عم . مع الاسف ، والا لتعلمت كيف تتكلم مع الناس بأدب .

— الافضل ان تأسف على . . . .

لم يتسن لنا ان نتشاجر . فقد تحرك الرجال وتراكضوا صوب الطريق العام . حدث شيء ما هناك . اما السمن الذى سرقه الفرنسى فهو لذيذ . ما الذه مع الخبز الساخن (لا تزال

سخونة القرن محسوسة فى الحقيبة) . ماذا حدث هناك ؟ فلاذهب لارى . هذا ، اذن ، ما جعلهم ينتفضون . فان امرأة تسير متوجهة الى هنا . يبدو انها من قرية اخرى ، وربما هى من اهالى بوركى ، كانت غائبة فشاهدت الدخان والحرائق وسمعت اطلاق النار فاسرعت الى القرية . تلك هى عادة هؤلاء النساء . وخصوصا اذا تركن احدا فى المنزل . انها تسير مندفعة نحو قوات التطويق مباشرة وتهز رأسها ذات اليمين وذات الشمال ، لكنها مرتعبة للغاية . تندفع بقدميها الحافيتين وخلفها سحابة من الغبار . هل اصابها الصم او العمى يا ترى ؟ ام انها هى ايضا تظن اننا نطلق النار هنا على الدجاج ؟ على متنها كيس حاجيات عسكرى وفى يديها سلة .

— ربما حملها الشقاة بالمتفجرات لتقضى على البنديريين !

— انتم تعتبرون كل من هب ودب من الشقاة .

— ولذا اقول اننا بحاجة الى مدفع ولو صغير .

— لماذا تكشر مثل حصان فى الرسن ؟ التوت رقبتك ، فاحذر كيلا يعدلوها لك .

— اين الذين يريدون ان يعدلوها ؟

— من ينبح هناك ؟ اخرس .

هذا الرجل ذو البوز العريض والسدارة المزينة بالسهم الثلاثى يصدر اوامره ولا يرى ان احد كولخوزييه قد اختبأ وراء شجرة البتولا ويلوح للمرأة بسدارة مثل سدارته عليها شارة السهم الثلاثى . لا تجهد نفسك يا ابا الشوارب ، فالمرأة لا تنظر اليك ، بالها مشغول بالطلقات والدخان ، ففى القرية المجاورة يتعالى الهدير ويشتد الرعب . اما فى الامام فلا شىء غير نباح الكلاب ، والمنازل تنتصب سالمة . . .

اطلق الرشاش من بين الشجيرات صلية طويلة مدوية . فسقطت المرأة مع الكيس فى جانب وسقطت السلة فى جانب آخر . . . عجيب ، عشرون خرطوشة على امرأة واحدة ! اذهبوا واجمعوا عصيدة البيض ! ولكن اين ذاك الذى كان يبعث الاشارات ؟ جلس على القرمة وكأنه لم يفعل شيئا . شارباه يتدليان كالمعكرونة المسطحة . وهو منهمك فى فحص ترباس بندقيته .

توبيغا الذى يحمل بالكاد رأسه على كتفه اجتاز الطريق من اقصر مسافاته حتى بلغ موضع الرجل المشورب رأسا . وسأله وهو يشير الى القرية :

— كيف الحال ؟ انتهيتم ؟ لمَ لمْ تطلقوا النار على الكلاب ؟ هذا غير جائز .

— عندكم يتم ذلك بسرعة .

— وعندكم ؟ لماذا اعطيت اشارات للمرأة ؟ ماذا لو رآك احد ؟

نتف الرجل شاربه باليد التى كانت على الترباس . وراح يتطلع برعب ودهاء .

— ماذا تريد منى يا روسى ؟ تكلم والا قتلتك !

فى يد توبيغا وسيلة اقوى . بوسعها ان تنخر جسمـــه بالرصاص فلا يبقى موضع للسعة قملة . هكذا اذن . ابق جالسا تتنفس فى الظل . نعم ، ولكنى اذا ابتعدت عشر خطوات يمكن ان يطلق فى ظهرى . وسيقولون : تلقى جزاءه . فان قتل الشرقى بالنسبة لهم يخلص ارواحهم من خطايا كثيرة .

— لا ترفع صوتك يا عم ، ولا تخف . هل تظن انك الانسان الوحيد ؟ وانا ؟ هل انا وحش ؟ فانا نفسى اذا اردنا

الحقيقة . . .

هل افلت لسانى ام قلت ذلك عمدا . لكننى رغبت فى الحال ان يظن احد ما بالفعل ويعلم باننى لســـــت كالآخرين ، لست ، على الاقل ، مثل هذا الشيطان المشورب .

القرية نظيفة مرتبة ، والمنازل مطوقة بالاسيجة ، والمصاطب فى كل مكان ، فيها بئران ترى البئر الثانية من موقع الاولى . تطلع توبيغا الى الاعماق الدائرية الباردة . كانت خالية الا من الماء . نعم ، عاشوا هنا كالالمان . بالحق والباطل . كانوا قد جمعوا الآخرين من شتى القرى فى كومة واحدة ، اما هؤلاء فقد تمكنوا من العيش مشتتين ، على انفراد ، مع انهم فى كولخوز . وحتى القرية المركزية قريبة ، لكن كل قرية تقع وراء غابة صغيرة خاصة بها .

البيبان ودفات الاسيجة مفتوحة على مصاريعها ، والدجاجات تنبش الرمل وتغوص فيه تهربا من الحر دون ان تبدى ادنى اهتمام بغياب كل البشر وغياب ربات البيوت . لا احد سوى الكلاب تنبح هنا . فما اكثرها ! كل كلب ينبح امام باب سياجه او فى حوشه . بحت حناجرها من النباح والعواء وصارت تشهق مختنقة حتى يكاد المرء يشاطرها النباح راكعا على اربع . والماشية فى حظائرها مضطربة هائجة . والخنازير الجائعة تصأصئ وكأن احدا ينحرها هناك . اما المسؤولون عن اقتياد الماشية فلا اثر لهم ، انهم ، الحقراء ، لا يأخذون تلك البهائم . الشمس الحارقة تضرب من فوق كالمدافع ، والظلال قصيرة ، فالمرء يسير على ظله ويدوس على رأسه .

توقف توبيغا وسط الشارع وخلع من رقبته السير الذى يحمل

الرشاش الاعوج ووضعه على العشب الذى غدا ابيض من الغبار ، وفك حزامه المتهدل تحت ثقل المعلقات والقنابل اليدوية والمسدس والقى به امامه وهم برفع حقيبة القناع الواقى من الغاز ، وهى حقيبة روسية ثقيلة لا تزال دافئة بالخبز المستدير ، وقد لوثتها الدهون حتى صارت سوداء بعد ان كانت خضراء . وبوسعه الآن ان يخلع من الكتفين البليلتين الحساستين معطفه العسكرى المبلل كالطين . الآخرون تركوا معاطفهم فى السيارات منذ الصباح ، فالكسالى على عاداتهم ، تارة يتضايقون من الحر وتارة يشعرون بالبرد .

هرع اليتيم من باب السياج وكأن الكلاب تطارده . القى نظرة على توبيغا ، ورفع يده بالتحية ، وقفز الى باحة المنزل المقابل . ولحق به دوبروسكوك على جناح السرعة . وكانت جيوب الرجلين وحقائبهم مليئة .

ارتدى توبيغا كل الاحزمة والسيور والاثقال . ورفع المعطف باشمئزاز وكأنه يرفع جلده المتحشف والقى به عــــلى كتفه . واخذ يوزع نظراته على المنازل ليختار احــــدها فيدخله .

عاش هؤلاء الناس فى بحبوحة ، تحت سقف وبين جدران ، وما كانوا يعرفون ان اخطر مكان الآن هو السقف والجدران . فالمرء فيها كما فى المصيدة . والمنزل يشير الى المكان الذى نجده فيه . لكن الناس تعودوا على الاعتقاد بان جدرانهم تحميهم ، الا اذا احترقت ! . . الكلاب تنبح فى المنازل المجاورة ، لكن باحة هذا المنزل هادئة . والمستودع هادئ ايضا . يبدو انه منزل عائلة شابة لم يتسن لها ان تجمع

كثيرا من المتاع . او ان رجلا اعزب كان يعيش فيه . فماذا اجد ؟ الا ان المنزل مرتب فيه ستائر وزهور على رفوف النوافذ . عجيب ، حتى الباب موارب كيفما اتفق ، وكأن ربة البيت ذهبت الى الجيران وستعود . . . قالوا لهم طبعا انهم اخذوهم لحضور اجتماع او لتفتيش الهويات . وعندما يقولون لهم تعالوا مع اطفالكم يرتابون ، ومع ذلك لا يكفون نهائيا عن التصديق . ويأخذون الخبز معهم ، كما يأخذون احتياطيا من الثياب : كيف لا ، فهم يقتادونهم من البيت ، ربما الى مكان بعيد ! نعم الى مكان لا ابعد منه . . . .

لم يتسن لهم الوقت ليسخنوا الفرن . والمطبخ خاو ليس فيه ما يثير الاهتمام . وفى المنزل ثلاث غرف وليس غرفة واحدة ، وهو غير مريح بالنسبة للظروف الحالية . ما اكثر الوسائد ! ربما كانت هنا بنات ، بنات . فوتهن كاتسو . وهذه مرآة كبيرة مما يصادف فى المدن . كان بوسعك مع دوبروسكوك ان تنظرا فيها ، فيما بعد ، لترىا كيف خدشت البنات بوزيكما . ما هذا ؟ حذاء ، كلا ، لرجل واحدة ، حذاء الرجل الاخرى مجرد انعكاس فى المرآة . حذاء جد صغير . ولكن اين حذاء الرجل الاخرى ؟ يا ليتنى قد جلبت مثله الى البيت عندما كانت زوجتى حبلى . ولكن متى كان ذلك ؟ ما احد يقول بانى ضربتها او تشاجرت معها عندما كانت حبلى . لكنها اصيبت بالانفلونزة ، بالزكام والصداع ، فماتت . كان ذلك شيئا مؤسفا ، الا انى نسيته . ففى ارض غريبة وفى منزل غريب كانت لى امرأة ولم تعد على قيد الحياة . ربما كان هذا افضل . فاخطر مكـــــــان الآن هو المنزل والجدران والسقف . . .

مضى الى ركن جانبى قاتم — هو غرفة اخرى — يحمل على اصبعه حذاء لرجل واحدة ، ويبحث عن حذاء الرجل الاخرى . لقد اشترى هؤلاء الاوغاد هذا الحذاء النادر . حتى فى المدن تجد صعوبة لشراء مثله ، ناهيك عن الارياف . ها هو الذى اشتروا له الحذاء سلفا حتى يكبر . انه يتأرجح فى مهده بوضعية تشبه الجلوس ويغط فى نوم عميق كما لو كان فى كنف امه . انه عار بدين يشبه . . . من يشبه يا ترى ؟ تجمع الذباب عليه ، فهو وسخ ، وجهه ملوث ويداه ملوثة كذلك من الدموع الناشفة ومن طعام ما (تمكنوا من تركه مع ذلك !) . ها هو الذباب يتهافت عليه : يدب ويدغدغه فينكمش وجهه ويتأوه ويتنهد فى المنام مثل الكبار . ويتطلع بين حين وآخر ! ارتعش توبيخا من الاشمئزاز ، بل ومن الخوف . العين مفتوحة قليلا ، وكأنها ليست عين طفل ، والرموش تتحرك متشنجة مستفهمة . تفو ! خيل اليه ذلك بسبب الحر . خبأوه ! يتصورون انهم خبأوه ، مسرورون ، صانوا حياته . اما ان المنزل سيحترق فهذا ما لم يفكروا فيه . انه ينظر ! فتح عينين واسعتين وهم بالبكاء . . .

القرية الاولى
الساعة ١١ والدقيقة ٥٢
بتوقيت برلين

لا ترتعب يا غريشا . سأقول لك شيئا فلا ترتعب . ارجوك . ألن ترتعب ؟ لقد . . . لقد مت . لقد مت يا عزيزى غريشا . ولكنك ترى ان ذلك ليس قطيعا ، فانا اتكلم معك .

ومع ذلك اشعر بالحزن واريد ان انتحب . ليتك تعرف كم انا متضايقة هنا . ولكن ها قد انقشعت الكآبة . فانا اضحك !

وجهي في مرآة ماما . انظر الى شفتي المتنفختين من شدة القبلات ، وخلفي غريشا ، يبتسم ايضا : وضع يديه على كتفي ، ونحن الآن امرأة ورجل . حدث بيننا ما حدث ، ولم يبق هناك شيء ننتظره . وانا مسرورة لان ذلك مر وفات .

لقد مت يا عزيزي غريشا ، لكن الموت ليس فظيعا على الاطلاق ، الا ترى مدى ارتياحنا واطمئناننا ؟

لكنني اشفق على غريشا وأتأسف على تلك الرقبة الفتية المستقيمة المضحكة المؤثرة وعلى ذاك الرأس الحليق كرؤوس الجنود . لماذا حلق رأسه حتى الصفر ؟ سيقبضون عليه ويقتادونه الى معسكر الاعتقال . لماذا فعل ذلك ؟ يجب ان آخذه واخبئه في داخلي واحمله واحس بان ولدي دافئ آمن ، واشعر بان صبره نفد الى حد يثير الضحك . استيقظت . ها انا راقدة ، ها انا بكاملي حتى اخمص القدمين ، وقد تمددت تحت البطانية . انا هنا بالكامل . اشعر بلذة وخجل . وكأنني اتجسس على احد او ان احدا يتجسس علي . يداي متشابكتان تحت ذقني على طريقة الاطفال . فانا غالبا ما استيقظ على هذه الصورة ، تعودت عليها من زمان ، من الطفولة وقبلها . . . وتقول ماما ضاحكة «كنت جالسة على هذه الصورة في بطني . كنت هادئة متأملة هناك ايضا» . اسمع صوتها ولكنني لا اراها ، كل شيء مفهوم ، فلا عجب . فهي وانا وغريشا ــ كلنا هنا . . . . نعم ، اتذكر جيدا كيف كنت مرتاحة مطمئنة ، وكيف كان قلب ماما يدق قريبا وبالشكل المعتاد . في الطفولة كنت ارقد الى يسارها والتصق بها دافئة واسمع كيف

يسألني قلبها وكأني لا ازال هناك : «كيف انت ؟ كيف انت ؟ . .» انا مرتاحة . لقد استيقظت ولكن ليس بالكامل ، بل استيقظت يدي المتخدرة وقدماي اللتان انفرجتا بشكل مخجل . سحبت البطانية وامسكت بها عاليا ورفعت ركبتي وخفضتهما مرارا . نسيم وقح يداعب الحلمتين القاتمتين والبطن والركبتين ويتأفف مستنكفا . الضوء يتسرب عبر الستارة والنافذة المربعة يعلوها الاصفرار . يعني ان هذا هو المطبخ . انا نائمة في المطبخ لسبب ما . هذا هو الدولاب البني والفرن الملطخ باوساخ كالدموع والدلاء فيها بطاطس محمضة . رائحة الحب الحامضة ، رائحة حامضة . . . كيف ضحك غريشا بحبور على طريقة الرجال عندما حدثته وخبرته بكلمات الطبيبة ان كل شيء عندنا طبيعي وانني صحيحة الجسم تماما : «انت امرأة بليلة طبيعية . . .» . كنا نرتبك ولا نتمكن من النظر الى بعضنا البعض عندما يختلط ضوء الصباح برائحتنا الليلية . ولذا انا الآن وحيدة . فما وجه الغرابة في ذلك ؟ الدنيا صباح ، ولذا انا وحيدة . يا الهي ، لمَ انا تعيسة الى هذا الحد ؟ هذه الخشونة الفظيعة على الساقين والفخذين ، وهو يشعر بها . فانا وحدي المشوهة بهذه الصورة . لا احد مشوه مثلي . انه يمسد تلك المواضع بحذر يقرب من الملاطفة ، وانا اعرف انه يتلمسها ليتأكد من وجودها . انها باقية ، وهذا ينفره لكنه لا يقول شيئا . وقد تطلعت خصيصا الى ماما والى صويحباتي في النهر فرأيت ابدانهن رقيقة ملساء . وانا مشوهة . مسكين غريشا ، مسكين . ما اشد تعاستي ، واريد ان ابكي . «يجب ان تبكي ، ابكي اكثر وسيهون عليك . . .» . ها انا ارى النساء من جديد والمرآة عليها قطعة القماش السوداء ،

وكلهن ينصحنني بالبكاء . وشيء ما يدق ، يدق طول الوقت ، من الخارج ، يريد ان يدخل .

— سأفتح الآن وسترين كل شيء — غريشا يريد ان يرفع قطعة القماش السوداء من المرآة .

— لا تفعل يا غريشا ، ارجوك . لا اريد ، انا اخاف من رؤية . . .

القرية الثالثة

آها . . ها هم جميعا هنا . ادرك توبيغا وهو في الشارع ان كل شيء حدث في هذا المنزل الجديد ، فهو اكبر الكل . يجري ذلك عادة في افضل المباني التي كان اناس كثيرون يتجمعون فيها حتى قبل الحرب ، كالمدارس والنوادي والكنائس . اما هذا المنزل فربما كان يلم شملهم في الامسيات البهيجة . باحته فسيحة ، اما نوافذه فقد اقتلعت بمصاريعها . وتفوح رائحة المفرقعات والدم المعروفة التي يحس بها المرء من بعيد . كانوا يتسلون بالقنابل اليدوية . فالهواء خانق . ويقهقهون . جلسوا في المنزل يتجاذبون اطراف الحديث ، فقد انجزوا مهمتهم . واذا باغتهم الرؤساء سيقولون لهم : تفضلوا ، انتهينا توا ، وأدينا اكثر من المطلوب . كان توبيغا في البداية يريد ان يجلس ويتطلع الى القتلى ، من سقط او رقد شبه عار او مستويا ومن يجلس كالحي . اراد ان يدخن سجارة ويستمع الى مختلف الروايات كما يفعل الناس حول الموقد . كل ذلك لاجل العاملين الجدد والطفيليين ! . .

تلكأ في الباحة . كلا ، هؤلاء البنديريون يريدون هنا ايضا

ان يتميزوا عن غيرهم . يريدون لكل شيء ان يجري مثلما عند الالمان . الامتعة وحاجيات النساء مصففة على المصاطب ، وعلى الاعشاب قرب السياج ، بل وقسم منها ، افضلها ، منشور على السياج . الغنائم ليست ملطخة بالدماء ، لكنهم هم ملوثون بالمخاط والدموع . فمن يخلع جزمته طوعا بلا بكاء ونحيب ؟ ها هو ذاك الطفل ! لقد اخرجوا الايقونات مع ذلك ، اخرجها اهل الله ووضعوها على سقط المتاع . . . ها هو بين يدى العذراء ، بينما اسائل نفسي طول الوقت : اين رأيته ؟ يداه مكتنزتان ، وعلى رجليه الممتلئتين ثنايا ، وهو يتطلع ويبص كأنه كبير ! . .

اطل بوز دوبروسكوك الاحمر خائفا مرحا من المنزل الى دهليز الباب . يعني انهما هنا ايضا . وجاء صوت اليتيم منفرا مرتفعا :

— انتبهوا . توبيغا قادم .

— استرح . فهو ليس من المراتب .

— انظروا ، جاء روسي آخر !

هؤلاء البنديريون يعتبرون كل الشرقيين روسا وموسقوفيين .

— روسي ، لكنه يصوب افضل بمائة مرة من صاحبكم كتاب . كل صلية من صليات توبيغا مخزن كامل . والمخزن يقضي على نصف اهالي القرية . انه يوقع بالرشاش ويكتب اسمه بالرصاص . انه وحده يكفي لكل هؤلاء . . .

كيف يرغبون في الجلوس هنا وتشمم روائح المفرقعات الخانقة . اجهزوا عليهم بالقنابل اليدوية كأنما يفجرون سمكا في الشط . حتى السقف احمر والارضية ناقعة ليس فيها

محط رجل . جلسوا على المصطبة متلاصقين وثنوا ارجلهم كالقطط فى المطر . انها حضيرة لاكوستا . هذا الرومانى ذو الانف الكبير يسوط محاربيه مثلما يسوط الاحمق الحمقى . اما انفه فهو كالمحراث ، وعيناه كعينى غجرى شرير . وقد نعت اليتيم جند لاكوستا هؤلاء بكلمات : «الطمنى على بوزى» . وكان قد لاقى ما لاقاه عندما كان تحت امرة لاكوستا ، حيث اصطدم الشر بالشر . اما البنديريون فيبدو انهم فخورون بلطمات آمرهم . فكل شيء عندهم «غربى» افضل — الانضباط والقسس والسهم الثلاثى و«احترام المراتب الاقدم» .

— لماذا انتم جالسون ايها الكولخوزيون الشباب وكأنكم امام المدعى العام ؟ — ما اشد حبهم لكلمة «الكولخوزيين» !

— الا تريد ان تكون من جملتهم يا روسى ؟

البوز الغجرى يتطلع ويثقب بعينيه السوداوين ، وكأن توبيغا لا يمتلك لعبة اعلى صوتا . يعتبرونه من اهالى اوكرانيا ، لكنه فى الحقيقة من رومانيا ، وهو غجرى على الاكثر . فكيف لم يقع فى ايديهم عندما دمروا كل طوابيرهم فى عام ١٩٤١ ؟

— احضرت لكم اليتيم ليساعدكم . الا تأخذونه مجددا ؟ لكنكم وفقتم هنا بانفسكم وبعون الله . . .

— لا تمس الهنا ، ايها الثور المسقوفى .

هذا هو صوت كناب رامى الرشاش فى حضيرة لاكوستا . مثلما غرز الخالق قدمى دوبروسكوك فى مؤخرته بدون فخذين فقد غرز رأس كناب فى كتفيه بدون رقبة . انه كالقنفذ ، لكن عينيه تحفران لتثيرا الخوف . ماذا بوسعك ان تفعل وليس لديك غير هذه الاداة الشبكية . هذا ليس رشاشا ، بل عصا لتخويف العصافير .

— لم يكمل المسقوفيون تعليمكم ، وسنكمله نحن . . .

— عيب عليك يا كناب ! تظن ان الالمان ايضا ليسوا بحاجة الى المتعلمين . كل علمك هو ان تلوى ذيل الجاموسة . اما مورافييف فاذا كان ملازما فهو آمر الآن ايضا . خذ لاكوستا ، مثلا . فقد تعلم ولا بد ، وهو الآن يعلمكم بالضرب المبرح .

لم يعجبه هذا الكلام فثارت ثائرته . اقترب توبيغا من الالمانيين تحوطا للطوارئ . وهما اثنان هنا . ففى كل حضيرة يوجد المان . كورت الاحدب واخوه فرانس جالسان قرب النافذة المخلوعة ، فالهواء هناك انقى . وقد انشغلا بمشاهدة صور اهل البيت ، واهتما بها وراحا يتكلمان بلغتهما ويضحكان . الالمانيان اللذان عند لاكوستا مشهوران فى الكتيبة كلها . فاذا قلت «فرانس المرح» يفهم الجميع عمن تتكلم . زد على ذلك ان فرانس يتكلم الروسية ايضا . ثم ان كورت وفرانس توأمان ، مع ان الشيطان ربما حطم قرونه قبل ان يتمكن من جمع شمل هذين الشخصين المختلفين كل الاختلاف فى فلقتين لحبة واحدة . اذا مسحنا من وجه فرانس ابتسامته الدائمية وخلصنا كورت من حوله الغاضب (فهو احـــول وليس مجرد احدب) لربما كانا سيتشابهان . فكلاهما نحيفان اسمران . ويحب فرانس الضحك على اخيه فيقول : «هذه حدبتى وليس حدبة كورت . كان المكان ضيقا فتدافعنا ، وعملت له حدبة» . ويكشر عن انيابه بثرثرة فارغة مثل ثرثرة اليتيم . ويقترب منك احيانا ويسأل : «متى ستطلق على الالمانى ؟» ويشير الى سلاحك والى قفاه .

ذات مرة رأى توأمين من احداث القرية ففرح لهمـــا كأنهما من اقربائه ، ورافقهما طويلا فى القرية وعرفهما على

الجميع ، واجلسهما معه ومع كورت ، وكان مرحا كالطفل . وبعد ذلك اوقفهما الواحد الى ظهر الآخر : «كالسندويش» ، وقتلهما بطلقة واحدة من البندقية وقهقه موضحا :

— طق ، ويموت فرانس وكورت معا .

وقع اقدام فى الباحة وفى الشارع ، كوقع السنابك . وكان اليتيم اول من حزر :

— بيلى يقود مفرزته . انظر يا كناب وتعلم . انه يقود الآن سرية .

— سميت المفرزة سرية وتظن ان صاحبك المسقوفى سيقلب العالم .

من افادات لاكوستا وسيفاك فى عام ١٩٧٤ :

سيفاك : استأسد لاكوستا كالوحش الكاسر عندما قاد الحضيرة . فقد ضرب الرجال مرارا . كنت فى الخفارة عندما ضربنى بقبضته على اذنى !

لاكوستا : فليقل لماذا ضربته . ترك مخفره وذهب ليبحث عن العرق . ويريدون منى ان اجلس مع هذا اليتيم — كانوا ينعتونه بهذه الكنية لحماقته — واشرب ، هل تتصورون ذلك ؟ وحتى بعد الحرب كنت فى دونيتسك لا اتسامح مع السكارى من النجارين العاملين فى فرقتى . فكيف يمكن ان اعاملهم ان لم يكن بهذه الصورة ؟

الكلمة الاخيرة ، دعاوى الاستئناف بشأن تقليص الاحكام والتماسات العفو عن السفاحين السابقين فيدورينكو وغولتشينكو وفيرتيلنيكوف وغونتار وفونك وميدفيديف وياكوفليف ولابو واوسماكوف

وسولجينكو وتروفيموف وفوروبى وكولباسين وموزافييف :

«طوال ٢٦ عاما بعد الحرب عملت بنزاهة لمنفعة الناس . ارجو ان تتركوا نصف ودبعتى لزوجتى» .

«كنت آمل بان كل شىء سيتحسن بعد خروجى من معسكر الاعتقال الالمانى . لكننى عندما شاركت فى الحملات التنكيلية الاولى ادركت باننى صرت خائنا . لم يتمكن الآمرون السابقون ان ينظموا الاشخاص الذين هم مثلى لاجل الكفاح ، اما انا فلم اتجرأ على الفرار» .

«قبل الاعتقال كنت اعيل ٨ اطفال ، لكننى لم احدثهم لا هم ولا زوجتى عن الجرائم التى اقترفتها ، لان الحديث عن ذلك مخيف» .

«خلال الخدمة فى الشرطة الفاشية قتلت ، بلا شك ، خمسة اشخاص . وقلدونى مدالية المانية ، لكننى القيت بها رأسا . ولم يكن الالمان يعرفون بانى كنت عضوا فى الحزب» .

«ايها الحكام المحترمون . انا من عائلة عمالية ، وقد بدأت العمل فى سن مبكرة . . . ارجو ان تأخذوا توبتى بنظر الاعتبار ، وتبقوا على حياتى» .

«بعد وصول الجيش السوفييتى قاتلت ضد الالمان ، وعملت ٢٠ عاما .

لم اتلق عقوبات ، على العكس منحت ٦ شهادات تقدير ، وانتخبت عضوا فى اللجنة الانتخابية» .

«امام المحكمة يقف الآن غولتشينكو آخر . فقد اعلنت عن توبتى بصدق وادركت بالكامل مدى فداحة الجرائم التى اقترفتها : كل همى هو العمل الجاد لصالح الشعب» .

«ان الحكم الحالى الصادر بحقى لا يمكن ان يبقى

7-304

ساري المفعول ولا ينبغي تنفيذه للاسباب التالية . . .»

«انهيت محكوميتي في الشمال وعملت بنزاهة . . .»

«لا اتمنى ذلك لاحد . الموت افضل من الخيانة . ارجو ان تأخذوا بنظر الاعتبار كهولتي ومدالية «البسالة في العمل» . وقد منحت لقب «عضو فرقة العمل الشيوعي» . . .»

«جاء في حكم المحكمة انني منحت اربع مكافآت المانية ، وفي الحقيقة فهي ثلاث فقط . . .»

«حاولت ان لا اكون ملحوظا بين الشرطة .

ان اي حكم مهما كان قاسيا سأعتبره محقا» .

«عندما بدأت اشاعة التعاونيات الفلاحية كنت اول من انتسب الى الكولخوز . وتم انتخابي في الانتخابات الاولى عام ١٩٣٧ . . .»

«لست مذنبا . الحرب هي المذنبة . لو لم تنشب الحرب لما وقعت في الاسر ولما جلست الآن في قفص الاتهام» .

«ولم يسجن احد من آمرينا والعاملين معنا على الجرائم بحق المواطنين السوفييت . فقد ظلوا احرارا حتى عام ١٩٦٨ . شكرا لهيئات التحقيق السوفييتية على يقظتها ، فهي لم تسمح لهم ايضا ان يتهربوا من العدالة السوفييتية» .

«لا احاول ان ادافع عن نفسي لانني كنت طول الوقت اشعر باني دنيء سافل . . . ولكني اريد ان اقول ، نحن الآن لسنا كما كنا قبل ٣٠ عاما ، ولذا يطرح السؤال التالي : على اي اشخاص ستحكمون بالاعدام رميا بالرصاص — على اولئك الذين كانوا قبل ثلاثين عاما ام على الذين عملوا بنزاهة طوال اكثر من ٢٥ عاما لصالح شعبنا كله والذين لديهم الآن ابناء بل واحفاد ؟ !» .

رسالة الى المحكمة من ام سفاح سابق :

«انا عجوز مريضة . وكأم استعطفكم ان تعفوا عن ولدي . يصعب عليّ ان اجد الكلمات المناسبة ، ومع ذلك فان ابني يستحق التسامح . فانا اعرف بانه تائب بصدق»

«في عام ٤١ كنت في الخامسة والثلاثين . خنت وطني والتحقت بالعدو وخدمته بسبب قلة معرفتي وقلة وعيي . وكان سبب الخيانة هو ان الناس يموتون جميعا في معسكر الاعتقال ، فقد كان الوضع سيئا للغاية . بديهي انني الآن لا اعتبر نفسي انسانا . فلماذا اصبحت قاتلا ؟ لم يبق هناك اي مجال آخر ، فما دمت قد التحقت بهم للخدمة كنت مضطرا للقيام بكل ما يرغمونني عليه . . . ولو اقتادوا افراد عائلتي الى الحفرة وامروني ان اطلق النار عليهم لاضطررت طبعا ان افعل»

«بدأت عملية اعادة تربيتي قبل الاعتقال بأمد طويل ، ولذا لا حاجة بي الى هذه المدة الطويلة من الحبس» .

«وارجو ان تأخذوا بنظر الاعتبار ايضا ان زوجتي كانت في الجبهة طول فترة الحرب . . .»

كيف حال الصغير ؟ مرت مفرزة بيلي عبر القرية ، وكان واضحا ان افرادها عرجوا على المنازل . ماذا حدث له ؟ هل هو جالس يداعب الحذاء ؟ بيلي السيبيري هذا متجهم عبوس وكأنه مريض دوما ، مع انه بضخامة الثور ، يصلح للحراثة ! . . هل الطفل نائم ام انه يبكي وينادي ؟ سيبكي حتى يدخل عليه الالمان او البنديريون . . . كلا . كل شيء هادئ . آها . . . انه حي . جالس في مهده يتناغى كما لو كان في دار الحضانة . بكى حتى مل من البكاء ، وهو الآن ينفخ

اللعاب فتخرج من فمه فقاعات . ما اكثر الذباب الذى تجمع عليه . (لمس توبيغا خده ، فقد خيل اليه ان جلده انكمش وان الدموع الناشفة تدغدغه) . اشعة الشمس تنسكب على عينى الصبى مباشرة ، فلم ير الداخل عليه ، لكنه سمع ويكاد ينتحب من جديد . ومد يديه الى الوجه القذر ، فبدأ المهد يهتز . . .

حاول توبيغا الا يحجب اشعة الشمس ، فهو لا يريد للطفل ان يراه . لكن الطفل العارى المكتنز الذى تطارده الشمس والذباب والرعب قد سمع وقع الاقدام وشرع يصرخ حتى تكاد تسمعه اطراف القرية . تراجع توبيغا الى العتبة وكأنه قد ضبط متلبسا بالجريمة . عاند الرشاش واثقل على الرقبة مذكرا صاحبها . لكن المهد يهتز خفيفا ، فشعر توبيغا بمدى فظاعة اطلاق النار عليه من الرشاش . تشبث المسدس باصابعه بخشونة وبرودة والتصق براحته وهز يده فجعلها ترتد على مستوى الوجه ! وارتج المسدس مرة فاخرى كما لو كان حيا . . .

اتجه توبيغا نحو الباب ورأى نفسه فجأة ، رأى جسما ضخما برأس مائل على الكتف بمتطيه الرشاش وبوجه مرتعب ، والمسدس فى يده . . . وخلفه يهتز المهد ، وهو يراه دون ان يلتفت الى الوراء . ويرى سيلا قانيا كاللهب يشخب ، ناثرا الرذاذ على الارضية التى بدت بيضاء فى اشعة الشمس . وضرب ذلك كله بالمسدس (ضربة شديدة اوجعت اصابعه) . وتحطمت المرآة على دفة الدولاب الذى انفتح ، تحطمت برنين ، بينما سمع توبيغا صوته هو يقول : «اشفقت على الطفل ، فقد كان سيحترق حيا» .

بين القريتين الثالثة والرابعة

نيكولاى بيلى ، من مواليد ١٩٢٠ ، روسى من قرية باختشيفكا فى ناحية كراسنويارسكايا بمحافظة كراسنويارسك ، خريج ثانوية صناعة الاخشاب .

ما الذى يريده بيلى آمر المفرزة التى يجرى تحويلها الى سرية جديدة هى السرية «الروسية» ؟ ما الذى يجعله عابسا متجهما كما لو كان مريضا ؟ ما الذى جعله اليوم غاضبا ؟ هـذا مـا لا يعرفـه احد فـى الدنيـا سوى سوروف الذى يحاول ان يسير جنبه ، وهو يسير جنبه طول الوقت تقريبا منذ بداية الحرب . فهما من طينة واحدة . والواحد يعرف عن الآخر كل شىء . كان سوروف فى السابق يجد دفئا وثقة بالنفس فى التقارب الوثيق مع آمر المفرزة الذى يقيم له وزنا حتى آمر السرية الاوكرانى ميلنيتشينكو الذى يكرهه ، ويحترمه صراحة الالمانى سيميرمان . اما الآن فهذا التقارب يخيفه . فقد حدث شىء ما لبيلى ولا يزال . الضرورة تقتضى الحديث معه كالسابق وايضاح الامور وتدقيق الخطط ، لكن عينى بيلى المنفرتين اللتين غدتا صفراوين لسبب ما تبعدانه اكثر ولا تسمحان له بالاقتراب .

ها هما يسيران جنبا الى جنب تقريبا ، لكن العداوة تسير بينهما .

ويلقى بيلى نظرة شزراء على صاحبه الذى يرتدى نظارات ، على «قسه» و«المرشد السياسى» فى مفرزته ، فيتفجر الغيظ فيه كالغثيان بعد سكر شديد . ما اكثر نظافته وتورد وجنتيه ! حصل

على نظارات ذهبية المانية ، فازداد لمعه بسببها وتحسن هندامه . ولم لا ؟ فمن خلف ظهر بيلى وعلى حدبته يمكن للمرء ان يتجمل ويتهندم ما شاء . بيلى شخص يائس ليس لديه ما يأسف عليه ، ولكنه لا يزال يصلح للتمسح به فى آخر الامر . كلا ، يا عزيزى ، سنرى لمن الغلبة ؟ فالمذنب يعرف ذنبه . حالما يتطلع صوبه يلاحظ ان عينيه من وراء النظارات الذهبية تؤكدان بهمة كالسابق ، رغم الزعل ، ان كل شىء يسير كما كان عليه سابقا . انه هنا ، ضميرك الحى معك ، وكل شىء يسير حسب الاصول . كان يسير ويواصل السير حتى وصل . تلك هى الحال ايها الرفيق القس ! حان الوقت لانهاء هذه المعزوفة . لقد اتضح ان قابلياتك محدودة . وقابلياتى ايضا ، فما الداعى للمكابرة . لقد تلطخنا بنجس واحد ، ولا داعى للتظاهر يا قس . حقا ، انه يشبه القس كل الشبه . بعد عام ١٩٣٩ ارسلوا قسا الى مؤسسة صناعة الاخشاب . على كتفيه قمصلة ملوثة ، وعلى انفه نظارات ذهبية كبيرة ، ويقول مع كل خطوة يخطوها : «اعمل معروفا يا سيدى» ، ويهمس ابتهالاته وصلواته طول الوقت .

وهذا ايضا مثل ذاك . كل ما يرتديه الماني ، حتى اللباس الداخلى ، وهو غارق فى النجس حتى اذنيه ، ومع ذلك لا ينسى ما كان عليه فى زمن ما .

ها هو يسير ، هذا الرفيق الداعية ! سنواجه كلانا نفس النهاية يا صاحب السماحة .

لست انا وحدى ، بل انت ايضا .

كان سوروف يتطلع بقلق الى آمر مفرزته وصديقه السابق . كلا ، ليس آمر مفرزة ، بل آمر سرية . فقد اعلن انه آمر

السرية «الروسية» الجديدة التى ستتشكل . تلك هى القضية ، وذاك هو بيت القصيد . يبدو ان آمر السرية الجديدة قرر ان ينتقل نهائيا الى صف الالمان . بينما يتحجج كليا بحادثة النصير الاستطلاعى . ويلقى اللوم على سوروف . كيف لا ؟ فهو المذنب فى اخفاق العملية وفى عدم تمكنهم هذه المرة من الانسحاب الى الغابة . صحيح انهم اخفقوا ، ولكن ما العمل اذا احبطت العملية ؟ وكان النصير الاستطلاعى يثير الأسف والشفقة حقا ، لكنك لم تشفق عليه طويلا ، فقد ولّدت الرتبة الجديدة فى نفسك السلوى . وقد حصلت على الرتبة لقاء هذه العملية بالذات ، لقاء القبض على النصير . لم يكافئوا سوروف بل كافأوا بيلى ، فلا تتطلع اليّ بهذه الصورة .

لقد عزم على ارتقاء سلم المناصب الالمانية لا اكثر ولا اقل ، وواضح انه لم يعد بحاجة الى سوروف . ومن المستبعد ان يشى به ، فهو يخشى انهم سينتزعون من سوروف اكثر من اللازم . سيقدم على فعلة ابسط ، سيرشق ظهره بصلية رشاشة اثناء القتال ، وسيدفنون «الاجنبى قسطنطين فكتوروفيتش سوروف» باطلاقات التكريم الالمانية . وسيبقى ابد الدهر بالنسبة للجميع خائنا وذنبا من اذناب الالمان . ويظل بيلى هو الشخص الوحيد الذى يعرف ان سوروف لم يكن خائنا ولم يكن سفاحا ، فيا لسخرية الاقدار !

تعرف سوروف وبيلى على بعضهما البعض منذ ان كانا فى الجيش ، ولكن الاسر قرب بينهما . كلاهما آمران سابقان ، لكن نائب العريف سوروف فضلا عن ذلك انهى فى ايار (مايو) ١٩٤١ الدورة السياسية فى سمولينسك . وكان الجميع آنذاك يدرسون فى دورات قصيرة ، فالجيش يفتقر

الى القادة العسكريين والسياسيين . وفي ضواحي روغاتشيف وقع الفوج في حصار . وفي الايام الاولى من الاسر اعدم الالمان كل الذين يحملون نجيمات على الردن وكل اليهود امام الصفوف . اما سوروف فلم يحتفظ بالنجيمة ، حيث تركها مع القمصلة في الغابة . لكنه حافظ على معتقداته طبعا . كما حافظ على حياته التي كانت قادرة بعد على ان تعود بالنفع . لم يشِ به احد مع ان الكثيرين يعرفون جيدا بانه مرشد سياسي مستجد للسرية . ذلك يعني انهم استحسنوا تصرفه . فان تلقي رصاصة الاعدام جزافا ليس اكثر القرارات حكمة وصوابا ، مع ان البعض اقدموا على ذلك . فالاكبر سنا من سوروف والذين هم في سنه من الحائزين على رتب مثله ، ارادوا ان يكشفوا عن قوة صمودهم فكشفوا عن جهالتهم السياسية والعسكرية .

وليس من قبيل الصدفة ان بيلي مال اليه في معسكر بوبرويسك . فقد احس برسوخ معتقداته . عندما تتوفر الاغذية لا يعبأ امثال بيلي بشيء . فهم رياضيون مرحون عادة ينضحون طيبة . ولكن هؤلاء بالذات هم اول من يلحق بهم الجوع ويقصم ظهورهم . فالنحلاء وصغار الابدان يتحملون ، اما الذين كانوا كالدببة قبل حين فان نظراتهم تكتسب صبغة البلادة والدهشة والاكتئاب ، ويتسلل الجنون اليهم خلسة . معسكر بوبرويسك قلعة ، ومن يجتازه ويبقى على قيد الحياة ولا يجن لن يدهش لشيء ولن يرتعب . لكن ما لا تقبله النفس ابدا هو نكران الجميل والحماقة البشرية . لا حيلة في الامر . يبدو ان من اللازم تجاوز خيانة الصديق الذى انجدته في وقت الضيق وجعلته يحافظ على الامل . فتلك الفترة عصيبة . . .

الا ان بيلي كان يرى ويتذكر نفس تلك الاحداث ونفس تلك الاشياء بطريقة اخرى .

عندما وافق نيكولاى بيلي على «التطوع» ، تخلصا من المجاعة والرعب البليد ، ليحرس الاشباح المحتضرة المتبقية في المعسكر ، ويرافق العربات والسيارات المحملة بالجثث والذاهبة الى الخنادق لم يهمل سوروف رفيقه في الجيش فكان يمده بالطعام على قدر الامكان . ساعتها بدأ ذلك هناك مع ان صياغته جرت بعد وقت طويل . فلم تكن لدى سوروف طاقة للصياغات والخطط . كان يترنح من اسهال الجوع . اما بيلي نفسه فلم يكن ذلك يخطر على باله . الا ان الموقف قد تحدد وارتسمت خطوطه . فان بيلي غدا عدوا لابناء جلدته ، بينما حافظ سوروف على حياته وكان له الحق والقدرة على ان يوضح لمن يعنيهم الأمر من هو بيلي في الحقيقة وماذا كان يدور في خلده وفي فؤاده عندما اخذ البندقيـــة الالمانية ، لا سيما وانه جازف ومد رفيقه بالطعام على قدر المستطاع وانقذه . كان يستخدم وسائل مختلفة كأن يترك قطعة الخبز والسجق في مكان معين وراء المرحاض او يسقطهما على الرمل ماشيا . ولكن بعـد حريق القلعـــة واطلاق النار على معسكر بوبرويسك نُقل فريق بيلي الى موغيليف . وهناك التقيا من جديد . فقد ظهر سوروف فجأة في ثكنات موغيليف بنفس بزة التطوع التي يرتديها بيلي . ابتسما لبعضهما البعض ابتسامة مريرة ، وما كان لديهم موضوع للحديث . وكان الاسرى يتقاطرون من الشرق وكأن مضخات فظيعة تضخ جمهورا جديدا متجددا على الدوام الى المعسكرات الضخمة فتُملأ الثكنات والاكواخ القديمة والمنخفضات الملفعة بالثلوج

او حتى مجرد قطاعات من الحقول المكسوة بحفر مرعبة والمسيجة بالاسلاك الشائكة . . . فما قيمة هذين الرجلين ؟ وما قيمة مصيرهما واسميهما وبزتيهما ومشاعرهما ؟ ابتسما لبعضهما البعض بمرارة وافترقا . في البداية كانا محسوبين على سرية حراسة بوليسية ، حتى بزتاهما ليستا من البزات الالمانية ، بل عليهما شارات باقة حمراء يقال انها لتوانية . وكانا يحرسان مستودعات الاخشاب عند نهر الدنيبر . ولكن في الربيع وصلت الى موغيليف «الكتيبة الخاصة» بقيادة ديرليفانغير ، وهي على الاصح سرية او اكثر بقليل جاء بها ديرليفانغير من مكان ما في بولونيا . في البداية ضم الى الكتيبة بارتشكه (بارتشيك) وفريقه المكون من الشرطة المحليين . وبعد ذلك شرع بقبول «المتطوعين» دون ان يميز بين الاوكراني والروسي والتتري . كان الآخرون لا يزالون يراعون هذه الفوارق ، اما ديرليفانغير فقد بدا وكأنه لا يهتم بها . تكلموا عن مكافحة الانصار ففرح بيلي ، لان ذلك يستجيب لامانيه واحلامه . كان يريد ان يتصل بالانصار ثم يبيد الالمان «المحسوبين عليه» وينسحب مع الحضيرة الى الغابة . فقد فرح لانهم نصبوه آمرا على حضيرة . وكان قد استدعى سوروف ليعمل معه قبل ذلك ، فناقشا اكثر من مرة خطة استدراج «المتطوعين» للالتحاق بالانصار .

هكذا وجدا نفسيهما عند ديرليفانغير بخطة واحدة لرأسين ، وبهوية واحدة لشخصين . لان سوروف عندما تخلص من قمصلته احتفظ بهوية القيادة وهي مخبأة الآن في طيات البزة الالمانية . لقد خططا لكل شيء كما يجب وبقدر كبير من الذكاء ، وظلا ينتظران الفرصة المناسبة . وكان سوروف يغالي في الترقب والتهديف . لكن هذين الابلهين لم يفكرا بان لدى

ديرليفانغير دهاء مقابل دهائهما وخطة مقابل خطتهما ، وهي خطة ليست اسوأ بأية حال . بيلي يعرف هذه الحقيقة الآن . لقد عرفها .

غرق سوروف في ذكرياته وكأنما استشف افكار آمره وذكرياته الشريرة . وتذكر ايضا ما قاله له بيلي عندما نقلوا الاستطلاعي الجريح الى ثكنات بيتشورسك . ما أكثر ما خططا للالتجاء الى الغابة ولكنهما بدلا من ذلك قبضا على الاستطلاعي : «هيا يا قس ، اين خبأت الهوية ؟ الم تضيعها ؟ الآن يمكنك ان تلقى بها فعلا !» . كيف عثر على هذه الكلمة : قس ! انت بحاجة الى كبش فداء لا اكثر . فان سوروف هو المذنب في كل ما حدث . فهل ارسلتك انا للالتحاق «بالمتطوعين» ؟

اما في البداية فلم تكن الامور على هذه الصورة . كان بينهما تفاهم ، وكانا يفهمان بعضهما البعض ، فمع ان بيلي كان في رتبة آمر الحضيرة ، لكنه ما كان يقود ، اذ كان يأخذ برأي سوروف . ولو لم يفعل ذلك لانتهى من زمان ، فما اكثر الشجعان الذين لاقوا حتفهم وشنقوا لاسباب اوهى من هذه . فالالمان يفعلون ذلك بلمح البصر . كانت الكتيبة تحمل معها مشنقة اينما ذهبت ، وكانوا يسمونها «بالارملة» ، لكنها ارملة لا تعرف الضجر . ففي كل اسبوع يقبضون على احد ما في الكتيبة ، وفيما بعد يخرجونه من السرداب منتفخا ازرق لا تعرف هل هو بتروف ام ايفانوف وكأنهم يزوجون هذه «الارملة» المرعبة نفس الرجل كل مرة . وفي مثل هذه الحال يلتزم المرء جانب الحذر اذا لم يكن احمق واذا كان لا يريد للقضية ان تخفق . حافظ على حياة الوغد ولم يعد راغبا في الالتحاق بالانصار . لمَ الالتحاق بهم اذا كان سيستلم قيادة سرية ؟

لكن سوروف يقف حجر عثرة فى طريقه . وهو يفكر بالكيفية التى يتخلص بها منه . ولذا فهو منفعل جدا ، اما الاستطلاعى فهو مجرد حجة . . .

عجيب ! انظروا الى صاحبى القس ! بوزه الطاهر مزموم مغتاظ . وهو الآن ايضا يعتبر نفسه بريئا منزها . ويظن ان الانصار ايضا سيتطلعون اليه بعيون ملؤها الطيبة . اما انا فقد بذلت جهدى وحاولت فعلا ان لا تقع عليه قطرة ولا يتلطخ هو على الاقل . اعجبه امتطاء ظهر الغير فلا يريد ان ينزل . عندما حان وقت العمل . . . كيف اقول حان ؟ لقد مضى وانقضى من زمان . بعد تلك القنطرة (كاسبلا) . ما اغرب المصادفة : القرية الاولى تسمى باسم يقرب من القطرة . لن اتطهر ابد الدهر من تلك القطرة وحدها ، فكيف مما حدث بعدها ؟ . . ولن ينفعنى لا سوروف ولا غيره ، لن يقشطوا القطرة ولن يعصروها ولن يجففوها . كل شىء بدأ من هناك . فى القرية الاولى ، فوق الحفرة الاولى . وكل ما جاء بعد ذلك هو مجرد تشنج وتضليل للنفس . ديرليفانغير يعرف ما يريد . فانت لست اول شخص عنده من هذا النوع . تحركوا كأنما للقيام بعملية عادية «لمطاردة العصابات الستالينية» . ومن جديد تهامسا ، هو وسوروف ، مثل تلميذين : ألن نتمكن هنا ؟ ألن نوفق ؟ واذا لم تفر الحضيرة كلها الى الانصار فليفرا هما على الاقل . لم يكن ديرليفانغير قد سمع بقرية كاسبلا قبل ان تتوجه السيارات اليها . وبعد ذلك حدثه ميلنيتشينكو ، وهو سكران ، وقال انه هو الذى اطلق النار على الكتيبة مع ثلاثة من امثاله من «الانصار» ونُعتت تلك العملية فى كتيبة ديرليفانغير بدغدغة منخر الثور . فقد كرروها اكثر من

مرة فيما بعد .فاذا لم يكن هناك انصار حقيقيون او ممن يشتبه بهم ترسل الى الامام او الى جهة جانبية جماعة صغيرة تنطلق منها «رصاصات العصابات» . اما فى ذلك اليوم فحتى آمرو الوحدات لم يكونوا على علم بهذه الحيلة . اصطفوا واستداروا حسب الاصول ، كما فى الجبهة ، وشنوا هجوما على «قرية الانصار» المزعومين بتغطية من الهاونات والمدافـــع . واشتعلت الحرائق فى القرية حالا من القذائف والرصاصات الحارقة .

اما ما حدث بعد ذلك فى قرية كاسبلا هذه فهو يخشى ان يتذكره حتى فى الاحلام . كان يستيقظ حالا من شدة الرعب والاكتئاب مهما بلغت كمية العرق التى يتجرعها فى المساء . وقد شارك سوروف هو الآخر (نعم «شارك» ، والا فكيف يسمى ذلك ؟) ولكن ليس بقدر بيلى . ويبدو انه هناك عصر ذهنه فافرز فكرة قيد بها بيلى بكل الكبول وابقاه على هذه الحال ثلاثة شهور وقاده ككلب فى حبل . لم يطلق سوروف النار ولم يقتل احدا ، فقد ظل مع جنود التطويق . وليبق فى هذا الموضع ، فلا بد ان يظل احد ما طاهرا مهما كلف الثمن ، لاسيما وان الهوية مخبأة فى طيات بزته . . . وهو يستطيع ان يبيض صفحة صديقه امام الانصار . فيوضح لهم ميوله ويشرح كل الملابسات . وهذا يتطلب فى اقل تقدير الحفاظ على سمعته من التلوث . ولذا يجب ان لا يتلطخ ولو بقطرة واحدة . قديس فى المبغى . كيف اوهمه الى هذا الحد ؟ كانا يتوقعان مسح الدماء بمنديل جيب . لكن ثقة سوروف كان لها تأثيرها . ثم ان الموافقة نهائيا على عدم وجود مخرج وعلى استحالة العثور على مخرج شىء مرعب . كان

سوروف يختلى ببيلى فى مكان ما فى الحقل او فى ركن مظلم ويتحدث معه كما يتحدث مع فتاة ، حتى انه سمح له بان يلمس الهوية المخبأة فى طيات البزة . . . وشعر برغبة فى ان يلطم نفسه . اما ذاك فقد صدق فعلا بان لكل منهما مصيره : احدهما غارق فى الدماء حتى الاذنين والآخر رابض على كتفيه ، متربع على ظهره ، ينتظر الفرج ، تارة يصرح بانه مريض ، وتارة يرسله الى المطبخ ، او يرسله مع قوات التطويق حتى لا يريق دماء الابرياء ، وحتى يحافظ عليه نظيفا الى ان يحل اليوم الحاسم . وعندما حل ذلك اليوم ما اراد ان ينزل من على ظهره . فلماذا ينزل ؟ انه مستعد للجلوس متربعا حتى نهاية الحرب . فليس معروفا كيف سيستقبلونه فى غابة الانصار وهل يقيمون وزنا للهوية التى خبأها ، وهل يصدقون بانه ظل نظيفا هناك ، فى جحيم الخطايا ؟ ولعلهم لا يتسامحون معه بسبب الهوية بالذات ، فيقولون انه جلب العار على نفسه ولوث سمعته . لا تنظر بهذه الصورة ، فانا اعرف كل افكارك التافهة مسبقا . انتظر ، وسآخذ بثأرى منك . طيب ، اذا اخفقنا فذلك ما نستحقه . ولكن لماذا اهلكنا الشاب ؟ انه شاب رائع صدق بنا نحن الانذال وأراد ان ينقذنا ، لكننا سلمناه الى الالمان . سلمناه ككبش مقيد . اما الآن فسنبدأ من جديد ، نتهامس كيف نهرب بدهاء وكيف سيستقبلوننا ، وكيف سنوضح لهم كل شيء . . .

وفى الحقيقة فقد كانت هناك فرصة ، سنحت فرصة ! فقد اثار اليتيم هرجا ومرجا . جاء الى بيلى راكضا ، فهو اول من صادفه اليتيم ، وقال لاهثا ، يشرق بالافتخار والحماس ، ان فتاة من القرية اسمها كاتيا وشت اليه بالانصار . الفتاة التى

تردد عليها اليتيم عدة مرات وادعى بانها «متعلقة به جدا» (اشفقت على هذا الوغد الذى تربى فى دار الايتام وصدقت بدموعه الوسخة) قد افلت لسانها وقالت ان عمها يمكن ان يوصلهم الى الانصار فى الغابة . ويمكن ان يوصل الشبان اذا كانوا طيبين . وعندما كان اليتيم يتزلف اليها عرض عليها بالطبع معاناته وآلام الخدمة عند العدو . وما كان هذا الاحمق يفهم بانهم سيشنقونه مع فتاته كاتيا ومع ذاك النصير . فقد كان يتردد على قرية الانصار سرا بدون علم الالمان والرؤساء ، ولا احد يعرف نواياه . «فالارملة» ستلاطفه كما ينبغى ، اكثر ملاطفة من كاتيا .

اوضح بيلى هذه الحقيقة لليتيم ، فاستولى عليه الجبن وارتعدت فرائصه . وكان بالامكان التحكم بكل شيء ، لكنه امره بان يلتزم بالصمت التام . وكان يمكن العمل فورا . اقتاد سوروف الى ازقة موغيليف واوضح له بان فرصة سعيدة سنحت ، وربما هى آخر فرصة . احضر كل من تثق بهم ومن اجتذبتهم بالدعاية ومن تظن به خيرا . فقد ذكرت ثلاثة اشخاص ذات مرة ، ثم خمسة . وهذا العدد كاف اذا كانوا من الشباب المخلصين . ويمكننا بمعونتهم ان نقوض المفرزة كلها اذا عملنا بحزم . ففى هذه الحالة من المهم ان يظنوا بان عددنا كبير . فهنا حقل غريب وغابة ، والالمان بعيدون ، وسيظن كل شخص بانه وحده ظل على انفراد ، فى حين صمم الباقون وتواطأوا من زمان . اما الالمان فلن يشكلوا حجر عثرة . سنبدأ بهم . سنوزع رجالنا المخلصين بشكل يمكننا من القضاء على كل الالمان رأسا .

استمع اليه سوروف ثم تورد وجهه كفتاة واعترف بان ما

قاله عن الخمسة المخلصين ليس دقيقا تماما . فهو مرتاب اذن . تكلم مع احدهم ، ثم مع آخر ، ولكن كل ذلك بالتلميح دون التصريح ، ولم ينطق بالكلمة النهائية . لان فى ذلك مجازفة ، وهو ليس بحاجة الى المجازفة . فليس هناك حاليا ما يؤذيه .

وفى الحال انهال بالشتائم على كل الذين كان بيلى يريد الاعتماد عليهم ونعتهم بالكلاب المسعورة والخونة الملطخين بالدماء . كان بيلى نفسه يعرف انهم كلاب وخونة ملطخون بالدماء . فمن نحن اذن ؟ ! ولكن اعطنى احدا ما ، اعطنى شخصين او ثلاثة لاتشبث بمساعدتهم ، وبعد ذلك سارغمهم بنفسى . ولن يلاحظ هؤلاء الاوغاد ولن يفهموا كيف ومتى سيفعلون كل ما يلزم . . .

لكنهما اضطرا للعودة الى ارض الواقع . فما الداعى للكلام عن رجال سوروف الثلاثة او الخمسة اذا كان الداعية نفسه بحاجة الى دعاية . فما أكثر الحجج الدامغة المضادة التى لديه ، وما مدى ثقته بان فرصة افضل ستحين ، وان تلك الفرصة تقترب قادمة . يا له من ثرثار لعين . انه حذر يحافظ على نفسه كما يحافظ المقاتل على الراية . كل ما يفعله هو ان يتمشى ممسكا بساعد بيلى فى الازقة ويقص عليه حكايات تبعث السرور ويسمح له احيانا بان يلمس الهوية المخبأة فى طيات بزته ، كيلا تضعف معنويات بيلى ولا يسقط من الصنارة . فما الذى يحتاجه اكثر من الجلوس على ظهره بارتياح دون ان يبتل ؟ الدماء لا تبقبق تحت قدميه والرذاذ لا يطاله من فوق . . .

كلا ، لم يتسن له ان يتملص هذه المرة . ادرك سوروف

ان آمر المفرزة لن يتراجع ولم يعد قادرا على التحمل . فمع ذلك اختاروا خمسة اشخاص ممن ذكر سوروف اسماءهم مترددا ، بشرط ان يكرر الكلام مع كل منهم على انفراد دون الكشف عن اى شىء على وجه التحديد . وكان الاكثر امانا بالطبع لو انهما فرا لوحدهما ، بدون اية محاولة لاقتياد المفرزة او تدميرها . وكان سوروف يميل الى ذلك : اذا لم يعـد بالامكان الانتظار اكثر . كان الوغد يعرف ان بيلى لن يقدم على ذلك . فبم يجىء الى الانصار ؟ هل يأتى اليهم ويداه مخضبتان بالدماء ويظل ينتظر حتى يدافع عنه ويبرئ ساحته قس تافه يرتدى نظارات ذهبية ويجب ان يصفى الحساب معه هو ايضا . اما المفرزة والاسلحة والالمان القتلى فذلك شىء آخر له وزنه فى ميزان الانصار .

كان سوروف يتعذب ويجهد فى التوضيح بانه لا يثق بالنجاح وبان تلك مغامرة لا يتحمل هو مسؤولية نتائجها . اما بيلى فقد سار لا يلوى على شىء ، كان يغامر بآخر ما عنده . وعلى العموم ستتضح الامور فى مكانها بمزيد من الجلاء . «كفاية يا شباب ، كفانا خوضا فى دماء الغير . حان الوقت لندفع الثمن بدمائنا» .

ولكن اتضح ان الالمانى سيميرمان يعرف بمغامرات اليتيم فى القرية . ومن حسن الحظ انه عرف بها قبل ميلنيتشينكو وقبل ديرليفانغير . استدعى نائبه الروسى وساعده الايمن بيلى وقال : «ماذا ؟ هل نداهم الدب ؟» . وما كان هناك مجال للتراجع . وبقى امل واحد بالاستفادة من الطموحات النابليونية لدى سيميرمان القصير القامة . وبالفعل اخذ سيميرمان كل شىء على عاتقه ووعد القيادة الالمانية بان مفرزة واحدة تكفيه .

8-304

وجرى كل شيء بالشكل الذى اوحى به اليه بيلى بصورة غير ملحوظة . فان آمر المفرزة المتعلم سيميرمان الذى يرتدى نظارات وكان معلما فيما سبق يثق بساعده الايمن الروسى لدرجة كافية ، بل ويحترمه ، ربما لطول القامة الذى يفتقر اليه . وهو يحترمه بخاصة عندما يكون سكران . وفى هذه الحالة تراه يثرثر عادة (اما لغته الروسية فهى من مخلفات العائلة لان اسلافه نزحوا من منطقة البلطيق) . «انت شاب طيب يا بيلى ، فمع الاسف انك لست المانيا» . وفى المساء الاخير قبل العملية كان صريحا جدا ، فقد سأل بيلى على المكشوف : «والاطفال ؟ لماذا يقتلون ؟» . وقبل ذلك كان سيميرمان يتكلم باكتئاب ممل ويقول ان الناس يعيشون فى بؤس وجهالة فى هذه الارض الطيبة الغنية . «ستبنى هنا جنة . هذا ما قاله الفوهرر ، عندما رأى القرى بدون طرق ورأى فيها عددا كبيرا من الاطفال ، وكلهم ، يا سلام ، باسنان سليمة بيضاء» — «هل جاء الفوهرر الى بيلوروسيا ؟» — «اى بيلوروسيا ؟ انا اتحدث عن اوكرانيا . انت لست اوكرانيا ويمكننى ان اتكلم معك بصراحة . الاوكرانيون يثيرون قلقنا اكثر من غيرهم . فهم كثيرون جدا ، واراضيهم افضل الاراضى فى اوربا . فليرتحلوا الى الرايخ ، وسنحل محلهم . . .» . وقهقه سيميرمان متصورا هذه «التقلبات المتقابلة» . وكانت نظارته التى تشبه نظارة هملر ترتج من فرط الانشراح . «ولكننا عندما نسكن اوكرانيا ستعيقنا عيون الجيران المتطفلين المفتحة دائما وابدا» .

ثم انتبه على نفسه وتذكر ان بيلى ليس المانيا ، وهو من هؤلاء «الجيران» . فاضاف قائلا : «فلننس يا نيكولاى من منا المانى ومن روسى . ولنفترض باننا بالذات اولئك السعداء

الذين سيعيشون فيما بعد . بعد كل الدماء والقساوات . فاليوم مثلا ، هل يعنينا شيء من شؤون الشعوب والقبائل القديمة التى عاشت ثم انقرضت ؟ وقد كنستها ، ولا بد ، مكانس من حديد وليس من الريش . فهل فقدنا شهيتنا او رغبتنا فى النوم بسبب ذلك ؟ اننا نستخدم نظرياتها ونحسب باعدادها لكننا نسينا التفكير فيها . ولم يبق من اهالى سيباريس الا قعادة يقال انها الاختراع الوحيد العائد لهم . شعب كامل لم يخلف غير قعادة للبول . فهل يقلل ذلك من سعادتنا ؟ وستكون تلك حال احفادنا ايضا ، فهم لن يلاحظوا بان رفاتا ورمادا تحت اقدامهم . يتحدثون عن الاطفال ويقولون ربما من الافضل ان نعيد تربيتهم . لا يمكن استبدال الدم باعادة التربية . الدم لا بد ان يراق . والافضل ان يراق كله دفعة واحدة — فالألم فى هذه الحالة اهون . ولن تبقى حاجة لاراقته مرة ثانية وثالثة . من المؤسف يا نيكولاى انك لم تستطع ان تقرأ شبينجلر . فهو فيلسوفنا الذى كان قبل الفوهرر . لو قرأته لما كنت بحاجة لتوضيح عبء الشعوب الفاوستية . لقد تحمل الانجليز ذلك العبء وجربوه ، لكنهم شعب عملى جدا وجشع جدا ومحب للمتاجرة . كانت المثالية تعوزهم . وهم لا يجيدون التفكير المتسامى . نعم ، يجب على شعب ما ان يقوم بهذا العمل من جديد فيرتب شؤون العالم بصورة نهائية والى الأبد قبل ان تلتهمه «المدينة العالمية» المحتضرة كالسفلس . يجب ان نعيد الفتوة الى العالم الذى افسده البلوتوقراطيون اليهود والاشتراكية البلشفية . وليس هناك سوى الشعوب الفاوستية من هو اهل لهذه الدماء . والشعب الجرمانى فقط على وجه التحديد . لقد القوا بعبء العمل على اكتافنا ، ونحن الآن

٨*

نتحمل لعنات العالم كله . فما أكثر المثالية التى تحتاجها كى نحمل عبئنا ولا نصغى الى العويل . واذا وزنا الامور بواقعية فهل نفعل ذلك من اجلنا وحدنا ؟ حتى الفوهرر ليس خالدا . فلن يجنى هو ولن نجنى نحن ثمار الحياة الجديدة فى آلاف السنين . وما الفرق اذا كان الالمان او غير الالمان ؟ الناس سيعيشون . فاذا كان هناك شعب واحد وعرق واحد سيكون الجميع مجرد ناس . ولكن اى ناس هم ؟ واية حياة ؟ لست واثقا من اننى سأتفلسف على هذه الصورة لو كنت محلك . كلا ، لست احمق لاصدق بانكم انتم الاجانب تقاتلون من اجل فكرتنا . ولكن اذا كنتم لا تفهمون بالفؤاد فبالعقل على الاقل . انت ، مثلا ، يا نيكولاى ، كان بوسعك ان تلاحظ باننى لا احمل حقدا على الاهالى هنا . فهل انا مثل الكثيرين من ابناء جلدتى ؟ لماذا ؟ لانه لا داعى للحقد على الرماد الذى سيبزغ عليه نبات الغد . يجب ان ننظر الى النـاس عندكم نظرتنا الى المساهمين النافعين فى القضية المشتركة . نعم ، فهذه القضية اسمى من حياتهم ، بل واسمى من حياتنا . لكل ما له ، ولكن الجميع مشغولون بعمل تاريخى ، حتى تلك المرأة ، حتى الطفل : البعض يطهرون الحقـل ويقتلون ، نعم ، تلك حقيقة ، والبعض الآخر يحترقـون ويموتون ، ولكن كل شىء يجرى لنقطع دابر المسألة من الاساس . واذا كنت اغضب على احد ، فانا اغضب على الاسلاف — اسلافكم او اسلافنا ، لا فرق — الذين القوا على كاهلنا قسما من عملهم . وكيلا يقال مثل هذا الكلام عنا فيما بعد يجب ان نؤدى عملنا بنزاهة . ولهذا الغرض منحنا رهافة حس متناهية للشعور بالغريزة العنصرية . وفيما بعد يمكن

ان تتبخر هذه الغريزة . يجب علينا ان نؤدى واجبنا حتى النهاية بدلا من الاجداد والاحفاد — فهذا ما قدّر لنا ، كيلا يضطر احد لاراقة الدماء من جديد ، وكيلا يسلط العذاب على احد من جديد . وذلك كله لانك انت نيكولاى ، او انا سيميرمان ، اشفقنا على طفل . . . على طفل واحد . انت اشفقت على طفل واحد وانا اشفقت على طفل واحد . . .

على هذه الصورة كان سيميرمان يتكلم . وفيما بعد ، عندما تبدأ الصحوة بالعودة اليه مع انه يشرب أكثر ، كان يغوص فجأة فى غيظ مضجر ثقيل كالفجر المشوب بالصداع . كان يتذكر كل اقاربه ويثبت صلة القربى البلطيقية مع ألفريد روزنبيرغ ، ثم ينهال بالشتائم على اقاربه وعلى روزنبيرغ ، ومعهم كل الذين اغاظوه فى زمن ما . وكان عدد اولئك كبيرا ، لان كل الذين اغاظوا سيميرمان هم اعداء لالمانيا العظمى . واعداء المانيا الكثيرون يسددون الضربات كذلك الى قلب المعلم سيميرمان . ويبدو كأن الجميع فى المعمورة ليس لديهم شغل شاغل سوى اغاظة سيميرمان والمانيا اغاظة لا تغتفر ! . .

من افادة رولف بورهارد مدير القومندانية الالمانية لمدينة بوبرويسك فى المحكمة

سؤال : شاركت فى حرق قرية كوزوليتشى . هل كان ذلك برغبة شخصية منك ؟

جواب : نعم .

سؤال : انت حاصل على التعليم العالى الحقوقى . ما رأيك فى حرق ٣٠٠ من الاهالى العزل الذين لا جريرة لهم اطلاقا ؟ يستنتج من افادتك انك شاركت فى حرق ٣٠٠ شخص

احياء مقابل قطعتين من الشحم و٤ او ٥ قطع من لحم الخنزير وبطة واحدة !.

جواب : نعم ، هذا ما حدث بالفعل ، وهو فظيع . لم اتحدث عنه في السابق مطلقا ، ولم اذكر الحقيقة كاملة الا اثناء التحقيق .

سؤال : هل تعتبر نفسك متعلما من الناحية السياسية ؟

جواب : كنت ولا ازال اعتبر نفسي متعلما .

سؤال : متى صرت تفهم بان الفاشي انسان مجلل بالعار ؟

جواب : عملية الادراك هذه جرت ببطء . وبدأت عندما كنت في بوبرويسك . واشتدت خصوصا اثناء الاسر . وارى الآن انني ربما تخلصت من الايديولوجية الفاشية ، ولكن لا تزال هناك بقايا ، ربما اتخلص منها نهائيا في غضون ستة اشهر (قهقهة في القاعة)» .

كانت هناك خطتان ، خطة بيلي وخطة سيميرمان . لكن بيلي يعرف كيف وماذا يخطط سيميرمان ، اما هذا الاخير فلا يعرف شيئا عن نوايا بيلي وسوروف الخفية . ونصح سوروف بارسال اليتيم وحده في لقاء تمهيدي مع استطلاعي الانصار . وافق بيلي واقنع سيميرمان بذلك . لكنه ادرك فيما بعد ، بعد كل ما حدث ، انه تصرف ببلاهة عندما وافق على رأي سوروف وعندما اقنع الالماني به . وكان سوروف ، على ما يبدو ، يتوقع ان يقع اليتيم في كمين للانصار فيقتادوه كالكبش الى الغابة وتنتهي الامور عند هذا الحد . وكان بيلي الاحمق يداري فكرة سوروف هذه ، بدلا من ان يذهب بنفسه الى ذلك اللقاء . فهناك كان بوسعه ان يجد الوسيلة والامكانية للتفاهم

مع الانصار وجها لوجه ويرغمهم على تصديقه ويدبر كمينا محكما لسيميرمان . ربما ما كانوا سيصدقونه ، ولكن ما كان سيحدث لن يكون اسوأ مما حدث . جاء اليتيم وحده مرتعد الفرائص فرحا . عاد قبيل المساء كالبطل . تحدث بحماس ، وهو يشرق بريقه ولعابه ، عن الكيفية التي خدعهم بها . كم شرب من العرق المنزلي عند كاتيا . وكيف طرق قدحه مع قدح النصير وشربا «نخب النجاح» ، وكيف كذب عليهم وقال ان ثمانية اشخاص ، ثمانية من «المتطوعين» يتحرقون شوقا الى «التكفير عن ذنوبهم امام السلطة السوفييتية والشعب» ، وانه هو ، اكثر من الجميع ، يحقد على «العدو» الذي انتزع منه «طفولته السعيدة التي اكتسبها في دار الايتام» . وكان اصعب شيء عليه هو تذليل ارتياب صاحبة البيت ، ام كاتيا . فقد ارعبتها البزة وعليها شارة الاس اس بالجمجمة والعظمين . وحتى هذه المرأة استطاع ان يكسب عطفها في آخر الامر عندما ركز على تيتمه وتربيته في دار الايتام .

كان عطف هاتين المرأتين قد كلفهما غاليا . وكذلك سرعة تصديق الاستطلاعي . لقد كانوا بشرا وصدقــوا بانهم يتعاملون مع بشر مثلهم . لن تتبرأ ساحتكم ابد الآبدين بسبب هذا المنزل وحده ، بسبب هذه العائلة ! كيف نحاسب اليتيم وسيميرمان . الاول لم يصبح انسانا بعد ، والثاني خلع جلده البشري . اما انت وسوروف فتعرفان كل شيء وتفهمان كل شيء . فعلى اية فعلة اقدمتما ؟ !

توجهت مفرزة كاملة للقبض على «الشقي مع خليلة اليتيم» ، توجهت مفرزة كاملة تحوطا للطوارئ . كانوا يتوقعون — سيميرمان بخوف وبيلي بأمل — ان الاستطلاعي سيحتاط للامر



ايضا ويجهز مفرزة للتغطية . فهو ليس احمق ليصدق باليتيم ، اذ ان كل ما في نفسه مكتوب على بوزه . استدعى سيميرمان بتوصية من بيلي كل الذين تشكلت منهم «المجموعة الضاربة» . وضمت المجموعة ثمانية اشخاص ، ودخل فيها «رجـــال سوروف» . وكان عليهم بموجب مخطط سيميرمان ان يقبضوا على الاستطلاعي ، بينما كان عليهم بموجب مخطط بيلي وسوروف ان يفروا معه الى الغابة . ومن حسن الحظ ان بيلي اقنع سيميرمان بان لا يأتي قبل الموعد المحدد بزمن طويل وان لا يقيم كمينا ، فسوف يلاحظونه من كل بد ولن يأتي احد للقاء . وظلت المفرزة على التلة وانبطح افرادها وراء الرشاشات . اما «الثمانية» فقد تقدموا ، عبر الخضرة المبكرة ، الى المنزل على المكشوف كي يراهم الاستطلاعي ويعدهم واحدا واحدا ويقتنع بان ما يجري هو ما تم الاتفاق عليه . ساروا في الحقل زهاء عشرين دقيقة ، ومضت اللحظات الاخيرة كالدماء من العروق الممزقة ، وقال بيلي «ماذا لو كان يتربص بنا هناك رجال الجسر الاحدب ؟ !» . وتذكر اسما او اسمين من الفارين الذين شيعتهم الكتيبة باللعنات . قام بالمحاولة الاولى ، حتى ان اليتيم اطلق صفيرا لان ذلك بدا له امرا مسليا . اما «رجال سوروف» الخمسة فقد اخذوا ينصتون ويتطلعون بحذر وبلاهة دون ان يفهموا شيئا . وصاح بيلي بصوت يشبه صوت زاغايداكا آمر الحضيرة الهارب : «يا شباب ، طال انتظارنا هنا ، حان الوقت من زمان ، هيا قبل ان يفوت الاوان» . وتطلعوا اليه بخوف : ماذا به ؟ ما هذه النكتة ؟ وتكلم واحد منهم ، وتلاه ثان وثالث ، وتكلم كل «رجال سوروف» : «جفف الشقاة جلده من زمان ليعملوا منه طبلا .


P

مع الاسف ، والا سنعملها الآن !» — «حقراء ، ارادوا ان يلتحقوا بالكولخوز» — «سنحرق خليلتك كاتيا ايها اليتيم . . .» . كل شيء واضح . انهم «اجانب» ميئوس منهم ، كما ينعت الالمان كل الاهالي المحليين الذين يخدمون في الكتيبة . استدر واطلق الرشاشة ، وستمس بطرف صليتك سوروف ، فالى حيث القت رحلها . . . لكنه بدلا من ذلك تطلع الى سوروف ، فبادله ذاك بنظرة بريئة : «الا ترى ؟ الم اقل بانهم كلاب وخونة ملطخون بالدماء ؟» .

وما حدث بعد ذلك كأنما حدث لشخص آخر غير بيلي ، خلافا حتى لخطة آمر الكتيبة . حدث ذلك كأنما بارادة اليتيم العفن وبايحاء منه . فان ارادة بيلي وعزيمته تبخرتا رأسا وذابتا في فراغ لزج ، في لاابالية حاقدة تجاه نفسه وتجاه مصيره . فما الذي يقرره هو اذا كانت الحياة قد قررت كل شيء من زمان بدلا عنه ؟ . . فليكن ما يكون ، وليحدث ما يحدث . وسيتم كل شيء هناك . لقد صادفته مثل هذه الحالة . لكنها انهالت عليه بهذه القوة المهينة الحمقاء هنا بالذات ، في اللحظة الحاسمة ، وربما انهالت عليه لان اللحظة حاسمة جدا ، مثلما صادفته على حافة الحفرة في كاسبلا : هل يطلق النار ام لا ؟ على من يطلق النار ؟ على نفسه ؟ على ديرليفانغير ؟ على قفا الصبي العاري الذي قرفص كالضفدعة مرتعد الفرائص وهو ينتحب ويستعطف : «هيا يا عم ، اسرع ، اسرع ! . .» . واخذت المسدس الذي امتدت به يد «اجنبي» آخر وكان لا يزال مبللا بعرقها ، وخطوت خطوة فخطوة اخرى صوب الحفرة على قدمين غضروفيتين هشتين وكأن الموت يتربص بك هناك ، وسرت مصعوقا نحوهم ، نحو العرايا . اما



الباقون فكلهم يرتدون الثياب مثلك وهم ينتظرون دورهم ايضا مثل العرايا ، ولكن دور القتلة وليس دور الموتى . وكان عليك ان تختار بنفسك هدفا بشريا من الجالسين على شفا الحفرة وتطلق عليه النار . تلك هى القاعدة بالنسبة للعاملين الجدد عند ديرليفانغير . وهو واقف هناك على مقربة منك يرى كم «هدفا» اخترت وكم «استخدمت» . انت ملزم بان تقتل اثنين ، وما فوق ذلك يعود اليك . فبقدر ما تختار تكون قيمتك فى انظار الالمان . ويجرى تقدير ذلك فى الحال بالسجائر . فانت تسلم المسدس الى «اجنبى» آخر وتستلم سجارتين . «لم ترغب يا روسى فى المزيد ، فانت احمق . انظر وتعلم» . وتنطلق ضحكة مبتورة بين الذين فرغوا من اطلاق النار . انهم واقفون يصدقون ولا يصدقون بما فعلوا هم وبما صاروا اليه . «اسرع يا عم ! ..» . على من تطلق النار ؟ على من ؟ كل شىء يصرخ فى داخلك . وتنتابك لاابالية حاقدة ازاء كل شىء على وجه البسيطة ، وكأن ما يجب ان يحدث قد حدث ، وكأنك قد اطلقت النار على الالمانى . نعم ، على ديرليفانغير ، ثم على نفسك . وان شخصا آخر اطلق بيدك فجأة على قفا الطفل ، على فقراته القائمة الناتئة المرتعشة . ولم يعد هناك شىء آخر ، لا شىء على الاطلاق ! ..

كان النصير واقفا ينتظر فى الباحة . ما كان بيلى يريد ان يصدق عينيه ، لكن تلك هى الحقيقة . فشعر بيلى بفظاعة الامر ، شعر بها على نحو باهت . ولجوا البوابة العريضة المفتوحة على مصراعيها ، لكنهم متحاشكون كالذئاب يتراحمون بسبب الخوف . وكان اليتيم هو الوحيد الذى يبتسم بفم كافواه الضفادع ويكشف عن لثته الوردية . فهو من اهل البيت ،

ولديه هنا خطيبة واصدقاء ! كانت نظرات النصير رصينة جادة ، وهادئة . وعند البئر ربط حصان مسرج ، وهو جواد ابيض جميل . والاستطلاعى يرتدى سترة صفراء باهتة خيطت بصورة رديئة على طريقة الارياف . وربما خيطت من بطانية المانية . الا ان الحزام من احزمة القادة عليه نجمة وسيور . وعلى الكتف رشاش ديغتياريف القصير كالذى استلمه بيلى عندما توجه الى الجبهة الفنلندية ولم يصلها لان الحرب هناك وضعت اوزارها . ومن السير فى اعلى الصدر تتدلى رمانة ف — ١ مضلعة رهيبة كالقنبلة (وهى الوسيلة الوحيدة للتحوط للطوارئ) . تطلع بيلى الى النصير كما لم يتطلع الى اى انسان قبله مطلقا . تطلع الى وجهه القروى الخجول والبسيط لدرجة تفوق التصور .

ها هو الانسان الذى لم يرتعب فى عام ١٩٤١ عندما اصاب الدمار كل شىء ، بينما كنت انت مجرد حبة رمل ، انسحبت الجيوش ووقعت فى الاسر ، فما قيمتك وما قيمة جماعة من امثالك امام قوة لا حصر لها ولا عد انهالت على الجميع وعلى كل شىء ؟ اما هؤلاء الشباب والكهول المطوقون ، بل وحتى التلاميذ فقد عثروا فى الغابات على بنادق وقنابل يدوية ، وصاروا يجوبون اراضيهم باطمئنان كما يجوب الانسان ارضه . المنازل والجدران تساعدهم مع انها تحترق . . .

يا ليتنى افتح النار هنا بصلية على «رجالنا» ! آنذاك فى كاسيلا كان الصبى يستعطفنى ويقول : «اسرع يا عم ! ..» . فاطلقت النار عليه . ولكن من اصبت ؟ كان فى هذه الدنيا شخص اسمه نيكولاى بيلى ، ولم يعد على قيـــــد الوجود .

تطلعت عينا النصير فى القتلة المسرعين نحوه . لم تكن

فى تلك النظرة ثقة او ترحاب ، كانت مفعمة بالهدوء وبعدم فهم فظيع . كان فى هذا الفتى القروى المدجج بالسلاح شىء بسيط ساذج جدا ومنسى تماما من عهد التلمذة ، وكان ذلك الشىء يتجلى فى وجهه وعينيه . كانت تلوح على وجهه سخرية مشجعة بل وارتباك لان «المتطوعين» يخجلون طبعا من التطلع فى عينيه ، فاى وغد لا يخجل من دناءته ؟ كانت الابتسامة الساذجة تقول : «هكذا حدث يا اخوان وجئتم الىّ فصرت انا ، على ما يبدو ، منقذكم !» . فى حين كانت الذئاب تنقل قوائمها قربه وامامه وكأنها مرتبكة ايضا . فقد سمح لهم بالاقتراب منه بمنتهى البساطة فاقتربوا منه بسهولة . ويصادف عند الذئاب ايضا ان تصطك انيابها وتنـد اشداقها فجأة عندما تعثر على غنيمة يسيرة قريبة بشكل غير متوقع فيسيل لعابها بنهم شديد . ها هو يسلم على قاتليه . (كان اليتيم اول من هرع اليه وكاد يقبله) . وشد النصير على يدك انت ايضا ، على يد يهوذا الاول . كلا ، فهذا غير مريح له وليس لكم . ليس مريحا ان يشد على ايديكم الواحد بعد الآخر وانتم ثمانية . وانزوى اليتيم خلف ظهره وراح يعطى اشارات مرتعبة . ما ابشع وجه الانسان فى مثل هذه الحالة . وقال النصير : «طيب ، فلنذهب» وخطا صوب الحصـــان المسرج . وتحرك الاوغاد وساروا فى اثره ، وتخلف اثنان منهم كأنما يريدان القيام بعمل ما ويتخذان قرارا بكيفية القيام به . نعم ، لم تعودا موجودين فى هذه الدنيا من زمان بصفـــة شخصين قادرين على اتخاذ قرار . فانتما «اجنبيان» لا تختلفان عن سائر «الاجانب» من امثالكما . واسرعوا متزاحمين متدافعين بنهم وجشع وراء منقذهم . اما هو فقد انحنى على عجل

واغترف ماء براحته من دلو قاتم معلق بصنارة ومتدل على البئر ، وقذف بالماء فى فمه وكأنه يتوقع عطشا مميتـــا . التفت الى المنزل ، الى النوافذ ، ورأى وجهين انثويين ابيضين قلقين . . . الحصان من افراس خيالة الجيش ، واليه توجه سرب الذئاب الكواسر وهى تلاحق منقذها ومخلصها : فى الامام سار اليتيم ، وخلف الجميع سار يهوذا الاول ويهوذا الثانى ، نعم انا وانت يا عزيزى القس ! عدل النصير وضعية الركاب ومسد ظهر الحصان المرتعش بيده وكأنما يريد ابعاد ساعة الهلاك ، فى حين تقدم اليتيم ، وتقدم الجميع خلفه . واطلق اليتيم سخافات وهذرا وراح يقهقه : «انهم شبـــاب ممتازون ، متمرسون . . . سيكفرون عن ذنوبهم ، فهم يجيدون القتال . . . ولن تأسف . . . .» . دس النصير رجله فى الركاب ومال الى الخلف قليلا ليمتطى ظهر الحصان ، وفى تلك اللحظة هجموا عليه وسحبوه من كتفيه الى تحت . مد يده الى القنبلة اليدوية المعلقة على صدره — كما لو كانت حلقة فتح المظلة — وكاد يبلغها ، لكنه تلقى ضربة فظيعة على الرأس ، رموه على ظهره وارتموا عليه وامسكوا ، مرتعبين ، بيديه اللتين كانتا لا تزال تقاومان ، وامسكوا برجليه ، كلهم ، «رجال سوروف» الخمسة . اما اليتيم فقد تشبث بالحصان ، فهو غنيمته . الا ان النصير تمكن على نحو غير مفهوم من ان ينقلب على بطنه ، على مرفقيه وركبتيه واخذ ينهض ببطء منفصلا عن الارض . لم يلاحظ اولئك الذين انهالوا عليه لاهثين شاتمين ان الشاب كان يمد فمه الملتوى ليمســـك بحلقة القنبلة اليدوية باسنانه ويكاد يبلغها . وهذا بالذات ما يراه بيلى اليوم ايضا . كم مرة رأى بيلى تعطش البشر الى الخلاص

من الموت الداهم ، وكم مرة تحسس ذلك التعطش بنفسه ؟ لكنه لم ير ابدا مثل هذه المحاولة لمواجهة الموت ، موت الانسان وموت اعدائه ، ولم ير مثل هذا الوجه المنتحب الذى ينشد الهلاك . وفى تلك الاثناء دوت اطلاقة . كلا ، لم يطلق بيلى النار ولا سوروف على الاوغاد . فقد لمح اليتيم الخطر الذى يتهدد الجميع بانفجار القنبلة اليدوية ونثر الاشلاء ، فدس ماسورة بندقيته بين الاجساد المتصارعة واطلق النار .

جفلوا مبتعدين ، ورفع احدهم يده من شدة الخوف وكاد يلطم اليتيم «احمق ، كان يمكن ان تقتل احدا منا ! . .» .

وبعد ذلك كان النصير بكتفه الممزقة يهتز فى العربة ، ومن بعيد اجهزت النار على الحوش ، وكان السفاحون يمرحون «مشفقين» على اليتيم : فالمنزل «منزله» على اية حال ، والعمة «عمته» وكاتيا فتاته ، والكل يحترق .

وكان من افظع الامور التقاء النظرات مع النصير الراقد فى العربة . لكن ذلك حدث عدة مرات . عندما كان يسبح فى دمائه مقيدا قرب البئر والمرأتان تولولان فى المنزل وعندما هرع الى هناك «رجال سوروف» ، وعندما عادوا وكان سيميرمان القمىء يتعلم الركوب على السرج بشكل يثير الضحك وهم يمتدحونه ويشجعونه ويسخرون فى الوقت ذاته من اليتيم «سارق الخيل» .

لم يعد هناك ذاك الفتى الريفى ذو الابتسامة الساذجة الخجول ، فقد رقد فى العربة وراح يتطلع الى السماء صامتا ويسلط من حين لآخر نظرة وحشية على السفاحين ، ذاك الذى ينتظرك فى الغابة بفارغ الصبر . نعم ، لقد رأى بيلى الآن تلك العيون التى ستستقبله مع محاميه سوروف عندما يتمكنان

اخيرا من تدبير الامور بدهاء ويلتجآن الى الانصار . . .

فى بيتشورسك عندما هدأت المفرزة واستقرت قليلا بعد الحمام وبعد الغداء المشهود الذى شربوا فيه النبيذ بمناسبة «تمكن سيميرمان من القبض على الشقى» جاء سوروف الى بيلى واقترح عليه ، خفيض البصر ، «الاختلاء فى مكان ما ومناقشة الموقف» .

— الموقف الدولى ؟ ! — زعق بيلى فى وجهه واضاف بفحيح : هل تريدنى ان المس من جديد ضميرك المخبأ فى طيات بزتك ؟

وحذره وهو يكاد ينتحب من شدة الهياج :

— اذهب وحاول ان لا تظهر امامى كيلا تقع عليك عينى بعد الآن .

نفّس عما فى صدره ، لكن ذلك لم يخفف عليه . ولن يخفف عليه . فما اسوأ حال المرء عندما لا يأمل فى شىء .

وكان ذلك من افظع الامور فى معسكر الاعتقال ايضا ، مع ان كل شىء هناك فظيع !

اهذا انت ؟ هل يعقل انك تزحف بين اشباه الاحياء الذين انهكهم الجوع ، وبين الجثث المكشرة التى نهشتها الجرذان ولا يكفى الوقت لنقلها بالعربات والسيارات ؟ هل يعقل انك كائن لا تحلم الآن الا بشىء واحد هو ان تمسك يداك الخائرتان المترددتان بجرذى داقئ سمين حاقد لتطبخه فيما بعد فى علبة صدئة وراء المراحيض وانت تعرف ولا تهتم ابدا بان هذا المكان يتعرض من زمان لنيران الرشاشات من البرج ؟ انت تنبش الارض التى داستها آلاف الاقدام ونبشتها

الاصابع وبهشتها الاسنان قبلك بحثا عن جذور او عشب .
انك لم تعد على قيد الحياة من زمان ، ومع ذلك لا تزال
موجودا . لقد تشبثت مع عشرة من امثالك من الاشباح النحيلة
بعربة تدفعونها وهى محملة عن آخرها بالجثث ، وتتعقبك
وترافقك وتنهرك بحقد اصوات المانية وغير المانية من عالم
آخر تماما . وبعد ان صف هؤلاء الاشخاص كل الذين سيتقلون
على العربات ليس اليوم بل غدا وبعد غد ، اخذوا يلقون
خطبا ويتلون مناشير تؤكد بان اسرى الحرب خونة لا يستحقون
الصفح والرحمة ، ولن يحصلوا عليهما . كان ذلك من زمان ،
لكن الموت فى معسكر الاعتقال حاضر الآن قربك ، وقد
اثقل على نفسك فزاد من عبء الشعور بانعدام الامل . كانوا
يختارون الرجال فى البداية لتشكيل «الوحدات الاوكرانية» :
فخلف الخطيب التعبوى طاولة عليها كسر خبز وقطع سجق
وحلوى واقداح فيها ماء ساخن . . .

القرية السيبيرية التى قضى فيها بيلى طفولته غاصة بالنازحين
من اوكرانيا ، ولذا كان يعرف الكثير من الاغانى والكلمات
والعبارات الاوكرانية ، لكنه لا يجيد الاوكرانية الفصحى . ولكى
يصل المرء الى الطاولة ، حتى اذا صمم على الاستفادة من
آخر بصيص للامل ، فعليه ان يثبت بان الاوكرانية لغته .
ويقول اصحاب المائدة بشماتة مرحة : «قل «منخل» ، فكيف
ستقولها بالاوكرانية يا روسى ؟» . لقد قالها بيلى بسهولة فاستلم
كل شىء فى الحال : الخبز والحلوى والبندقية وقرية كاسبلا ،
واستلم مقابل هذه القرية كل ما حصل فيما بعد ولا يزال
يحصل . . . وسارت الامور بسرعة فائقة . فى البداية عمل
فى حراسة معسكر الاعتقال نفسه فى قلعة بوبرويسك . قام

بحراسة اولئك الذين استنكفوا من الخبز الالمانى والسجق
والبندقية واستمروا على الموت والهلاك بعدد يبلغ خمسمائة
جثة فى اليوم . المدينة على نهر بريوزينا تغط فى نوم عميق ،
بينما يوقظون بالزعيق واللطمات كل الاسرى الذين يمكن ان
ينهضوا على اقدامهم ويقتادونهم من الطابق الثانى والاول والارضى
من المبنى القاتم الهائل كالمعقل او السجن ويدفعونهم الى
العمل . وتتقدم اكثر الطوابير صوب النهر الى معمل النجارة
الذى يطلق عليه اسم فورشتات .

نعم ، كلمة فورشتات هذه معروفة للجميع فى بوبرويسك ،
وقد تعودوا عليها ، فهم يعرفونها من قبل الحرب ، لكن
الحرب جاءت بالجيش الالمانى ومعه كل الكلمات
الاخرى التى لا يمكن لاى طابور بدونها ، كما بدون
اطلاق النار ، ان يزحف الى مكان العمل : سوروك ، هالت ،
اربايتين ، فيرفلوختير ، شايزى ، شفاين ! . . ويجرجر الاسرى
اقدامهم الى العمل ويعملون ، «اربايتين» ، كالموتى ، وهذا
يطابق حالتهم تقريبا ، لكن الالمان يتصورون مع ذلك ان
هذه الاشباح تكاد تسخر منهم وان هذه الجثث المتحركة
العنيدة بعيونها المتقدة تخدعهم . وكلما اشتد الجوع اتقدت
العيون ، وازدادت ضراوة الضرب الموجع ، فى حين تنط
العصا ويقفز عقب البندقية حالما يرتطمان بالعظام الملبسة
بالجلد ، ويخيل للحارس من جديد ان الاشباح تقاومه وتمنعه
من ضربها كما يريد ! . . .

كان بيلى يقسم الحراس الى عدة فئات من الاوغاد .
ويرفض ان تكون له اية صلة ببعضهم ، ويعتبر بعضهم
الآخر مثله هو ، اى انهم اختبأوا فى المعاطف الالمانية تهربا

من اهوال المعسكر ومن آلام الجوع الرهيب ، لكنهم لا يزالون يحاولون اقناع انفسهم بان ذلك ليس هو الهلاك النهائى ، فيجب التماسك على شفا الهاوية على الاقل دون السقوط لا الى الخلف ، الى الجحيم الذى تخلصوا منه ، ولا الى الامام حيث يتواجد ابشع الاوغاد . كل ما اضطروا الى القيام به قاموا به بشعور داخلى فظيع وباكتئاب شديد ، الا انهم يمسكون حسابا ميئوسا منه ، لكنه ضرورى لهم : هذا لم افعله ! فعلته ولكن ليس بالشكل الذى اراده الالمانى ! بل انى ساعدت شخصا ! بدونى ربما كانت احوال اهلنا اسوأ بكثير !

لكل شخص رقيب نظيف مثل سوروف ، محاسب داهية مثل سوروف ، لكنه قابع فى داخله ، فى احشائه . لقد خرجت من احشائى انت ايضا يا رقيبى الذهبى النظيف ! كنا نخاف ان نتهامس مع بعضنا البعض ، فلنتهامس مع احشائنا على الاقل . لم لا ؟ فهى اخلص صديق للانسان . فى السابق لم يكونوا يعرفون ذلك ولم يصدقوا به ، لكن الالمان بينوه لهم وارغموهم على التصديق به . والانسان يمكن ان يصدق بأكثر من ذلك ويرى ما هو افضع منه بكثير . فقد حل زمان صار فيه الانسان «اجنبيا» غريبا فى ارضه ، بموجب القوائم الالمانية ، بالنسبة للمحاسبة الالمانية ، والادهى من ذلك بالنسبة لأهله وذويه .

ما اكثر عددهم خلف ظهرك ! انهم مفرزة كاملة من «الاجانب» يضاف اليهم عدة المان . انهم يسيرون على ارضهم حسب الظاهر . ولكن ليست هناك ارض يمكن ان تتقبلنا وتعترف بنا بعد كل ما حدث . سوروف وحده لايزال واثقا من انه لا يدوس عليها بجزمة المانية ، بل يحلق فوقها طفلا بريئا .

مهما كانت الآن افكار بيلى الذى سمم نفسه بنفسه لحد الغثيان ، ومهما كانت الوضعية التى صار اليها او صيّروه اليها فقد كانت حية بين ضلوعه ، بل حاولت ان تتقوى فى دخيلته نفس تلك الحاجة البشرية الازلية التى تجعله يعتبر نفسه ليس اسوأ الناس . فعلا انه ليس اسوأ الناس . فما أكثر الحالات التى يتذكرها عندما كان بوسعه ان يفعل شرا كغيره لكنه لم يفعله ، او اقدم عليه برغبة اقل من رغبة الآخرين !

لكن ليس من الصعب اطلاقا ان لا يغدو الانسان أسوأ الناس بين اولئك الذين وجد بيلى نفسه بينهم . فاذا لم يبذل جهدا تلقائيا ولم يتعسف بدون اوامر ، وعلى العموم اذا لم ينتقم من رفاق الامس فى عذابات المجاعة ومعسكر الاعتقال ، مقابل الشبع الوسخ ، مقابل السجق الالمانى والبزة الالمانية فسيكون افضل من الكثيرين .

ولم يكن من الصعب اطلاقا ان تتذكر كيف كانت حالتك قبل شهرين او قبل اسبوعين عندما كانوا يقتادونـــــــك بنفس هذه الطريقة للعمل والهلاك فى معمل النجارة . وقبل ان تقوم بحركة واحدة يجب ان تعرض قابلياتك وتكشف فى وعيك الخافت عن العملية بكاملها وعن العمل كله باليدين والرجلين والبدن من البداية حتى النهاية . يخيل اليك انك اديت ما يأمرونك به من خلال الصياح والشتائم ، فى حين انك لا تزال راقدا على الارض او واقفا بلا حراك فوق الحمالة او جذع الشجرة او المعول . يخيل اليك انك تفعل شيئا ، بينما يخيل اليهم انك تعاند وتتغابى ، وها هو يهرع اليك ، يهجم عليك ، ويغرز الالم والعذاب من خلال عظامك فى وعيك الهش . ويطلق النار . كلا ، ليس عليك ، على معتقل

آخر ، قربك . لكنه سيطلق عليك ايضا ، الآن . اما الذين يعملون قرب النهر فى سحب الجذوع فيدفعونهم من على طبقة الجليد بالزانات الطويلة ، ويسقطون فى الماء ثم يزحفون الى الضفة وتلتصق بهم المعاطف المسودة ، ولكن لا يحق لهم الخروج من النهر الا مع جذوع الاشجار التى يسحبونها الى الشاطئ لزجة كالجثث ، او متجلدة ثقيلة ولزجة ايضا ، ويتشبثون بها بايديهم الزرقاء ويلتصقون بها لزوجة بلزوجة ، لكن العيون متقدة مع ذلك . . .

لكنك انت هنا ، فى الجهة التى يتواجد فيها كل الاوغاد ، فى الجهة الدافئة الناشفة التى يتوفر فيها الطعام ولا احد يقتلك او يضربك ، ولا احد يدفعك بالزانة الى الماء المتجلد الذى كنت تزحف للخروج منه قبل حين . . . كلا ، لن تفعل انت شيئا ، لن تفعل حتى كل ما يأمرونك به بالشكل الذى يريده الآمرون الالمان ، لكنك موجود فى هذه الجهة ، وكل ما يجرى هنا ، وكل ما يفعلونه وينوون فعله تقع مسؤوليته عليك ايضا .

من افادة كارل لانغوت المعاون السابق لقومندان معسكر بوبرويسك رقم ٢ لاسرى الحرب ، ١٩٤٦ ، فى المحكمة :

سؤال : حدثنا كيف جرى تدبير حرق المعسكر لاغراض استفزازية ، مما ادى الى مقتل عدد كبير من اسرى الحرب .

كارل لانغوت : فى ٤ او ٥ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٤١ جاءنى قومندان المعسكر العقيد ريدير وقال انه يريد التحدث معى . وكان اول ما طلبه هو ان اعده بالا ابوح لاحد بسر هذا الحديث ، ووعدته . وبعد ذلك قال ريدير ان القيادة

رفضت تقديم وسائط النقل لارسال اسرى الحرب الى المانيا . وكان الموت جوعا يحصد كل الاسرى . ولذا اصدر العقيد شتورم ، وكان آنذاك مديرا لشؤون اسرى الحرب ، امرا بابادة اسرى المعسكر رقم ٢ . وكان فيه آنذاك ١٨ الف شخص . . . وفى ٦ تشرين الثانى كان المفروض ان يأتى الىّ آمر احدى وحدات النسف وعلىّ ان اريه الثكنات . وكان عليه ان يدبر الحريق بحيث تلقى اللائمة على الاسرى الذين كأنما يريدون حرق المعسكر بغية الفرار . جاءنى آمر تلك الوحدة فى ٦ تشرين الثانى . ذهبت معه الى الثكنات ثم الى جماليون الطابق الثانى . ففى الجماليون مراوح . وقال آمر الوحدة انه سيحضر مواد الحريق والاشتعال فى ٦ تشرين الثانى . ووعدت بان احضر عندما يأتى . وفى ٦ تشرين الثانى عاد وجلب معه المواد الحارقة . وكان معه شخصان وقال بانه سيدبر الحريق فى ٧ تشرين الثانى ، وانه لن يحتاج الىّ بعد الآن . . .

كان سوروف فى الطابق الاول من «القلعة» . فى ذلك اليوم ، السابع من تشرين الثانى ، لم يدفعوهم الى العمل ، بل لم يسحبوا الجثث الى الباحة ولم تصل السيارات لنقلها . كانوا قد سحبوا الموتى وحملوهم الى السلالم من المساء . وكسب الاحياء اماكن على التخوت . وتحتها وفى الاروقة ، فالاماكن على الارضية الملوثة غير كافية . وحتى الصباح كانت سلالم الطابقين الثانى والاول غاصة بالجثث ، فبدأوا النهار باخلائها كالعادة . والا فليس بالامكان دفع الاحياء الى العمل . قامت فرق عمل خاصة باخلاء اكوام الجثث واستمر هذا العمل ساعات مليئة باللهاث والشتائم وضرب العصى . وبدا وكأن الاحياء

يتصارعون مع الموتى صراعا مريرا على السلالم ، فى حين راح الحراس يستحثونهم ويدفعونهم .

فى ذلك الصباح كان الجو هادئا هناك ، فلا تتعالى اوامر الالمان ولا تصطفق الابواب الخارجية ولا تزأر السيارات . فقد اعلن من المساء «بمناسبة عيدكم البلشفى لن تعملوا ، ولن تأكلوا ايضا ، يمكنكم ان تستريحوا» . طال انتظـــار الصباح ، وكانت نتف الثلج الهشة تتطاير عبر كوات النوافذ وكأن اضواء المصابيح الضخمة الهائجة تطاردها . كان الثلج يذوب على الاحياء والاموات فى الهواء الخانق البارد ، وكان الاحساس بهذا وذاك يجرى فى وقت واحد : انفاس ملوثة خائرة تزفرها آلاف الابدان عبر النسيم البارد . وكان سوروف قد احتجز لنفسه من المساء مكانا على التخت ، وتطلب منه ذلك ازاحة جثث الموتى . ثم رقد فى شبه هذيان جائع لا نهاية له ولا آخر ، الى ان تساقط الثلج واخذت نتفه البليلة تخترق النوافذ ، فزحفوا نحوها واشرأبت الاعناق صوبها ، فهى ماء . كانت عشرات الايدى ترفرف وتتململ فوق الرؤوس لتصطاد بنهم وارتباك حبات الثلج فى شعاع المصابيح الشديدة الساطع الحاقد . ثم رقد سوروف من جديد ، ولكن على الارضية هذه المرة ، على ارجل وظهور باردة . واستيقظ من الدفعات ومن صيحات مبحوحة : «نار فوقنا» ، «حريق فوق» .

لاح النهار من كوات النوافذ ، وكان الثلج لايـــزال يتساقط ، ومعه يهبط دخان من مكان ما فى الاعلى . ومن يسار ذلك المكان يتهادى لغط بشرى خائر ومتوازن على نحو غريب .

وافاد الاسرى الذين كانوا جنب النوافذ وتمكنوا من رؤية

الباحة «ان السقف ، هناك ، من اليسار . ..» .

اما فى الدهليز فقد تكوم البشر عند السلم فى هياج خائر . ومن بين اكداس الجثث زحف جمهور من الاحياء وانساب ببطء الى تحت . وتدافع الجمهور ليشق لنفسه الطريق عبر شق لا يريد ان يتسع بفعل هذا التدافع وهذا الضغط ، بل كان على العكس يضيق ويتقلص كبقعة ماء وسط الجليد فى صقيع تتجمد له العظام . وشعر سوروف من جديد بانه لايزال على قيد الحياة ، وهذا الشعور يعاوده كل مرة عندما يكون الهلاك على قاب قوسين او ادنى ويبدو محتما لا مفر منه . لم يكن يحس بشىء سوى تعبير الهياج الخائر الجامد على وجهه ، ولم يكن يسمع شيئا سوى صوته . وكان كلاهما متداخلين متشابكين : «ما لكم يا اوغاد ، لماذا لا تأتون ، من يعيقنا ؟ ايعدوه» . تسرب الدخان الى اعماق المبنى عبر النوافذ واختنقت به الحناجر وغصت به الصدور ، وبدا مبنى «القلعة» الهائل الثقيل جدا وكأنه يترنح ويهتز كسفينة فى بحر ، يترنح ويهتز من حركة آلاف الابدان ، من صراخ آلاف الاصوات .

من افادة كارل لانغوت (بقية) . «فى الثالثة بعد ظهر يوم ٧ ابلغنى العريف ان الجناح الايمن من الثكنة يحترق . وتلقيت الى آمر مفرزة الاطفاء مارتيسوك ، وامرنى زيدير بالتلفون ان اتوجه الى الثكنات مع موزيرباخ الذى هو الضابط الثانى فى المعسكر واثنين من المترجمين ، واقتاد كل الاسرى الـــى الباحة . توجهت مع موزيرباخ الى هناك فرأيت ان الطابق الثانى يحترق . وذهبت الى قاووش الاسرى الذى كان يحترق ايضا واخذت مع المترجم اقتادهم الى تحت . وواضح ان

١٨ الف شخص لا يمكن ان ينزلوا الى تحت رأسا . كان اشخاص من الطابقين الارضى والاول واقفين على السلالم فاعاقوا نزول الاسرى اللذين فى الطابق الثانى ... كان الطقس سيئا للغاية . ولم يرغب احد من الاسرى فى الخروج الى الباحة . ولذا استغرق خروجهم من الثكنات وقتا طويلا . وبالنتيجة لم يخرج منهم الا بضعة آلاف ...» .

كان بيلى واقفا على جدار القلعة المبنى من القرميد الاحمر والمحمى من الباحة بالاسلاك الشائكة . صفان من الاسلاك الشائكة يطل خلفهما الجدار الاحمر . الثلج يتساقط نتفا خفيفة صامتة على ردنى معطفه الالمانى ويلتصق بليلا بعقب البندقية وماسورتها . وفى الامام لاح المبنى الرئيسى من القلعة ضخما عاليا كالحصن قاتما من خلال غلالة الثلج المتساقط . فالثكنة الرئيسية التى ينعتونها «بالقلعة» والمبنية على طريقة السجون بمستطيل من ثلاثة اضلاع تستقر رهيبة وسط الباحة الهائلة وتطوق بجناحيها باحة اخرى اصغر من تلك . وخيل لبيلى اليوم ان الغلالة المتموجة التى يراها امامه ليست من نسج الثلج المتساقط ، بل هى «القلعة» نفسها تنفصل عن الارض ببطء شديد وترتفع الى عنان السماء مع الدخان والعويل .

كانت هذه البناية فى عام ١٩٤٠ «مقرا» للملازم الثانى نيكولاى بيلى . وكان فى القلعة آنذاك فوجان من الفرقة ١٢١ ، فوج الهوتزر وفوجه هو بيلى ، فوج المشاة . كانت نافذته هناك تطل على جناح التدفئة ، جنب المدخنة المربعة التى كتب عليها «انشئت فى ١٩٢٥ » . نعم ، طابقه يحترق ، واللهيب انتقل الى الجناح الايسر من المبنى ، والدخان يتكاثف ويغدو

أكثر لزوجة واكفهرارا ، والعويل البشرى المرعب يتصاعد ويتعالى ، الاسرى يتدافعون فى الباحة ، وعددهم غير كبير حتى الآن ، عددهم قليل لحد مخيف اذا اخذنا بالاعتبار من تبقى منهم فى «القلعة» الملتهبة . انهم يتملصون من البابين بالكاد ، والبابان يلفظانهم بالكاد ، والمبنى ضخم هائل ، وليس فيه من هذه الجهة سوى بابين .

عندما اقام الاسير نيكولاى بيلى فى هذه البناية اضطر الى المبيت فى الطابق الاول والطابق الثانى ، فى ذاك الجناح وهذا . . . فأين مكانه الآن يا ترى لو لم يكن واقفا هنـــا بالمعطف الالمانى حاملا البندقية الروسية (التى صارت المانية ايضا) ؟ . لا بد وان سوروف موجود هناك ايضا اذا كان لا يزال على قيد الحياة . ألسنة اللهيب تنطلق من نوافذ الطابق الثانى ، وعلى الجهة اليمنى ، من نوافذ الطابق الاول ايضا ، وتطقطق بنهم سوداء حمراء لزجة ممزوجة بروائح حلوة مقرفة تستدر اللعاب وتثير الغثيان . زد على ذلك ان شخصا استولى عليه الفواق ، وهو المانى بدين مورد الخدين ، واقف جنبه .

— الاصباغ تحترق — اوضح احد الحمقى فى معطف «المتطوعين» المائل الى الاصفرار كمعطف بيلى واضـــاف بلجاجة — اعد الالمان الاصباغ لاجل الصليب الاحمر ، لكن الشيوعيين صعدوا الى الجماليون واحرقوها .

— اى اصباغ ؟ ما هذا الهذر ؟ — نفد صبر بيلى .

— رأيتهم يحملونها . وستأتى لجنة من الصليب الاحمر . كانوا يريدون طلاء «القلعة» بمناسبة عيد رأس السنة . . .

انه ينظر ويرى الحقيقة المرعبة ويتشممها بمنخاره ومع ذلك يهرف بسخف ما انزل الله به من سلطان وينشد المؤازرة

والتأييد يجبن عند الواقفين جنبه على جدار القلعة والذين يرون مثله ويعرفون كل شيء . وانت ، انت نفسك ، ماذا حاولت ان تفعل عندما صدر امر باطلاق النار ودوى الرشاش الالمانى عند قدميك ؟ هل هدفت على المدخنة المربعة فى جناح التدفئة واطلقت النار صوبها ؟ بيلى ليس مذنبا ، انا لست مذنبا . فانا لا اطلق النار على ابناء جلدتى . اين يختبئ الانسان عن الحقيقة اذا كانت كهذه ؟ !

لم يصدر الامر باطلاق النار واطلاقها بالفعل رأسا ، بل بعد ان التهمت النيران الطابق الاول وزحف الدخان كثيفا ثقيلا على المدينة ، وتجمع فى باحة المستطيل الناقص الملتهب اولئك الذين تمكنوا بشكل ما من الخروج من «القلعة» . وفهم الاسرى الذين وجدوا انفسهم قرب سياج الاسلاك الشائكة ، قرب جدار القلعة ان المصير الافظع لم يكن هناك حيث تلتهم النيران كل شيء ، بل هنا ، فى هذا الصمت المرعب على الجانب الآخر من الاسلاك الشائكة . فامامهم مباشرة وقف الالمان و«المتطوعون» ونصبت الرشاشات السوداء . . . .

على هذه الصورة ظلوا واقفين فى كلا جانبى الاسلاك الشائكة ، اولئك وهؤلاء بوجوههم المتشنجة الملتوية من الفزع واقدامهم الحافية او الملفوفة بالخرق ومعاطفهم المحروقة . وكانت نظراتهم تقول للالمان و«المتطوعين» : «ماذا تفعلون ؟ ماذا تبيتون لنا ؟» فردت نظرات اولئك : «كلا ، هذا ما فعله الشيوعيون ، هذا ما فعلتموه انتم» .

وعندما صدر الامر باطلاق النار ودوى الرشاش من جدار القلعة مسلطا حممه على الباحة تجمد الجمهور البشرى لحظة وخيل للرائى ان دهشة الجمهور هذه جعلته ساكنا . لكن ذاك

السكون تبدد فى الحال واندفع الجمهور ذات اليمين وذات الشمال ، فى حين راح الرشاش يضرب ويضرب بتصويب مباشر على الجمهور الذى لا مفر امامه . وكان الاسرى يتساقطون ويظلون على الارض كحصى الشاطئ بعد جزر غير متوقع . واطلق بيلى النار مع غيره . وكان يصوب على الرقم «١٩٢٥» رافعا بندقيته عاليا . وفيما بعد كان غالبا ما يكرر ، ذهنيا فى نفسه ، او لاحد من الناس ولا يدرى من هو انه اطلق النار على المدخنة ، وانها لا تزال قائمة هناك وعليها الرقم المذكور ، وكأنما يستعين بها كشاهد حى . فاى شهود يمكن ان يستعين بهم ؟ وخصوصا بعد معجزة كاسبلا . ثم هل كانت كاسبلا المعجزة الوحيدة ؟ الرائحة المقرفة الحلوة ، رائحة الدخان اللزج الكثيف تسرى فى كل مكان من كل اراضى بيلوروسيا . الدخان فى كل مكان . انظر اليه يا سوروف .

عندما دوى الرشاش وختق رأسا طقطقة الحريق اللزجة كان سوروف بعيدا عن جدار القلعة . فقد كان بين الاخيرين الذين تخلصوا من الدخان الاسود الخانق . واستغرقت محاولته للخلاص فترة كأنها الأبد كله . وفيما بعد كان مستعدا اكثر من مرة للتصديق بان تلك هى النهاية وانه لا يريد شيئا بعد الآن سوى التخلص من ذاك الانين الذى يسمعه حواليه ومن داخله ، ذاك الانين المخنوق التواق الى الخلاص . وفجأة تخلص بعد الانسحاق وكتفه مخلوعة ، تخلص فبلغ الفضاء الواسع الفسيح رغم الاسلاك الشائكة التى تطوقه . وخيل اليه ان باحة المعسكر المرعبة هى موطن الخلاص والحرية . وفى تلك اللحظة دوى الرشاش فاندفعت الجموع وحملته الى اليسار صوب

البوابة . كان الرشاش يهدر من اليمين ، لكنه صمت فجأة وكأنه قد ركض الى الامام ، واطلق النار من بوابة المعسكر . وكان الرصاص ينغرز بليلا مغتاظا مترددا فى جدار من البشر . واندفعت الجموع البشرية الى الطرف المقابل من الباحة تاركة تحت الاقدام جثث القتلى والمسحوقين . ودوت الرشاشات هذه المرة من الخلف ومن اليسار ، وفى تلك اللحظة دوى رشاش آخر وواجه الراكضين من الامام . ولم يكن هناك مفر ، بل ولم يعد هناك من يستطيع ان يفر ، فقد سقط الاحياء بين الموتى والجرحى على الثلج الوسخ المخضب بالدم . وكان البعض لا يزالون يحومون ويتراكضون ويزحفون فى الميدان ، بينما ظل سوروف راقدا ينتظر ان يتشنج جسمه ، رأسه ورجله ويده من شدة الضربة ، كما تتشنج اعضاء اولئك الذين سقطوا فوقه وجنبه . لم يهدأ اطلاق النار ، بينما كان الدفء يدب الى بدن سوروف من الدماء التى تقطر عليه . كانت ركبتاه ويداه دافئة تماما . وكانت ايدى ووجوه الاشخاص الراقدين تحته وجنبه وفوقه بليلة باردة ، ومع ذلك فالدماء حية دافئة . ودهش مرة اخرى وهو يفكر فى ذلك .

لقد فقد احساسه بالزمن وكان ينسى ثم يتذكر من جديد اين هو وماذا حدث له . جاءته امه فى رداء المستشفى الابيض ولمست رأسه واخذت يديه بحرص وعناية ، وكانت قبل ذلك تدفئ يديها بانفاسها وتضعهما كعادتها على رقبتها النحيلة ، فهى تفعل ذلك دوما ، حينما تعود المريض قادمة من مكان بارد . وعندما يعود المعسكر الى وعيه ، والجثث المتناثرة فى كل مكان و«القلعة» الهائلة الملتهبة وكأن زيتا صب عليها ، يرتعب الابن متصورا ان امه موجودة هنا ايضا ، ويعجل فى

مفارقة الرؤيا فيفتح عينيه ويتطلع الى سماء المساء الملفعة بالدخان واللماعة ببريق الحريق . فالدخان الاسود يحمل اليها البريق المتململ الفظيع . كانوا لا يزالون يطلقون النار من البنادق ، ففى بعض الاحيان تدوى صليات البنادق الرشاشة . وتنغرز الرصاصات الكاشفة فى السماء المدخنة وتنطفئ فى الحال . رائحة اللحم المحترق الخانقة اللزجة تداهم الانف والفم وتلتصق بالحنجرة وتملأ المعدة الخاوية بالغثيان .

انتبه على نفسه فى الصباح ، فقد سمع اصواتا حية وانينا ونحيبا . كانت الجثث قد تيبست فتجمد هو تحتها على الارض الباردة كالحديد . وبلغ مسامعه كلام بالالمانية ، ونهض شخص ما وقال مستعطفا : «انقلونا الى المعسكر الاول» ، وفهم سوروف لماذا قال الرجل هذا الكلام . فسيجهزون عليهم الآن لقتل من تبقى منهم على قيد الحياة . اقتربت السيارات لنقل الجثث ، اما الذين ظلوا احياء فسيقتلون الآن . ها هم ينهضون . لم ينهضوا رأسا . ولكنهم عندما فهموا ان عددهم كبير وادركوا ان كثرتهم قد تكون وسيلة لخلاصهم اخذوا ينهضون ، حتى الجرحى ، حتى المثخنون بالجراح اخذوا ينهضون . وخرج سوروف من تحت القتلى ، ولم يستطع ان يعدل قامته امدا طويلا ، ولم يستطع ان ينهض على قدميه . وتعين عليه فى البداية ان يظل جالسا على جثة ما كما لو كانت جذع شجرة مطروحا . ظل جالسا يتطلع امامه الى اكوام الجثث التى لا عد لها ولا حصر ، وفى بعض الاماكن كانت هناك اشباح تنهض وتترنح فى معاطف متهدلة برتقالية اللون من اثر الحريق .

يا الهى ، كيف يستطيع الانسان ان يتحمل ذلك كله ؟

ولقد تحمل ايضا الطريق الذى لا نهاية له من بوبرويسك صوب غلوشا وسلوتسك . تجمع عدد من الاحياء يعتبر كبيرا ، وكان كافيا لمائة كيلومتر تقريبا ، بمقدار ثلاثين او اربعين جثة لكل كيلومتر . كانت المدينة كلها تختنق من رائحة الجثث ، وشيع الاهالى طابور الاسرى المتبقين على قيد الحياة بنظرات ملؤها فزع ورعب من نوع جديد ، اما الالمان والحراس فقد رتبوا لاول مرة خلال كل تلك الشهور عربات للذين لا يقوون على المشى ، فكأنما شعروا بالخجل . وفى خارج المدينة لم تقطع العربات اكثر من خمسة كيلومترات . اوقفوا الطابور وهرع بعض الالمان الى الغابة واخذوا فى الحال يلوون اشجار البتولا ويقتطعون منها العصى . اما باقى الالمان فقد طردوا الجرحى والخائرين من العربات . وتظاهر هؤلاء بانهم يتمكنون من السير على اقدامهم وحاولوا ان ينضموا الى الطابور لكن الالمان دفعوهم ورموهم الى السواقى واطلقوا النار عليهم . واستغرقت هذه العملية نصف ساعة تقريبا . ثم اقتادوا الطابور بدون عربات ، وفى يد كل المانى عصا غليظة من اغصان البتولا . انهم يحبون اشجار البتولا . فعلى قبور الالمان من كل بد اسيجة من اغصان البتولا وجذوعها . وهنا فى الغابة اختاروا الهراوات من البتولا وحدها .

وفيما بعد ، عندما كان سوروف يتذكر طريق سلوتسك المعبد كان يرى باكبر قدر من الوضوح ليس القتلى الذين اجهزوا عليهم بالرصاص وليس القرى الراكضة الى الطريق — النساء اللواتى يتراكضن عبر الحقل حاملات الخبز والقدور والاطفال الذين اطلق الحراس عليهم النار — بل تلك اللحظات التى يتوقف

فيها الالمانى فجأة ، وكأنما عزم على شىء ، ويعلق البندقية الرشاشة على رقبته ويلتقط هراوته بكلتا يديه . كان الاسرى يسيرون صوبه وهو ينهال بالهراوة على الرؤوس الثقيلة رافعا مخفضا اياها . لاهثا مثل الحطاب ، وكانت العينان المغرورقتان بدموع حمراء على الوجه الندى تقولان : «خذوا جزاء الحريق ، جزاء كثرتكم واضطرارى الى ضربكم ، ضربكم !» . وانت تسير صوبه ولا بد ان تسير .

وبعد ذلك كان هناك حقل مكشوف مسيج بصفين من الاسلاك الشائكة ، وبدون ابراج للرشاشات والحراس يتجولون خارجه مستبردين وينتظرون متى يفطس اخيرا الالفان من الاسرى الذين لايزالون على قيد الحياة . كان الاسرى ينبشون التربة المحروثة المتجلدة ليختبئوا فى حنايا الارض ، وكانوا فى الوقت ذاته يأكلون الجذور وكل ما يقع فى ايديهم . وظلوا هناك مختبئين فى القبور — الجحور تهربا من البرد والالمان . اما سوروف فقد دفعوه بالهراوات وارغموه على الوقوف جنب آخرين . وسمع شخصا يقول : «من يريد ان يعيش ؟» وسمع كلاما آخر ، ثم اقتادوهم ، فوجدوا انفسهم فى حمام ساخن . وعندما كان ينتزع بقايا القمصلة والبنطال المتهرئة دون ان يصدق بعد بحقيقة ما يجرى تذكر فجأة وانشب اصابعه الخائرة فى الاسمال واخذ يبحث : «هنا ، ها هى هنا» . اخذ الخرقة التى تحتوى طياتها على الهوية المدعوكة ، اخذها بمثابة ليفة ، ثم دسها خفية فى جيب معطفه الجديد ، معطف «المتطوعين» .

وعند ذاك ادرك حقيقة ما عزم عليه وفهم التسمية التى تطلق على هذا التصرف . لكنه يعرف نفسه ، يعرف جيدا بانه لن يطلق النار على ابناء جلدته .

وكان يعرف ذلك بنفس الطريقة بيلي والآخرون ، وعددهم بالمئات والآلاف .

اقطع حالة يواجهها المرء هي اللحظة التي لا يأمل فيها بشيء ، في حين تغويه الاقدار من جديد وتنفخ فيه نسمة الامل ثانية ، وكأن حبل المشنقة انقطع به فاخذ يتنفس ، يتنفس ، يتنفس ، لكنهم قبضوا عليه ورفعوه وسحبوه من جديد الى المشنقة ، الى «الارملة» ، كما حدث آخر مرة في بيتشورسك عندما شنقوا كوسينكو ، آمر المفرزة الاوكرانية ، لانه «اهان الفوهرر والرايخ» وهو يخاطب صورة «هتلر المحرر» بكلام بذئ . كان «المحرر» المتضرر يتطلع من جدار الثكنة بعينين جاحظتين ويراقب الاعدام ، كان يتطلع بالتفاتة شماء من الرأس والكتف ، ولعله لا يستحسن ما يجري وكأنه يكاد يشتاط غضبا . سيشنقون شخصا آخر وينصرفون لاداء شؤونهم ، اما هو فسيظل طول النهار مقابل المجرم الذي يتحرش به طول الوقت ويمد له لسانه ! الا ان الالمان ، اذا حدث ذلك في بيتشورسك ، ينصبون «الارملة» في هذا الطرف من الباحة ليراها الفوهرر جيدا . اجراءات الاعدام دقيقة بكل التفاصيل ، وهي تتكرر كالصلاة في الكنائس . تصطف الكتيبة بهيئة مستطيل ويخيم عليها سكون كالسكون الذي يسبق الصلاة ، وبعد ذلك يعلن صوت الماني وفي اثره صوت المترجم ان فلانا عميل وانه وزع او عبر او اراد او حاول . . . ثم يدوي صوت ديرليفانغير كأنه قادم من السماء : «فورتريتين» . ويعرف كل الاجانب بدون مترجم ان ذلك يعني «خطوة الى الامام» . اما التعيس الواقف عادة (اذا كان لايزال يقوى على الوقوف) في مربع الصفوف فانه يخطو باتجاه «الارملة» التي تنتظره . ويتلى الحكم من جديد ، ويقطعه

من جديد صوت ديرليفانغير : «الى الامام سر» ، ويسير التعيس ويقترب من «الارملة» حتى تتمكن من معانقته . . .

ديرليفانغير هذا يتحلى بخيال وفير . وهو مولع بامور لا تخلو من الخطر حتى على الالماني . فالكتيبة كلها تعرف بان فتاة شابة جلبت من بولونيا واسمها ستاسيا تقيم عنده . ويقال انها يهودية . وبهذه المناسبة يحتفظ بخمسة اشخاص آخرين في السرداب ، وهم اسكافيون ، اخصائيون لا يمكـــــن الاستغناء عنهم . وكانت القيامة يمكن ان تقوم من زمان على آمر الكتيبة ، ولن تسعفه حتى الجزمات الممتازة التي يجود بها على الجنرالات في موغيليف ، الا ان الامور لاتزال تمر بسلام . ولعل الاخباريات سائرة ، فهذا النظام عندهم مرتب ليس اسوأ من التموين الحربي وسواه .

لكن معين خيال آمر الكتيبة لا ينضب . ولنأخذ على سبيل المثال الاحداث المرعبة التي لا نهاية لها ولا آخر في قرى بوركي . كان سلوكه خلال الاسابيع الاخيرة يثير الاستغراب . فقد احرق الانصار على الطريق قرب بوركي سيارتين وقتلوا رجال شرطة بوبرويسك الذين كانوا مسافرين الى كيروفسك . وانتقاما لذلك دمر الالمان واحرقوا القرى الواقعة ابعد من بوركي عن الطريق العام ، بينما لم يمسوا بوركي نفسها . وكانت الحجة ان هذه منطقة الشرطة . وكاد ديرليفانغير يطلق النار بنفسه على آمر السرية بارتشكه لانه قبض ، بمبادرة شخصية ، على الشباب في بوركي وعندما بدأوا يفرون قتل الكثيرين منهم . وظلت الكدمات على وجه بارتشكه اسبوعا كاملا وكان يدون نظـــرات . لان ديرليفانغير ضربه بمقبض المسدس . ووقع بارتشكه تحت طائلة غضب الصياد الذي كادت تفر منه غنيمة كبيرة .

ويبدو ان لهذه القرية بالنسبة لديرليفانغير اهمية اكبر من اهمية القرى الاخرى التى احرقوها بلا تردد وقتلوا اهاليها رأسا . اما هنا فهو ليس فى عجلة من امره بل كان على ما يبدو يطيل امد العملية كلها . كان يلف ويدور امدا طويلا ويتشمم ويقيس الامور . . .

ولا احد يعرف ما اذا كان آمر الكتيبة هذا سويا ام معتوها . فهو تارة يجلس او يقف كالصنم لا يلتفت الى شىء ولا ينصت لشىء ، وتارة يرتعش فجأة ويزعق ويلوح بيديه الطويلتين بل ويطقطق حتى بركبتيه الناتئتين على ساقيه النحيفتين كساقى جرادة ضخمة . انه بقامته الفارعة النحيلة وطاقته التى لا تنضب وعينيه الزرقاوين الثاقبتين الشريرتين يشبه فى الواقع حشرة خرقاء فى حركاتها غير المتوقعة .

وفى هذه المرة القى كلمة فى الضباط الالمان و«الاجانب» . وكانت تلك سابقة منقطعة النظير . تحشدوا فى مطعم الضباط وانتظروا التوجيهات طويلا ، وكان ديرليفانغير جالسا الى طاولة صغيرة منعزلة يحتسى الجعة ويقهقه بصوت عال على غير المتوقع . وما كان يحدثه به الضابط البدين العبوس بشارة البلوط على ياقته والذى كان جالسا معه لا يبعث على الضحك او التسلية كما يبدو . الا ان ديرليفانغير كان يهز كتفيه المستقيمتين بعصبية ويقهقه بصوت عال مخيف . ويقال ان الضيف وصل من برلين رأسا وانهما صديقان قديمان مع ان رتبة البدين اعلى بدرجتين من رتبة ديرليفانغير . وبعد ذلك استدعوا سلافا مورافييف الذى يعاون ديرليفانغير فى الكتيبة فى قيادة «الاجانب» . واستدعوا مترجما لاتفيا . تقدم مورافييف حسب الاصول ، فصفق كعبيه لا اسوأ من الالمان ، لكنه

لم يتعلم لغتهم بعد كما يجب . وتحدثوا بشىء وساعدهم المترجم اللاتفى وكان مورافييف يجيب على مضض بوجه هادئ عبوس ، وبدون تحيز . و«الاجانب» معجبون بان آمرهم يحافظ على استقلاله ، ولذا يقولون عنه «آمرنا سلافـــا» ، «آمرنا مورافييف» . وتلك وسيلة اخرى للسلوى بالنسبة للبلهاء . كانوا يتهامسون بارتياح عن الحادث الذى منح بعده ترقية من آمر سرية الى آمر كتيبة . وتصدر عن ديرليفانغير احيانا تصرفات غريبة فهو يصب فجأة قدحا من المياه المعدنية ويقدمه الى ضابط بمرتبة اوطأ . فيتحير الاخير من هذا الاحترام والتقدير ويأخذ القدح ويحتسيه ، ويتمتم ، الاحمق ، شاكرا ، فى حين ان ديرليفانغير يصب قدحا آخر . فمن يتجرأ ويرفض ؟ اما صاحب البيت فيقدم بيده الكريمة قنينة اخرى . . . فهو يستطيع ان يثير هلعه بابتسامة من العينين الزرقاوين . اما مورافييف فقد وجد ما يرد به . لم يأخذ القدح ، ويقال انه اجاب : الروسى ليس كالالمانى ، والماء ليس عرقا .

بدأ ديرليفانغير خطابه حالما نهض من الكرسى وقبل ان يعدل قامته الطويلة ، ولا يكاد المترجم الثقيل الاشقر يلحق به وهو يتلقف مرتعبا عبارات الآمر وينطقها زاعقا :

انا مسافر الى برلين . . . انهم يعرفون بنا . . . سنحصل على اسلحة ثقيلة ، وسنشكل مفرزة مدفعية فى كل سرية . . . ستكون قرى منطقة بوركى هذه امتحانا وميدانا للتدريب . . . تلك هى فرحة المشاركة فى العمليات التأريخية . . . خبرتنا تفوق التقدير . . . فما قيمة التوجيهات (غرز اصبعه فى السقف بدون ادنى اثر للاحترام) . نحن الاستطلاعات ، الاستطلاعات البعيدة المدى . يظنون (وتطلع الى السقف) ان الاهم موجود فى

الجبهة . جنود العدو في روسيا لم يبق منهم الا ما يكفي لضربة واحدة شديدة لكن الاعداء لا يزالون بعشرات الملايين . اننا اوائل جنود المعارك الرئيسية المرتقبة . وسيقول ابناؤكم : ابي شق الطريق . فما قيمة التوجيهات ؟ (لوح بيده تلويحة مستهينة صوب جهة بعيدة) . انهم يستنسخونها من تقاريرنا وسنعرض غدا في قرية بوركي ما نستطيعه . وسنرى بانفسنا ما تعلمناه . برلين تنتظر . . . .» .

اما الآن فان ديرليفانغير يجوب القرى ويظهر هنا وهناك ويجني المحاصيل لعاصمته برلين . وقد امر ، ونقلوا امره ، بان تتوجه كل المفارز التي فرغت من العمل الى القرية المركزية . وها هو بيلي متوجه الى هناك بعد ان تفرغت مفرزته من التطويق . ففي «قريته» ، وهي اكبر القرى ، عملت اليوم سرية المانية . وكان بيلي قد امن لها التغطية من جهة الغابة .

كل شيء يجري اليوم بشكل اساسي ، بل بشكل مهيب . فقبل انبلاج الفجر بدأوا بتطويق بوركي . وبعد جهد جهيد رتبوا الامور وجابوا الدروب الحقلية بالسيارات ليسدوا كل الثغرات . وعندما سكن كل شيء في القرى وهدأ اجتاز ديرليفانغير بوركي كلها بسيارة مدرعة . وقف في الصندوق المدرع كما في التابوت . ولا احد حواليه . واضاءت الاسهم النارية الكاشفة ، الواحد بعد الآخر ، هنا وهناك ، قريبا وبعيدا ، وبدأوا . في القرية التي قصدتها مفرزة بيلي كانت السرية الالمانية تعمل بطريقة «الخدمات المنزلية» . المرح لا يفارق هؤلاء الاوغاد . كان الالمان يجوبون المنازل ويتفقدون المستودعات والسراديب بلا استعجال ويقتادون الجميع الى داخل المنازل . وتعالى اطلاق

النار في كافة اطراف القرية ، لكن جدران المنازل خنقته .

كانت مفرزة بيلي مرابطة على طرف الغابة بحيث تتخلص من الانصار اذا قدموا وتحول في الوقت ذاته دون فرار الاهالي من القرية . الالمان يعملون بدقة وانتباه ، ومع ذلك يتملص منهم البعض ويختبئون ويفرون . ولذا توزع قوات التطويق من جهة الغابات او المستنقعات . طبعا ، كانوا يفرون . ومفرزتك (التي ستغدو سرية قريبا ، سريتك) اطلقت النار وتصيدت ابناء جلدتكم وفعلت بهم ما اراده سيميرمان وديرليفانغير ، فعلت بهم ما اراده الالمان . ولكن من هم ابناء جلدتكم ؟ ولمن تعتبرون انتم ابناء جلدة ؟ سوروف لايزال يعتقد بانهم سيستقبلونه كواحد من ابناء جلدته . وقد اقنعك تقريبا بان تثق ، وكأنك لا تزال نفس نيكولاي بيلي ذاك . ان بيلي السابق بعيد عنك بعد نيكولاي الذي كان في الطفولة يعاني دوما من ألم في الاذنين وكانت امه تلف رأسه دوما بمنديلها الناعم وتحمي «الاصغر» «الضعيف» من سخرية اخوانه . وعندما كبر نيكولاي تجاوزهم جميعا من حيث طول قامته فبلغ المترين تقريبا . ولكن لم يبق هناك الطفل نيكولاي ولم تبق عندنا ام سوى «الارملة» . فهي التي ستلاطفك اذا شعرت بالكآبة والملل . كان يظن انه بعافيته وقوة طباعه سيكون ملك الملوك وقائدا عسكريا ، فما الذي حصل ؟ والى اين وصل ؟ الى اين سارت به الاقدار ؟ مجنون الماني من مكان ما من وراء نهر البا ، وانت من طرف آخر من الدنيا ، من وراء نهر الينسي ، لم تكن تعرفه وما كنت تريد ان تعرفه ، لكن قوة غريبة جمعت بينكما ، وانتما تقومان بعمل واحد لا يوجد في الكون عمل افظع واخس منه . هذا الضفدع الواسع الفم لم يبحث عنك ،

بل قذفت بك الاقدار اليه . وفى قرية كاسبلا لم يقل كلمة ، بل لم يصدر امرا . كان واقفا يتطلع ، وكل شىء يجرى من تلقاء نفسه . التقطوك من الطريق كمسمار ضائع وقاسوك وشحموك بالزيت ودسوك فى ماكنتهم . وانت موجود تتربع كأنما فى مكانك . ففى اى مكان اذن طالما تتربع ؟ لكن ذاك الرجل المضحك السخيف بصراخه المرتفع : «يا بشر كيف يجوز ذلك ؟ لن استطيع ضرب الطفل» ، ذاك الرجل لم يصبح مسمارا فى ماكنتهم ، لم يستطيعوا ان يدسوه فى ماكنتهم ، لم يكن يصلح لهم ، ولذا اطلقوا النار عليه فى الحال ودفعوه الى الحفرة المشتركة . اما انت فكنت تحسب وتفكر : «على من اطلق ؟ على نفسى ، على رأسى ؟ سأستدير واطلق على الالمانى قبل ان يتمكن من حصدى بصلية . . .» .

تطلعت عينا الطفل المستعطفتان ، ونتأ الوجه الصغير الملتوى من بين لوحى الكتف المقيدين : «اسرع يا عم !» .

اسرع وادخل فى ماكنتهم كالمسمار ، ثم تهون الامور وتغدو ابسط ، واذا لم تهن ستعينك الخمرة ، واذا لم ينفع شىء فهناك «الارملة» .

نؤدى عملنا ونفر مثل كلاب الصيد الى الجهة التى يرسلنا اليها الصياد . الا تريد ان تفر الى الانصار ؟ اسرع ، ستحدثهم كيف شنق الالمان استطلاعيهم وكيف اشفقت عليه وتألمت لعينيه المنتفختين من الضرب والتعذيب ، فلم يستطع ان يراك ولم تستطع ان تشد من ازره وتلوح له بيدك .

فماذا حصل ؟ لكل من هب ودب حق فى القول بان بيلى بذل جهدا كبيرا عندما قبضوا على النصير . فلا احد يعطى مجانا شارة الملازم الفضية المربعة الثانية بالاضافة الى

«السرية الروسية» . ثم انهم منحوا سيميرمان اجازة . وحصل اليتيم على ترقية فغدا من خدم بارتشكه . انه من شلتهم . لكن سوروف هذه المرة ايضا ظل بعيدا .

ظل نظيفا .

وهل ستقطع شوطا طويلا وانت على هذا القدر من النظافة ؟

وصلت مفرزة بيلى الى قرية خضراء تكسوها البساتين وقد انبسطت على التلة . ومن الاقوال الاوكرانية التى تتردد فى الباحات والبساتين («هل تريد عسلا يا بترو ؟» ، «سد القفران والا فالنحل الملعون يلسع بشدة») فهم ان رجال ميلنيتشينكو موجودون هنا . صفوا السيارات على امتداد الشارع الخالى ، والسواق ، على ما يبدو ، ينبشون السراديب ، اما السرية نفسها فاصواتها تأتى من مكان ما وراء التلة . انها تدوى وراء القرية كما فى موسم الدراس حيث يختلط فى الحقل اللغط والكلام والصياح . اما الابقار والماشية فقد اقتادوها من هنا . لا يدرى المرء اين يضع قدمه كيلا يغوص فى البراز ولا ينزلق فيسقط . وتأوه الالمان وتململوا وهم يبحثون عن خشبة ما ويحطمون اغصان الكرز ليقشطوا من الجزمات ما علق بها . اما الآخرون ، الابسط منهم ، فكانوا يتخلصون من القاذورات بطريقة اسهل ، بمجرد ان يترافسوا بارجلهم .

— اسرعوا . لماذا تتململون كالقطط فى المطر ؟ ما اكثر حبكم للنظافة .

والتفت الى سوروف واضاف :

— طالما تورطت فلا تفرفص !

يجب ان تنسحب وتتملص باسرع ما يمكن . العمل على قدم وساق ، وربما يأتى الالمانى ويوسع رقعته ويرغمنا على

المشاركة فيه . الاطلاقات لا تزال فردية . يبدو انهم يقتادونهم الى ذاك المستودع الذى لا يرى منه الا سقفه .

من ورائى اسمع شخصا استولت عليه الذكريات وراح ، الوغد ، يقنعهم بصوت عال خائفا من انهم لن يصدقوه :

— انا لا اكذب وشاهدى رومانينكو . كنا معا ، ارسلونا للاستطلاع . ومن هنا مرت كتيبة ، ليست كتيبتنا . قالوا لنا انها كتيبة زيغلينغ . ولم يبق شىء من القرية ، ما عدا الجدران المحترقة . وهى جدران عنبر او مستودع احترق سقفها . رومانينكو ساعدنى ورفعنى فتطلعت من فوق — ولن تصدقوا ما اقول — ورأيت رؤوسا بيضاء كرؤوس الكرنب . سقط المطر فغسل السخام ، اما الرؤوس فلا عد لها ولا حصر . ظلوا واقفين ولم يسقط احد . لا شىء غير الرؤوس مثل الكرنب . وقلت : «انظر يا رومانينكو ! . .» .

— اخرس يا رأس الكرنب العفن !

يجب ان نسحب من الجهة اليمنى ، عبر الحقل . فهناك درب نظيف غير ملوث . وسيفرح الالمان ، سيظنون باننى استدرت الى هذه الجهة من اجلهم ، من اجل صيانة جزماتهم .

ويزداد الصراخ والعويل واطلاق النار وراء التلة من اليسار . اطلاق النار يتوالى بالجملة . يبدو ان الامور لا تسير على ما يرام عند رجال ميلنيتشينكو . فالاهالى لا يريدون دخول المستودع طوعا . وها هم يتراكضون هناك ويتدافعون . وغدا كل شىء مسموعا وغدت الاصوات اوضح حالما رأينا الجموع بام العين . الالمان يتأوهون عابسين . منازلهم بعيدة فى المانيا ، والمانيا والفوهرر بعيدان ، وعليهم ان يتواجدوا هنا بين —

«الاجانب» . ماذا لو رفض الاجانب الاستمرار فى العمل الذى يريدونه منهم ؟ هل يعقل انهم لا يخافون من ذلك ولا يفكرون به ؟ اكبر الالمان سنا ، اوتو دانكه الاعرج ، يهز رأسه مع كل خطوة يخطوها ، مثل حصان فى القيظ . هل هو متذمر او مستنكر ؟ وربما يريد ان يتأكد مما اذا كان رأس الكرنب لايزال بين كتفيه ؟

كانوا قد بلغوا حقل البطاطس واجتازوه مبتعدين عن المستودع والعويل ونيران البنادق عندما حدث شىء ما . دوى اطلاق النار من الرشاش والبنادق الرشاشة وتهادى صداه صوب الغابة . وتراكض الاهالى فى الحقل مندفعين الى الغابة كطيور سوداء . تملصوا وتراكضوا . يبدو انهم فهموا الحقيقة كاملة ولم يتمكن رجال ميلنيتشينكو من حشرهم فى المستودع . وقد تضطر المفرزة الى المشاركة لا سمح الله . جاءوا بسيارة مصفحة من مكان ما تنهب درب الحقل مثيرة غبارا كثيفا ، وتحصد برشاش ذى عيار كبير . اما اوغاد بيلى فلم ينتظروا حتى صدور امر منه : امتشقوا بنادقهم الرشاشة وخلعوا بنادقهم من على اكتافهم وراحوا يطلقون . التقت نظرته بنظرة سوروف ، وخيل اليه ان تلك النظرة شريرة انتقامية تنطبع فى الذاكرة : هذا ما يفعله رجالك ، مفرزتك ! رفع سوروف ايضا البندقية من كتفه وصوبها الى جهة عالية ، مثلما فعل بيلى آنذاك ، عندما اطلق على المدخنة ، على الرقم «١٩٢٥» . اطلق رصاصة ثم تطلع الى بيلى من جديد . هيا ، العب ، وسنرى النتيجة ، سنرى كيف تكون حالك بدون بيلى ، بدون وصايتى .

اما الاوغاد فهم يمرحون الآن . امام الجميع هناك يركض فلاح طويل فى قميص داخلى . وهو هدف ملحوظ ، وكل

منهم يريد ان يجرب عليه نظره ويده ويسبق جاره باطلاق النار . حتى انهم اخذوا يتدافعون لنفاد صبرهم . مثلما فعلوا فى ذلك المنزل عندما تعقبوا كسرب الذئاب ذاك النصير السائر صوب حصانه . . . وفوق كل شىء يحمل الفلاح الطويل طفلا بيديه . انه يركض صوب الغابة وركبتاه تتطايران امامه عاليا ، فى حين يتطاير الرصاص حواليه ويسبقه وينغرز فى الجموع الراكضة ويمزقها . . .

وفجأة حدث شىء ما . حتى اطلاق النار خف . انطلق حصان ابيض فى الحقل . نعم ، انه نفس الحصان الذى اخذوه من النصير ، وعلى الحصان ميلنيتشينكو ، فهذا الاحمق لا يخلع قبعة الفرو القازاقية حتى فى الصيف . اشترى الحصان من سيميرمان مقابل ساعة ذهبية . ها هو ميلنيتشينكو ينطلق فى الحقل الغاص باكوام الجثث . لم يعد احد يركض ، ولا اثر للفلاح الطويل الذى يحمل طفلا . لا يرى المرء سوى اناس يرتدون السواد والبياض ويزحفون من مكان لآخر . والى هناك هرع رجال ميلنيتشينكو من المستودع على اثر زعيمهم «القوهرر» الخيّال .

— نيكولاى — خاطبه سوروف باسمه من جديد — الالمانى بول قادم الى هنا بسيارته المدرعة .

— ثم ماذا ؟

— اخشى ان يجبرنا نحن ايضا .

— يجبرك فتذهب . فماذا كنت تظن ؟

الجميع يسمونه بول . الملازم بول توميل المشرف على رجال ميلنيتشينكو . كلهم يعاملونه معاملة الاخ ، ربما لانه من اكثر الالمان ادمانا على الشراب . اكبر درجة من التقييم فى

الكتيبة هى «سكران مثل بول» . وتحدث له دوما مختلف المفارقات والحوادث . ذات مرة كاد احد الانصار يقبض عليه ويقتاده . فقد مرت به زحافته وضربت رجليه فسقط ثقيلا كالخنزير . ثم ساط الرجل حصانه واسرع هاربا ، وبالكاد لحق به وانجده صاحبه ميلنيتشينكو . وربما اختلق البطلان هذه الحكاية فى حالة سكر !

ها هو مسرع الى هنا فى تابوته الحديدى الاخضر الخاكى . وقد صوب مسدسه الى ظهر السائق مثلما كان تجار سيبيريا يفعلون بالحوذية ، وهو يشتمه بالروسية بصوت مسموع من مسافة طويلة .

دوى الرشاش ذو العيار الكبير فى اطلاقة صوب الغابة . حبذا لو اصاب ذاك الاحمق فى القبعة الفرائية على ظهر حصانه الابيض . ترك بول السائق واتجه الى رامى الرشاش وراح يدق على خوذته بالمسدس . وها هو يصيح على بيلى : يا ملاعين ، لماذا لا تعملون ، لماذا ؟ . . .

واستدار السائق بتابوته خلف المفرزة ، فصار بول كأنما يدفع مفرزة بيلى امامه الى المستودع . عينا بول جاحظتان مثل عينى القوهرر ، واضافة الى ذلك ربى له شاربين قصيرين كشاربى القوهرر . وبسبب وجهه العريض الاحمر وبدنه القصير غدا هذا القوهرر اشبه بالقصاب .

ازاء المستودع الطويل ذى السطح المتهدل من القش وقف عدد من الالمان ورجال ميلنيتشينكو قرب البوابة المسدودة بمتن السيارة الخلفى . فعندما فر الاهالى احتجزوا بهذه الطريقة على ما يبدو البقية الباقية ممن تمكنوا من حشرهم فى المستودع . ووقف فتى وسط الباحة وراح يطلق

حمما من بندقيته على الحقل الذى كان الالمان ورجال ميلنيتشينكو السكارى يترنحون فيه ويتجولون بين الاجساد المنثورة فى كل ارجاء الحقل ويطلقون النار على الارض ليجهزوا على من بقى حيا . وانتزع بيلى من حزامه رمانة طويلة ضرب بها الرجل متشفيا على رأسه البليل :

— على من تطلق النار يا سافل ، على من ؟

المستودع ببوابته المغلقة صامت ، والناس المحبوسون فيه يعللون انفسهم بالآمال ويتمنون ان ينساهم السفاحون ، فلاذوا بالصمت ايضا . ولا يسمع من وراء الجدران الا نحيب عدد من الاطفال .

سلم السائق الالمانى من داخل السيارة المدرعة علبة بنزين ، اما بول فقد راح يشير بعينيه الجاحظتين المسعورتين ويريد من احد جنود بيلى ان يأخذ العلبة ويصب البنزين على الجدران . رجال ميلنيتشينكو الثملون فقدوا قدرتهم على الرؤية والتفكير ، ومفرزة بيلى غير متعودة على بذل الجهود بدلا من الغير . هؤلاء الاوغاد ينتظرون امرا من آمرهم . اما هناك ، فى الحقل فلم ينتظروا امرا ، بل اطلقوا النار برغبة وارتياح . لكنهم لا يحبون اطلاقا رجال ميلنيتشينكو الذين انفصلوا عنهم مؤخرا ، ولا احد يسرع ليسبق البنديريين او يحل محلهم او يعمل لسواد عيونهم . يجب على بيلى ان يأمر بان يأخذ رجاله علبة البنزين ويصبوه على جدران المستودع الذى حبسوا الاهالى فيه . كلهم ينظرون اليه ، وسوروف ينظر اليه ايضا . هذه واقعة اخرى ، مثلما فى قرية كاسبلا ، يتعين على بيلى ان يتحمل مسؤوليتها . جحظت عينا بول وهو يلوح بمسدسه ويجأر بكل ما يعرفه ويتذكره من شتائم .

— سوروف — قال بيلى ودوى صوته كاطلاقة قصيرة (سمعها بنفسه) — سوروف — كرر بفرح وكأنما عثر على لقيته وبلغ النهاية التى يريد . نهاية كل شيء من زمان . نعم ، نعم ، اعنيك انت ، ولا تنظر كأنك اخطأت السمع او اصبت بصمم . واضح انه لا يوجد هنا سوروف آخر غيرك — اعتقد انى امرت بوضوح ، فماذا تنتظر ؟ !

وتطلع بحقد بهيج الى النظارات الذهبية . وعلى الوجه الذى امتقع ذابت عينا سوروف القصيرتا النظر وقد لمحتا شيئا مرعبا ، لمحتا النهاية . نعم ، لم تخطئ السمع . لقد امرتك . لم تخطئ الرؤية ، فهذا انا ، بيلى ، امامك . هذه هى كاسبلا بالنسبة لك يا سوروف . فقرر ، بيدك القرار هذه المرة . على من تطلق النار فى البداية : على بول ، عليّ ؟ قرر بسرعة ، فان بول سينفجر قريبا من حدة الصياح والغضب ، والا سيطلق النار بنفسه من مسدسه .

— حرك يا سوروف يديك وقدميك .

عادت الاصباغ ، الدم ، الى الوجه . واضح انه يسيل فى العروق ، من الرأس الى القدمين ومن القدمين الى اليدين ، ضخ الدم يا سوروف ، قرر يا سوروف . جاء دورك ، هذه كاسبلا امامك . بيدك السلاح ، فافعل بدلا عنى ، اذا كنت تستطيع ، ما لم اتمكن انا ان افعله . ولكن كيف تستطيع بمثل هذين العينين وهذا الوجه .

ركز بول انظاره الثملة على سوروف : صاح بـــه وصوب مسدسه نحوه . الا ان عينى سوروف اللتين ذابتا وراء النظارات الغائمة لا تريان شيئا سوى بيلى . يبدو ان الرجل صعق ، صعق مسبقا بما سيفعله الآن . ولذا سيفعله .

تشبثت يداه بالعلبة وكأنه يعمل سائقا منذ ان ولدته امه ، وكأن خلاصه كله كامن فيها . لكنه فى البداية وضعها على العشب ليلقى البندقية على ظهره . سوروف ليس بحاجة للبندقية ، انها تعيقه . تلك هى حقيقتك يا عزيزى القس . والقى نظرة اخرى ، للمرة الاخيرة ، على بيلى . والتقط علبة البنزين .

سطح القش الطويل المنحنى بثقله ، والجدران الجافة من جذوع الاشجار والبوابة المسدودة بمتن السيارة تطبق على المحبوسين الذين قدر لهم ان يحترقوا . ومن هناك كانوا ينظرون عبر الشقوق ، وقد رأوا الشخص الراكض بعلبة البنزين ، وواجهوه بصراخ النساء ورعب الاطفال . رش سوروف البنزين برشقات على الجذوع اليابسة فاسود لونها فى الحال وكأنما تفحمت . الا ان البنزين وقع على جوخ المعطف الاخضر فحوله هو ايضا الى سواد وسال على جزمة سوروف . تلك هى نتيجة انعدام الخبرة . مد يديه كيلا يتبلل ويتلوث وركض على امتداد جدار المستودع الباكى وراح يرش الجذوع مخلفا سوادا متموجا زاحفا . وتسرب هذا السواد مع رائحة البنزين الى داخل المستودع ، لان صراخا فظيعا اخذ يتعالى من هناك ، وراح المحبوسون يطرقون على البوابة المغلقة ويهزونها . قفز الالمانى من السيارة المدرعة وركض الى المستودع وهو يقدح قداحته . انحنى على الجدار ثم جفل مبتعدا . ولمع لهيب رقيق عديم اللون ثم اختفى حسب الظاهر ، لكنه سرعان ما اندفع فى اعقاب سوروف . ولحق به كبرق كان يتعقبه ويلاحقه وهو يرش بقايا البنزين على ركن المستودع . وسقطت العلبة من يده . وخيل لبيلى ان خرقة حمراء تدلت مرفرفة . هرع سوروف الى الحقل وهو يجهد فى

انتزاع تلك الخرقة ليتخلص منها . تحركت السيارة التى كانت تسد البوابة ، وسلط الرشاش الضخم والبنادق الرشاشة والعادية على المستودع وابلا من الرصاص اخترق الجدران وانتزع الشظايا وكتم كل صوت وحجب كل شىء . . .

القرية الرابعة

من افادة توبيغا فى عام ١٩٦٠ :

«كان ايفان ميلنيتشينكو آمرا لسرية سموها عندنا بالسرية «الاوكرانية» . وكان الالمانى بول آمرها الفعلى لكن افرادها يسمون برجال ميلنيتشينكو . اما ميلنيتشينكو نفسه فهو من ضواحى كييف ، وكان متعلما . وقبل ذلك كان ملازما . وهو اسمر كالغجرى . وعلى العموم انسان فارغ ، لم يكن يفارق ظهر الحصان ، وهو سكران دوما . وكل رجاله مثله . وفى قرية نيفكى هرعوا حالا الى الصناديق والسراديب . كان بوسعنا ان نقبض على كل الانصار لولا هؤلاء اللصوص . الوحيد بينهم ميليشكا لم يرتبك ، بل نصب الرشاش و . . . اقصد انه ليس هناك اى التزام بالانضباط . لا يشغل بالهم الا العرق والنهب . وبعد ذلك ، فى نهاية الحرب ، فر مع عدة اشخاص الى الغابة . . .» .

. . . سكران «مثل بول» . كان ميلنيتشينكو يجوب البساتين بين الاهالى الذين قتلوا برصاص افراد سريته . «يا ابنائى ، يا صقورى» — عبارات ومقتطفات من الافلام او الاغانى او مبتدعة تعشش فى ذاكرته وعلى لسانه . انه زعيم اوكرانى على

حصان مغوار وحواليه الخوارج والمارقون ، وهو يستنهض جنده ليجترحوا البطولات ويتقبلوا الموت . فى حين يرفع السوط على رجاله ويلوح به فى غضب مسعور ، لكنه يتذكر ان الالمان يجوبون الحقل ايضا ويقومون بنفس العمل — يطلقون النار ، وانه حتى الآمر ، اذا لم يكن المانيا ، لا يحق له ان يتعرض لهم . الا انه يسوط رجاله بتلذذ : «لا تكتئبوا يا قوزاق» ، وهم يتأوهون مندهشين ويكشرون عن انيابهم كذئاب ضاحكة ويشيعونه بزعيق . اما هو فيظل يصيح : «يا ابنائى ، يـــا صقورى ! ميلنيتشينكو معكم دوما !» .

الحصان الذى يمتطيه من اجود الخيل واغلاها . («سيميرمان الوغد اخذ الى بلده المانيا ساعة من الذهب الخالص») . الا ان هذا الحصان المغوار كان يحمل نصيرا ، ميلنيتشينكو لم ينس ذلك ولم يغفره له . فيسوطه بضرب شديد .

— يا كتلة من اللحم النتن ، سأطوعك يا شقى .

انه يسوط الحصان بلا كلل ، ويتطاول على رجالـــه السكارى ويخوض بين الجثث (جثث النساء والاطفال مكدسة اكواما ، وكأنها تزحف للقاء بعضها بعضا) . الحصان يرتعش حتى العظام ، ويترافس بقوائمه خوفا من الدوس على الاجساد ويسيل منه زبد اصفر ويلقى نظرة وحشية شزراء .

— يا لك من شقى ! ساطوعك واعلمك كيف تحمل ميلنيتشينكو برفق . وستعرف من هو ميلنيتشينكو .

حتى الملازم الاول موراقييف لم يزر المانيا ، لكن ايفان ميلنيتشينكو زارها موفدا . فقد اصطحبه بول الى ارض الاجداد ليعرف والديه الالمانيين على منقذه . فلو لم يكن جنب بول آنذاك لاقتاده الشقاة كالكبش .

نعم ، كان لديه ما يقوله عندما عاد من المانيا . عن ليبزيج على الاقل . اتضح ان الالمان هم الذين دحروا نابليون وليس الروس فى ضواحى موسكو . فالمسقوفيون كذبوا هذه المرة ايضا . ففى المدينة الالمانية ليبزيج يوجد نصب مكرس خصيصا لهذه الحادثة . كتلة حجرية ضخمة شبيهة بالفرن ، وشاهقة حتى ان المدافع المضادة للجو تبدو من فوقها كعيدان الثقاب . وقد بدأت بحضوره تطلق النار على الامريكان السابحين فوق الغيوم . والصدى يدوى كما فى برميل هائل . كان الفرن الحجرى يزأر كالدب .

انقذ ميلنيتشينكو الضابط الالمانى وارادت اسرته ان ترى المنقذ وتشكره . بول هذا لا يشبه الالمان كثيرا وبسبب سكره يمكن ان يتورط فى مشكلة ما . حالما سها لحظة ضيع بول ، فاين ذهب ؟ الزحافة الريفية تبتعد ، والفلاح الشرير بسترته الجلدية الصفراء يسوط الحصان ويتلفت ، وفى الزحافة شخص يترافس برجليه . . . اطلق ميلنيتشينكو النار من بندقيته الرشاشة وركض فى اثره ، فاطلق الشقى سراح بول ورماه من الزحافة . اما موراقييف فقد حور الامور وادعى بانهما كانا يتسكعان ثملين فى اماكن غير معروفة وقد وقعا فى زحافة الغير بمحض ارادتهما . وانتشرت مختلف الشائعات التى تقول ان الزحافة مالت على الجليد وضربت بول اسفل الركبتين فسقط منها ، اما الفلاح فقد استحث الحصان من شدة الخوف الى ان فقد الالمانى . وحبس موراقييف ميلنيتشينكو فى الموقف . فهو لا يستطيع ان يعاقب الالمانى بول ، ولذا حبس ميلنيتشينكو . ولشد ما تغيرت ملامح موراقييف عندما وصلت رسالة من والدى بول يطلبان فيها السماح لابنهما ووحيدهما بان يصطحب

في الاجازة «صديقه الروسى الذى كان مستعدا للتضحية بحياته وانقذ الجندى الالمانى» . انظر كيف انقلبت الامور ايها الملازم الاول مورافييف — خيلتشينكو . اضاف الى لقبه الروسى لقبا اوكرانيا «خيلتشينكو» ويتصور بانه يحق له الآن ان يقود سرية «اوكرانية» ايضا . والالمان لا يعرفون بحقيقته . كان ميلنيتشينكو يقاتل العصابات عندما كان هذا «الملازم» يطعم القمل فى معسكر بوبرويسك ولم يتصور بعد ولم يتذكر ان لقبه «خيلتشينكو» . فى حين كان ميلنيتشينكو بين اوائل الذين هبوا ضد السوفييتات واليهود والمسقوفيين . كان يعرف بانديرا وفوينوفسكى ، وكان فى كوسوف عندما بدأوا بتشكيل «الفرقة الاوكرانية» الاولى . صحيح ان قضية الفرقة لم تتقدم كثيرا . فالالمان اخذوا قادتها الى برلين فجأة وقسموا الفرقة الى سرايا ومفارز وزعوها هنا وهناك . وارسلوا مفرزة ميلنيتشينكو الى بيلوروسيا واكملوها حتى صارت سرية ، عندما ظهر ديرليفانغير . نواتها من «الغاليتسيين» مع مفرزتين من الاسرى «الشرقيين» . «الغربيون» اكثر صلابة وعقائدية وانصياعا ، لكنهم جهلة بذهن قاتم كقنينة الجعة . والكثيرون اميون لا يجيدون القراءة والكتابة . اما «الشرقيون» من ابناء جلدته فمشاكلهم اكثر (لقد فروا من الجسر الاحدب) ، لكنهم ليسوا من المتظاهرين بالنزاهة ولا من الجشعين . اولئك اكثر تمسكا بالانضباط ، يقفون فى حالة استعداد ويأكلونك بنظراتهم . لكنهم مستعدون للالتهام بالحق والباطل . وعلى وجوههم امارات تكشف ما فى النفوس : «كلكم مسقوفيون بعتم ربكم» . ويصطحبون معهم فى كل مكان قسا من كوسوف . يا ليت الشقاة يختطفونه ، مثلما حاولوا اختطاف بول . وقد اطلقوا على ميلنيتشينكو وحصانه اسم

«سوفوروف» ، فهؤلاء الجشعون يعرفون باية وسيلة يثيرون غضبه .

الامور اسهل عليه مع ابناء جلدته ، لكن المشاكل ليست قليلة . ولا جدوى من مطالبتهم بالانضباط . فهم كأنما فى كولخوز . لكن الالمان يطالبون رجال ميلنيتشينكو بالانضباط على الطريقة الالمانية . مورافييف يتربص به وينتظر الفرصة السانحة ليحط من قدره فى انظار الالمان .

ها هى جثة الفلاح الذى ركض اول الجميع . نشر يديه ورجليه ، ولا يعنيه شىء مما فعل عندما خوف القرية بصراخه المنفر وجعل اهاليها يهرعون الى الحقل : «يا نســـــاء ، سيحرقوننكن» . ظل يركض حتى سقط . وابنه هنا ايضا ، تدحرج الى اخدود محروث : ثنى ركبتيه العاريتين حتى لامستا الموضع المدمى الذى كان فيه ذقنه . . . يصادف ان تغفو بهذه الصورة على القش الذى تفوح منه رائحة الغبار وتستيقظ لان البرد يصيب رجليك فتغدوان غريبتين عليك ، فى حين تبحث عنك امك وتسمع صوتها من وراء اشجار الكرز : «ايفان ، يا ابنى ، اين انت ، يا شيطان !»

لماذا تجفل ، يا شيطان ، انا اسألك لماذا ؟ ساعلمك كيف تحب موطنك .

زبد دام يتطاير من اسنان الحصان المكشرة ومن الرسن الذى يمزق شخيره ، لكن الحصان ينحرف عن مساره وقوائمه تطقطق فى الهواء لا على الارض كيلا يدوس . . . فالاطفال منتشرون فى كل ارجاء الحقل . وبالسوط دفع الحصان الى اجمة البتولا . فيجب انهاء التطويق . ولا داعى لبقائهـــم متكاسلين هنا ، فليذهبوا الى المستودع وينهوا القضية . كان بوسعه ان يرسل غيرهم ، الا ان طبيعته تتطلب منه ان يذهب

الى مكان ابعد ويصيح على احد ما . التفت الى المستودع مرارا : من هناك ؟ رجال من ؟ هل ارسل مورافييف يا ترى معاونيه ليبين خصيصا ان رجال ميلنيتشينكو عاجزون عن اداء مهمتهم ؟ لا تهتم ، ستحل نهاية مورافييف ايضا ، ولا اهمية لكونه فى رتبة ملازم اول . مهما طال الزمن . . . وقهقـــه ميلنيتشينكو . وتصور مورافييف وهو يخطو خطوات قصيرة جبانة صوب «الارملة» التى تنتظر وسط الميدان . قهقه بصوت عال وسط الحقل ، حتى السكارى سمعوا قهقهته من خلال اطلاق النار وتلفتوا مستغربين : ماذا حدث لآمرهم ؟

حبذا لو استدرج الملازم الاول مورافييف «الى الانصار» مثل اولئك الحمقى الذين اوصلهم «مراسلون» خاصون خفية من موغيليف الى القرية ، وهناك كان ينتظرهم رجال الامن الالمان : تعالوا يا صقور !

كيف يجوز له ان يأخذ من سرية ميلنيتشينكو مفرزة كاملة ليشكل سرية روسية ؟ لم يعد احد يفهم هؤلاء الالمان . فى البداية كانت تصرفاتهم مفهومة ، اما الآن فلا يفهمها حتى الشيطان . حبذا لو ارسلنا مورافييف خفية على هذه الصورة ليقع فى براثن رجال الامن : انت الذى ازعجت الوطنيين الشرفاء ؟

قبل الرحلة الى المانيا كان ميلنيتشينكو يستطيع ان يتحمل الكثير . اما الآن فلا . ويجب على مورافييف ان يسحب يديه اذا كان لا يريد لهما ان تبترا . لقد عاد آمر السرية ميلنيتشينكو من المانيا وهو يكن لنفسه احتراما كبيرا . لكنه عاد ببعض الخجل الذى يعشش فى نفسه وفى ذاكرته ويؤلمه . الا انه لا يستطيع ان يتحدث عنه كما يتحدث عن النصب فى ليبزيج .

كان الطريق الى المانيا بالقطار طويلا وكأنهما مسافران الى

آخر الدنيا . ولاول مرة احس فعلا بكثرة الاعداء عند هؤلاء الالمان ، ليس فى روسيا وحدها . فقد راوده شعور وكأنه مسافر ليس الى المؤخرة ، بل من جبهة الى جبهة . القطارات تزحف ولا تسير . والعصابات تمسك بها من عجلاتها مباشرة . فبعد ان اجتاز القطار بلدة ياسين فى ضواحى بوبرويسك ، انفجر لغم بقاطرته . وقبل ان يصل الى مينسك اطلقت عليه النار مرتين . والالمان مضطرون الى قطع اشجار الغابات على امتداد السكك الحديدية . والدخان يتصاعد على طول الطريق ، فقد اقتادوا الاسرى والاهالى لقطع الاشجار . لكن الانصار يستطيعون ان يستغنوا عنها . فقرب بارانوفيتشى اطلقوا النار على القاطرة من بعيد من البنادق المضادة للدبابات ، كما يصطادون الدراج . تلفعت القاطرة بالبخار وتوقفت . فمن اين يأتون بالقاطرات والعربات . ومن حسن الحظ انهم استولوا على عدد كبير منها فى الاسابيع الاولى من الحرب .

فى بولونيا سار القطار بسرعة اكبر حسب الظاهر . الا ان مقدمته انحرفت عن السكة وانقلبت . نصف العالم فـــى ايديهم ، ومع ذلك يستطيع اى كان ان يضربهم على اقدامهم من وراء شجيرة . يحرقون ويقتلون البيلوروسيين والبولونيين . ومع ذلك فهؤلاء لا يرضخون للواقع . انهم انفسهم لا يعيشون ولا يتركون الناس تعيش .

الا ان بول الذى اسكره العرق لم يلاحظ شيئا . توقف القطار وسط الغابات ، والعصابات اغرقت قضبان السكة فى المستنقع اما هو فقد هرع «الى المحطة» ليشترى شيئا . ويومئ باصبعه دوما الى النافذة : الرايخ ، الرايخ ، النظام .

سمع ميلنيتشينكو كلمة «النظام» فى كل مكان فى المانيا .

فالنظام عندهم ، ولا شك ، في كل شيء حتى ان المرء يتعب منه . ولا يحس الانسان بانه انسان الا بين الانقاض . وقد شعر بالارتياح لصفارات الانذار : لا بأس ، اركضوا ، فهذا مفيد لكم ايضا .

الايام الاولى من الضيافة في ليبزيج ، عندما كانت علبة العرق التي جلباها لا تزال تحتوي على شيء منه ، مرت في ضباب اصفر تسبح فيه تسريحة بيضاء هائلة على رأس الام او يلوح فم خطيبة بول الاحمر العريض كقلم النجار . النظام في المنزل (ذي الطابقين والسلالم والمدرجات الداخلية) يتوقف على الام ، وعلى صوتها الخافت المتوازن . والى جانبها والد بول الاصلع وبول الضخم ، وكلاهما ثرثاران اكثر من اللازم ومنفعلان يشبهان ، في افضل الاحوال ، الالمان غير الاصليين وكانت الام بتسريحتها البيضاء الضخمة تعلو على الجميع . ويمكن ان تنصب عليها المدافع المضادة للجو مثلما على ذلك النصب الشبيه بالفرن العالي .

تعمل عندهم خادمة اوكرانية اسمها اوكسانا . وهي ، فضلا عن ذلك ، من منطقة نيكولايف ، اي من مسقط رأس ميلنيتشينكو ، فتاة ريفية عريضة العظام ، وجهها نحيـــل شاحب ، لكن عينيها السوداوين مثل كرز اوكرانيا احتفظتا بعنفوان الشباب . يا لدهاء هؤلاء الالمان . ليس عبثا ان يقال انهم ابتدعوا القردة . عجيب ، بنظرة واحدة من ربة البيت وبنبرة صوتها الهادئ لا يمس الانسان الطعام ويبقى جائعا مثلما في معسكر الاعتقال ، مع انه يطبخ ويقلي اياما بكاملها .

دهشت اوكسانا اشد الدهشة لان ابن جلدتها وصل الى المانيا ليس قسرا ، بل حل ضيفا . ولم يستوعب ذهنها الريفي

هذه الحقيقة باي حال ، حتى انها كأنما لا تلاحظ بزة الاس اس وهي واقعة تحت تأثير صوت الاوكراني ميلنيتشينكو . بديهي انه جاءها الى الحجرة الصغيرة الواقعة تحت السلم والتـــي يحبسون فيها اوكسانا في الليل . يغلقون عليها الحجرة ويعلقون المفتاح قرب المرحاض . فتح الباب ودخل دون ان يغلقه ، ليمكن النور من ان يتسرب الى الداخل من جهة المرحاض . وجلس على الصندوق الذي تتخذه سريرا . ابتسمت له ابتسامة خائفة مشفقة ، وقد سترت بدنها بخرقة ما . لكنها لم تستسلم له وقاومت بهياج كما تفعل القرويات ولم تنطق بكلمة واحدة ردا على قوله «حمقاء ! تحافظين على نفسك من اجـــل الالمان !» . ولكنها عندما تراجع وامسك يدها لم تسحبها بل شدت عليها . وانصرف خائرا ومبللا بدموعها . وتكرر ذلك ليلتين اخريين . كانت تجهش بالبكاء فيما بعد ، عندما يتركها لحالها ولا يتعرض لها ، بل يكتفي بالشتائم : «حمقاء ، عاهرة المانية» . حتى انه هددها بان يشكوها الى ربة البيت فيرسلونها الى المعسكر . اما هي فتستمع اليه وتبكي ، لكن كل شيء غريب عندها . الى ان ادرك بانها لا تستمع اليه هو بالذات بل الى اللغة الاوكرانية ، وهي التي تجعل اوكسانا تبتسم وتبكي ، بل وتشد على اصابعه بخجل . وفهم كيف يجب ان يعامل هذه الحمقاء . فقد اخذ يتشكى من الخدمة الاضطرارية البغيضة عند الالمان وراح يتذكر منطقة نيكولايف ومدينة كييف وامه واباه والمدرسة وحتى طفولته في مخيمات الطلائع . راح يتذكر كل ما كان عندها هي ايضا في زمن ما ، ملمحا بغموض انه ارتدى بزة الاس اس من اجل الالمان . اختطفت يديه وارغمته على السكوت : فللحيطان آذان . لكنه

نفسه كاد يصدق بانه حالما يعود الى الاهل يحذر والديه العجوزين ويخبئهما ثم يبدأ باللازم . . . وسيريهم جميعا : مورافييف وديرليفانغير . ووعد اوكسانا بان يزور امها ويبلغها السلام. انتحبت اوكسانا ثم ضحكت بصمت وغدت طيعة اليفة ، وسارت الامور على ما يرام . كل الحمقاوات متماثلات فى الوطن او فى المانيا . ومع ذلك فالذى حصل لا اروع منه . وصل الى ارض الاجداد الالمانية وها هم يقدمون له فتاة اوكرانية باكرا . حسب الاصول . ميلنيتشينكو ما كان ليمس امرأة المانية حتى وان كان ذلك ممكنا . فان ايلزا خطيبة بول ، وامثالها ليس لديهن غير ارجل كارجل الطيور وانوف كمناقير الطيور . كلا ، المكائن والآلات فى ارض الاجداد هى افضل ما لديهم .

وعرف عن آمره بول كل ما كان لا يعرفه سابقا . واتضح انه التحق بالكتيبة من معسكر الاعتقال مباشرة ، فقد كان مجرما على ما يبدو . وعرف عنه شيئا كانوا يضحكون منه فى البيت دون ان يذكروه صراحة . نعم ، فبحضور امثال هذه الخطيبة تتبادر الى الذهن مختلف الترهات . عندما تعانقها يستولى عليك البكاء . فتلتفت الى النعاج . اما الفوهرر فهو بالفعل ليس احمق . لقد فهم من هو العنصر الرئيسى فى المانيا . فاذا قلت لهذه المرأة التى ليس فيها غير رجلين كرجلى الطيور وانف كالمنقار انها افضل من فى الدنيا فانها ستتبعك فى السراء والضراء . الفوهرر يبذل جهده مؤكدا ان الالمانيات افضل الجميع ، وان سائر النساء ناقصات فيهن كل العيوب . ولو كانت الالمانيات اجمل قليلا مما هن عليه لما كانت هناك اية انتصارات المانية فى الجبهة . ميلنيتشينكو واثق من ذلك .

فعليهن ، بما هن عليه الآن ، يتوقف كل شىء ويمكنك ان تنصب على رؤوسهن المدافع المضادة للجو !

ديرليفانغير هو الذى خلص بول من معسكر الاعتقال ، فهما صديقان قديمان منذ عهد الدراسة ، مع ان ديرليفانغير اكبر سنا . صورته ملصقة على الصفحة الثانية من البوم عائلة تومبل (فعلى الصفحة الاولى صورة الفوهرر) . هذه هى المرة الاولى التى يرى فيها صورة ديرليفانغير : بقع صلعاء على قمة الرأس ، ووجنتان مخسوفتان وعينان غائرتان . انه يشبه نفسه ولا يشبهها ، كالجمجمة السوداء والجمجمة البيضاء . وجلب بول الى العائلة صورا فوتوغرافية جديدة عرضتها الام على الجيران والضيوف . وتعالت التأوهات والاستفظاعات والقهقهة : ما ابشع هؤلاء «الروس» الغاضبين . حتى عندما لا يصدر خطر عنهم عندما يستلقون جثثا مسجاة او يتدلون من المشانق . وخصوصا النساء ، النساء خصوصا . وابناؤنا مضطرون الى العيش هناك بين هؤلاء . وابناؤنا ، انظروا ، ابناؤنا يبتسمون .

وكان قسم من هذه التأوهات والتحسرات من نصيب ميلنيتشينكو . (صار يفهم تقريبا بالالمانية وكأن الماء سال من اذنيه وعاد اليه سمعه) . هذا الضيف الروسى المسكين مخلص لبول ومندهش جدا لشجاعته ونزاهته ومتأثر جدا به ، وقد جازف بحياته من اجل بول عندما تعقبه الشقاة واختطفوه ! . .

اما الصور التى لم يتركها بول فى المنزل فان ميلنيتشينكو كان قد سرقها منه فى القطار ورماها عبر المرحاض على القضبان ، والا لكان قد عرض امه التى فى كييف .

كادت خطيبة بول ان يغمى عليها من تلك الصور . قهقه بول وامسك بركبتيها النحيلتين ، بينما هى تبذل جهدها وتحاول

ان تسقط ، لكنها لم تسقط ولا مرة . ففى مثل هذه التسريحة التى تشبه الاباجور لا يجوز الاغماء الا بهيئة الوقوف او الجلوس . وقد احست ، الدنيئة ، رأسا بان الضيف يشفق على بول لان لديه خطيبة مثلها . ولذا حقدت على ميلنيتشينكو صراحة وبشكل خطير . وعندما ذكرت كيف كتبت صاحباتها الى الفوهرر وعرض انفسهن عليه لليلة واحدة ، لليلة الدخلة ، واحتقن وجهها ونوّر وغدا جميلا تقريبا ، تنحنح ميلنيتشينكو بلا حذر ، فقد خنقه الضحك . تصور عددهن ، عدد خطيبات الفوهرر ، وتصور ادولف المسكين وهو يمارس هذا العمل الاضافى الكئيب . وتحولت نظرات الجميع الى ميلنيتشينكو ، وكأن اشخاصا حملوا الى الغرفة جثمانا . واشار ميلنيتشينكو الى صغار القطط التى كانت تلعب فى ركن الغرفة ليفسر ضحكه البرئ . وتمتمت ايلزا على عجل وهى تتطلع اليه بحقد . الا ان بول اكتفى بان لوح بيده .

لم يستطع ميلنيتشينكو ان يتعود على الكثير من الامور فى دار توميل . لم يتعود ، مثلا ، على ان بول فى البيت ، فى الاسرة ، هو نفس ذاك الخنزير الذى تعود على رؤيته فى بيلوروسيا . اما ميلنيتشينكو نفسه فلا يتجرأ على الظهور امام امه بالهيئة التى غدا عليها فى الكتيبة . ذات مرة عرج على اوكسانا فى المطبخ فوجدها تقطع لحم ارنب ، وكانت الام تسكب شيئا من علبة فى علبة ، بينما وقف بول وهو يبول فى غسال المطبخ ويتحدث مع امه . كل شىء مقبول عندهم . اثناء الغداء وضع بول شيئا فى صحن خطيبته ، فقهقه الضيوف ، بينما اتسعت عينا ميلنيتشينكو لدهشته . ولم يفهم رأسا ان البراز الذى وضعه بول فى الصحن لم يكن بشريا حقيقيا ،

بل هو مصنوع فى المعمل من المطاط . صنعه شخص ما خصيصا واعتنى به فجعله شبيها كل الشبه بالبراز الحقيقى .

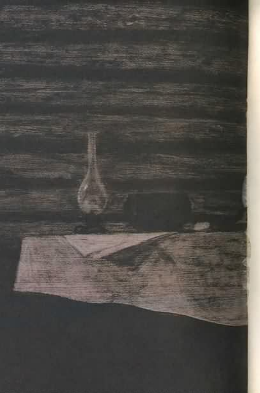
وكان يمسك بفخذ ايلزا على مرأى من الجميع ويدعو ميلنيتشينكو للقيام بالشىء ذاته ليتأكد بنفسه (وهل هناك ما يستحق ان يتأكد منه فى عظم الفخذ وعروقه ؟) . كان ذلك يجرى فى كل لحظة . اما الخطيبة فقد زعلت من الضيف لانه لم يستفد من هذا السماح ولا مرة . فقد احست ، اللعينة ، انه رفض ليس بسبب التواضع او الاحترام .

— ايفان لا يحبنا .

قالت بتهديد كبير . كلا ، لقد اعتمد هتلر على النساء الالمانيات وليس على المحركات والفولاذ ، وهو ينتصر بهن ، وما من احد يستطيع ان يقنع ميلنيتشينكو بعكس هذا الرأى .

قبيل الرحيل جاء بول فجأة الى الحجرة الصغيرة الواقعة تحت السلم . جلس على الصندوق — السرير وكان ثملا فنحى ميلنيتشينكو . جفلت اوكسانا والتصقت بالحائط مختبئة خلف ميلنيتشينكو ، لكن ذاك نهرها كالقطة : «لن يحدث لك شىء» ، وانصرف .

فى اليوم التالى جلبت اوكسانا طعام الفطور ، والكدمات تغطى وجهها . اما بول فكانت على رقبته وجبهته لصقتان بيضاوان . كانت الام صامتة كغيمة قبيل الزوبعة . جاءت الخطيبة واعربت عن دهشتها فاوضحت لها الام كل شىء . انتحبت ايلزا واندفعت الى غرفة اخرى ، لكنها تركتها فى الحال راكضة . ستتطاير اشلاء بول . لكنها هجمت على اوكسانا واخذت تقرصها وتضربها ، وتصرخ بان تلك ستفطس فى المعسكر .

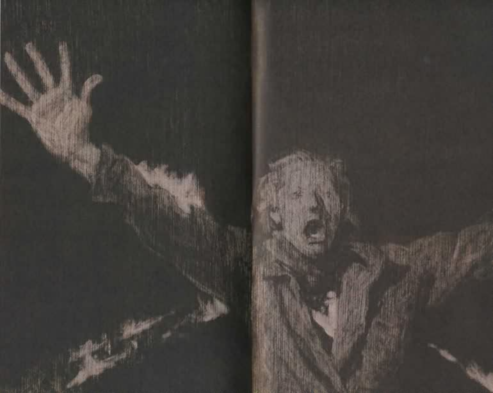


توجه الى كييف منفعلا . والداه يعرفان ان ابنهما ايفان يخدم في الجيش الالماني . البريد يشتغل بالنسبة للذين يخدمون في الوحدات الالمانية ، حتى ان ميلنيتشينكو استلم قصاصة من العجوزين : لا يزالان يقيمان في نفس المنزل ، لا احد يعرف الآن اين اخواه الاكبر والاصغر . . يبدو ان اخويه لم يدركا في الوقت المناسب ان كل شيء انهار ، فانساقا صوب موسكو ، اذا كانا على قيد الحياة طبعا . نعم ، كانت هناك حياة ، لكنها انقلبت وتحولت كما تحول الروبلات الى ماركات . ولم يعد يصدق ان تلك الوريقات كانت نقودا . فما قيمة كونهم قد صدقوا وانشدوا الاغاني في حينه . لقد استطاعوا ان ينسوا كل شيء على نحو ما . لكن ميلنيتشينكو يتذكر كل شيء الآن . ويتذكر خصوصا المجاعة عندما ذبحوا كل الماشية ، وجفت عروق الناس كعباد الشمس المحترق في الحقول . اشتغل الاب كناسا في كييف ، وحينما كان يسكر يتذكر احيانا منطقة نيكولايف ومنصبه «كمدير للكلخوز» .

كان يكرر حكاية بعينها عدة مرات بصيغ مختلفة وكأنه نفسه لا يصدق ويدهش كل مرة لسذاجته وحماقته — كيف قال للمدعي العام في الاخير : «ربما انت لا تعرف فعلا ؟» .

«لماذا لا يعملون ؟ ستتحمل مسؤولية ذلك» — «يموتون كالاورام» — «لماذا يموتون ؟ ستتحمل مسؤولية ذلك» — «المجاعة هي السبب . في كل مكان . عندكم ايضا الموتى في الشوارع . كل شيء تنقع ثم يبس . ولا حبة ، سوى الاعشاب . اما الاحتياطيات ، فاية احتياطيات عند الناس ؟» — «تكرر نفس الحكاية . ستتحمل المسؤولية !» .

بلغ الاب الباب لكنه لم يتحمل فعاد وقال للمدعي العام



هامسا : «ربما انت لا تعرف فعلا ؟» .

هل يعقل انهم لا يعرفون . الكل يعرفون . لكنهم تعلموا عدم رؤية شيء وعدم تذكر شيء . ميلنيتشينكو يعرف ذلك بنفسه .

كيف سيستقبله العجوزان ؟ حاول ان لا يفكر بذلك . كان فرحا لا اكثر . سيراهما من جديد ، سيرى منزله بسقفه المغطى بقطع من المشمع من فوق القرميد المهشم ، سيرى بستانه المنحدر صوب الدنيبر . سيدخل البيت المتواضع ويستخرج الهدايا من الحقيبة الكبيرة الجميلة . كل الهدايا تقريبا من بيلوروسيا ، لكن الحقيبة المانية ، ومن حسن الحظ انهـــا المانية ، فالهدايا فيها تبدو وكأنها المانية ايضا . وقد جلب معه ماركات مع انه اضطر الى انفاق نصفها . فالضيف فى المانيا يحظى بالاحترام اذا دفع تكاليف الضيافة . ذهب مع بول واودع فى صندوق التوفير خمسمائة مارك باسم عائلة توميل ، حتى ان ايلزا قبلته مودعة . وانفضح ان شفتيها دافئتين .

ادهشته كيف بعد المانيا ليس بانقاضها وحرائقها الهائلة (فقد رأى الكثير من ذلك فى المانيا ، ناهيك عن بيلوروسيا وبولونيا) ، بل بخلوها من الناس . وخيل اليه ان سكانها من الالمان والشرطة فقط ، فهو لا يرى ولا يسمع غيرهم . فهل قالت اوكسانا الحقيقة عندما أكدت انهم يقتادون كل من لديه يدان تعملان وساقان تمشيان ؟ الارض غدت عاريـــــة تماما ، فى البداية الموت جوعا والآن هذا الذى تراه .

ومع ذلك فتلك هى كييف الذهبية ذات السماء الزرقاء ، واينما وجهت ابصارك ترى الدنيبر امامك . دس السدارة فى حقيبة الظهر . فاى احمق ابتكر شارة الجمجمة والعظام ؟

كلا ، لن تلومه امه وابوه ، فهما هادئان يتكلمان همسا .



اخوه الاكبر كان يطلق عليهما ، بحضورهما ، نعت «اقطاعيي العالم القديم» ويقول : «غوغول نفسه انتقدكما ! فلماذا تجلسان عند النافذة طول الليل ؟ من هو بحاجة الى ابينا ؟ يقتادون الاعداء وليس ايا كان» .

بلغ ميلنيتشينكو وبول اطراف كييف سيرا على الاقدام وهما يتذمران من الانظمة المرعبة هنا . كانت امه واقفة عند العتبة وبيدها قصعة فخارية ، وثلاث دجاجات تتزاحم عند قدميها الحافيتين . تطلعت بقلق الى الالمانيين اللذين توقفا عند باب السياج . ارتعبت اشد الرعب عندما عرفت ابنها في البزة الالمانية .

— يا اب ، يا اب — صاحت بصوت عال وبغيظ ، وكأنها تستنجد به . وقفز الاب من المستودع نحيلا بشاربين متدليين وبلا نظارات (كان نائما) دون ان يفهم شيئا .

— ماذا يريد ؟ سأل الاب — احضري البيض ، والا سيأخذون الدجاج .

وقال الابن :

— مرحبا يا ماما .

اقترب منها وأخذ رأسها المنقوش وضغطه على بزته كيلا تنظر اليه بهذه الصورة . الا ان الام ابعدته برفق واخذت رأسه العاري بتردد وخوف . وانتحبت .

اما بول فقد وقف مقابلهما عرقا من القبط والخمرة ، وعلى وجهه ابتسامة عريضة . والجمجمتان على ردنه وسدارته مكشرتان . لقد ارعب العجوز اشد الرعب عندما اخذ يدها التي كانت لا تزال تطبق على علف الدجاج الرطب ، وقبلها على غير المتوقع .

وكانت حال الأب أسوأ . فقد تخنث وجبن نهائيا . استدار وركض الى المنزل . واتضح انه ذهب ليبحث عن نظاراته . ولم يقبلا بعضهما بعضا . وبعد ذلك كان يلقي نظرة شزراء على البزة ولم يستطع ان يتعود عليها ، بل راح يتكلم طول الوقت عن الذين اقتادوهم والذين اعدموهم والذين نقلوهم الى المانيا . فقد نسي ، هذا العجوز الاحمق كيف سهر الليالي جالسا يرتجف قرب النافذة . لقد نسي ذلك نهائيا .

— انهم من ابنائنا مع ذلك ، ليسوا غرباء .

— من «ابنائنا» ، وهذا اسوأ . فماذا يبقى على الالمان ان يفعلوا ؟ انظروا ما أكثر العصابات في كل مكان .

وردا على ذلك اخذ الاب — طالما بول الثمل نائم — يحدث ابنه هامسا بسرور عن الانصار وعن خوف الالمان منهم . ففي شارع كريشاتيك نفسه اطلقوا النار على ضابطين . ونسفوا مطعما المانيا . وفجروا دارا للسينما وناديا . اما عن القرى فحدث ولا حرج . كل ذلك من فعل الانصار .

— اي انصار هؤلاء ؟ عصابات ستالينية . لو تعلمون ماذا يجري في بيلوروسيا .

لكنه لم يكن راغبا في الحديث عما يجري في بيلوروسيا . اما ابوه فيدمدم ويكرر بانهم سينقلون اوكرانيا كلها ولن يتركوا حرثا ولا نسلا .

— نحن كثيرون — تملص الابن — فليطلعوا على العالم ، وسيعلمهم الالمان العمل .

هذا العجوز الاحمق كأنما لا يسمع شيئا ، فهو يتساءل هل صحيح ان الالمان يحرقون الناس احياء بقرى كاملة في منطقة الغابات في تشيرنيغوف ؟

وتواصل الأم كلامها عن قتل اليهود فى الصيف الماضى . اقتادوهم فى الشوارع وكانوا كثيرين «كالمتظاهرين» . ورمت احدى اليهوديات طفلة فى البستان .

— ما اذكاها ، تفهم كل شىء . رقدت لا تبكى مع انها ارتطمت بالارض . وناديتها : «تعالى الى هنا يا صغيرتى» .

ارتعدت فرائص ميلنيتشينكو . يخبئان طفلة . يا للمصيبة . كلا . توفيت . والام تتذكر تاريخ الوفاة . اصيبت بالتيفوئيد ولم يكن بالامكان اخبار احد ، فلو علموا بها لاحرقوا المنزل مع المرضى .

— ذلك من اساليب الوقاية عندكم — دمدم الاب .

اخذ الابن ايضا يشتاط غضبا ويتكلم بصوت مرتفع عن الاوضاع قبل الحرب وكرر كل ما كان ابوه يقوله عن اليهود عندما يسكر مع اصحابه . كلا . لقد نسى الاب كل شىء . فراح يعيد ويكرر :

— كيف لا ؟ كل الادلة تبين انهم يبيدون اليهود . فهم يعجنونهم ويخمرونهم . وسيخبزوننا نحن ايضا ، ويحولوننا الى فحم مثلما فعلوا فى تشيرنيغوف وفى بيلوروسيا . تظن اننا لا نعرف شيئا ولم نسمع بشىء ؟ !

تمادى العجوز فى الكلام والثرثرة ، وهو مسرور لان ابنه لن يفشى سره الى القومندان . ذهب اليه مع بول ، ولكن ليفرحا العجوزين وينقلاهما الى منزل افضل . فليس كل الناس هنا عندهم ابناء من ضباط الاس اس .

ومقابل ذلك تلقى الابن آخر وجبة من الاهانات . فقد حدث شىء لامه . انتحبت وانهمرت دموع الغيظ من عينيها وكأن ابنها يقودهما الى «الاشغال الشاقة الالمانية» .

— كلا ، لن نذهب حتى وان ذبحتنا .

وكان واضحا انهما لن ينتقلا الى شقة يهودية الا مقيدين .

— لا نريد ، لا نريد . فلماذا تجازينا يا رب ، لماذا ؟

وعندما تودعوا — كانت كل تلك الاحاديث بالطبع تجرى عندما ينام بول ثملا او يذهب الى مكان ما — قال الاب فجأة :

— لو قتلك الالمان لكان ذلك افضل يا بنىّ . الافضل ان يقتلوك هم وليس رجالنا .

وكانت الام واقفة تنتحب . يبدو انها موافقة ، ويبدو انهما تهامسا بهذا من زمان ، وتواطآ كالاطفال .

— «الافضل» ، «رجالنا» ، من هم «رجالنا» ؟ هل تصاهرهم ؟

— اسمع يا بنىّ . سنبكى فى كل الاحوال . والافضل ان يقتلك الالمان .

— نسيتم كل شىء ، الم يكفكم ستالين ؟ الم يكفكم الموت جوعا ؟ نسيتم .

ماذا يمكنه ان يوضح لهما اذا كانا يدفنانه حيا ؟ ويتكلمان كما لو كانا يقرآن منشورا من منشورات العصابات . . .

— تحرك يا شقى ! — ساط ميلنيتشينكو الحصان الذى كبا — وانت ايضا . . .

خرج للقائه من وراء الشجيرات عريف مشوب . صاح به ميلنيتشينكو لكى يقود المفرزة الى المستودع دون ابطاء . واسرع الى هناك بنفسه على طرف الحقل ، حيث الجثث اقل ولا يجفل لها الحصان . وكان اطلاق النار قد بدأ قرب

المستودع ، والدخان يتصاعد ، فقد اندفع الحريق . بول يصدر اوامره هناك . الا ان عدد الجنود ازداد كثيرا . فمن اين هم ؟ ربما تدخل مورافييف فعلا . بلغ ميلنيتشينكو المستودع وكان اول من رأى هو بيلى . نفس ذلك المسقوفى الذى يريــــد مورافييف ان يمنحه ترقية . نفس ذاك الشخص الذى اخذ من ميلنيتشينكو مفرزة كاملة . وها هو يتجرأ على المجيء الى هنا لتقديم المساعدة واصدار الاوامر . . . .

— من دعاك ؟ من ارسلك ؟

عجيب . انه لا يلتفت اليّ . رفع ميلنيتشينكو السوط على عادته دون ان يفكر بضربه بعد . وظلت اليد المرفوعة تتحرق متلذذة من شدة توقع الضربة التى سينزلها به على طريقة القوزاق . ها هو ينزل الضربة فيلتهب خط احمر ساخن على خد بيلى !

وعندما كان الحصان الشفى يتراقص جافلا عن اللهيب والدخان الاسود افلتت نظرات ميلنيتشينكو عدوه ، وعندما التفت اليه من جديد كانت يد ذاك ممتدة بالمسدس الاسود . يا الهى ، ماذا يريد ان يفعل ؟ ماذا دهاه ؟ كيف يجوز له ؟ اطلق النار عليّ ؟ فى يدى ، فى جنبى ، عليّ ، يا الهى ؟ لا احس بالالم ، احس بالخدر فقط وتوقع ضربة اخرى والرعب وعدم التصديق بان ذلك يجرى ، يجرى له ! هذا ما اردته يا ماما . اردت ذلك فحدث ، حدث كما اردت . مات ابنك . . .

كان بيلى يغرز الرصاصة تلو الرصاصة فى آمره السابق — وكأن كل الشرور تجمعت فيه — . افرغ فيه المشط كله عندما كان ذاك يخر من ظهر الحصان . وسط اطلاق النار عموما

والصراخ والعويل وطقطقة الحريق الاسود لم يسمع احد ، حتى بيلى نفسه ، الاطلاقة التى صوبها «الغربى» الملتحى الى جبهة بيلى فأرداه قتيلا .

كان بول يطلق النار من متن المدرعة الفولاذية على المستودع ، كان يطلق النار من رشاش يرتعش ، لكنه متخدر لسبب ما . وكان لدى ميلنيتشينكو متسع من الوقت ليــــرى ذلك . . . .

تفيد الوثائق ان ايفان ميلنيتشينكو رقد فى المستشفى الالمانى ستة شهور تقريبا ، وعندما عاد الى الكتيبة عهدوا اليه بمفرزة بدلا من السرية . فقد كان هناك آمر آخر يقود سريته . وفى عام ١٩٤٤ اصطحب عشرين شخصا الى الغابة عندما اقتربت الجبهة . وسرعان ما فر من فصيل الانصار واختبأ فى كاريليا . ثم ارتحل الى كييف ، واختبأ فى جمالبون منزله . وعندما جاء مسؤول مع شاهدين للتحرى وصعد الى الجمالبون اطلق ميلنيتشينكو النار عليه وتمكن من الفرار . عاش فى الوهاد وكان يقطع الطرق ويستولى على ما يصلح للأكل من السابلة . عثرت عليه نائما امرأة (ناديا فيدورينكو) كانت ترعى عنزة ، فادعى انه جندى هارب . كانت المرأة تحضر له العنزة وتحلبها فى الوهدة وتجلب له الخبز . وعن طريقها ارسل الى السلطات رسالة جاء فيها : «انا مذنب فاقبضوا عليّ . الآباء ليسوا مسؤولين عن تصرف الابناء» ، كتب سيرة حياته وارسلها الى السلطات ايضا . كتب بتأثر شديد ان العالم كله مذنب بحقه على كل ما فعله هو ميلنيتشينكو وما اضطر الى فعله . صدق كثيرا بقوة منطقه وبأحقيته ، فسلم نفسه الى مفوضية الداخلية

على اثر الرسالة ... ثم فر من القطار الذى نقلوه فيه ، وعاش شهرا آخر متوجها الى الغابات . قتل فى بيلوروسيا

القرية الاولى
الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٥٣
بتوقيت برلين

رفع غريشا القماش الاسود وتطلع فى المرآة . كنت اتوقع ان هناك مرآة ولا شىء آخر . فماذا يمكن ان يكون هناك ؟ لماذا افكر دوما واتوقع ان شيئا فظيعا سيتكشف ؟ انه يتطلع ويضحك ويناديني . لماذا يضحك : انها هى ، تلك المرأة . انا اعرف ذلك . نفس المرأة ... تزحف على الثلج ، تنهض على ركبتيها ، تسقط ، وتزحف ناثرة بقع الدم . لا تستطيع ان تنطق بشىء ، فمها ممزق ، والدم تخثر على وجهها . تحاول ان تكتب شيئا على الثلج ، وتنقطه بقطرات الدم ، وترفع يدها الحمراء مشيرة الى الجهة التى فرت منها ...

القرية الخامسة

من افادة موراقييف (عام ١٩٧١) :

«اوغست بارتشكه كان من الالمان المحليين ، وكان آمرا لسرية من الشرطة المحليين . وتكونت نواة سرية بارتشكه من حامية كليتشيف التى كان آمرا لها فى السابق وفرت هاربة من الانصار الى موغيليف ، وشتتها الانصار . كان بارتشكه ، كما اسلفت ، من الالمان المحليين بدينا قصير القامة يرتدى نظارات ولا يتجاوز الاربعين ...» .

... اوغست بارتشكه او كما يسميه الشرطة بارتشيك ، يعانى من الخجل دوما . فالخجل لا يفارقه مثل الزكام المزمن . هذا الشعور غير العابر يلازمه ويجعله خجلا مرتبكا ازاء المانيا التى كأنما جاءت من اجله خصيصا الى كليتشيف وموغيليف . وها قد جاءت الى هنا ، الى قرى بوركى . وهى تراه الآن بين الذين يعيش معهم ويقودهم ، فى حين لا يبعث العيش معهم الا على الخجل والارتباك فى كل خطوة . فهم اذا فعلوا شيئا لا بد وان يفعلوه بشكل ردىء ، او لا يفعلوا شيئا على الاطلاق سوى الخروقات . ولا تدرى من اين يأتى المزيد من الشر والقلاقل : من اولئك الذين فى المستودع ولا يريدون الخروج والانصياع ام من رجال الشرطة الذين يفعلون كل شىء لا كالمطلوب ، على طريقة السكارى والبلهاء . لم ينتهوا من المستودع الثانى الاكثر خطورة ، المستودع «الرجالى» ولم يطهروه ، والكثيرون منهم تملصوا وهرعوا الى القفران «لقصف النحل» ، كما يسمون هذا التصرف ببلاهة . واسرع بارتشكه للحاق بهم ، ليضربهم ويسوقهم . وقد لسعه النحل . تخشبت وجنته والتوت شفتاه كشفتى مخبول من ابناء القرى ، ولم تعد عيناه تبصران ... وها هم الآن يقهقهون خلسة . وجدوا ما يسليهم كى يتملصوا من العمل . وفى هذه اللحظة باغتهم آمر الكتيبة كما لو كان متعمدا . وهو واقف الآن على حافة الحفرة الرملية التى يقتادون اليها الفلاحين لاعدامهم .

على هذه الصورة رآه توبيغا . ودهش لنظارات آمره ، فكيف تستقر على هذا الانف الغائر الذى لا تستطيع الاصابع ان تنتزعه من بين الخدين المنتفخين الاحمرين الصقيلين ؟ لقد ذاق السيد بارتشيك العسل ، فبالشفاء والهناء !

— جئت بناء على امرك يا سيدى . . .

— متى امرناك ان تأتى ؟ اذهب حالا الى الحفرة .

يمتد صفان من الالمان الى الحفرة ، وفى الرواق الذى بينهما يقتادون الاهالى من المستودع . السرية الالمانية تعمل ، ويعاونها بارتشيك . فرجاله مشغولون بنقل «الحزم» من العنبر الى الحفرة . كلا هذا ليس عنبرا . انه على الاكثر ورشة تصليح . المسننات والحدائد ملقاة على العشب المدعوك ، والجدران ملوثة ببقع المازوت ، وهناك كتابات مائلة : «التدخين ممنوع» ، «لا تطلب سجائر من الآخرين» ، واسم «فيديا» مكرر مرتين . طرق توبيغا بطرف جزمته على عجلة صدئة ونبش الارض فأخرج قطعة من قايش . بمثل هذا القايش التوت رقبة توبيغا فى حينه . فقد انقطع القايش بلا صوت تقريبا عندما انحنى على المحرك ، ولسعه شىء فى موضع تحت اذنه وتلوت افعى سوداء امام عينيه ، واظلمت الدنيا وشعر بالغثيان . . . اما بارتشيك ، عندما عمل فى كليتشيف وكان يتراكض حاملا مفاتيح الوصل وملوثا بالمازوت ، فلا يختلف عن الآخرين الا بالقبقاب الخشبى الذى يرتديه . كان جادا مجتهدا ، لا يشرب حتى فى الاعياد . وبعد ذلك صار مديرا لشرطة الناحية . وعندما ارعبهم الانصار واقتادوا كل شرطة كليتشيف من الفرن صار يرتدى الجزمة ، فما كان بوسعه ان يفر بالقبقاب . اما توبيغا فهو ليس احمق . لقد انتقل مسبقا من كليتشيف الى مدينة كبيرة ، الى موغيليف ، الى دائرة شرطة حقيقية . ولم يكن لديه فرن او جدران ابدا ، فهو لا يتشبث بشىء حتى الرمق الاخير ، مثلما يفعل هؤلاء البخلاء . ولذا قروا يخفي حنين .

النيران تلعق المنازل والاسيجة والمستودعات . واللهيب شديد على ما يبدو . فقد ابيضت خوذ وسدائر الالمان والشرطة وظهورهم وبزاتهم . وقرب حفرة الرمل دوت صلية رشاش . وحول الورشة يجول بارتشيك حاملا رمانة مستطيلة يضرب بها على ظهور رجاله ويرغمهم على دخول البوابة المواربة ليسحبوا وجبة جديدة من الفلاحين . ويسند شرطة آخرون البوابة كيلا تتحطم من الداخل . امسكها ، اسندها ، حاول ان تسندها اذا صمموا على اقتلاعها من الداخل ، ولقد صمموا على شىء بالفعل ، لان رأس فتى ظهر من شق فى السقف ، يبدو ان الفلاحين رفعوه ليحدثهم عما يجرى فى الخارج . التقت عينا توبيغا بعينى الفتى حتى انه غمز له ولسان حاله يقول : هيا ، انا اراك ، لكن هذا لا يعنينى . بارتشيك يتراكض بلجاجة ، لكنه لا يلاحظ ما يجرى فوق رأسه . فليكن . واذا حدث شىء فقد يثير الفضول . وسيكون لرشاش توبيغا نفع . رقبة الفتى طويلة كرقبة السلحفاة ، وهو يتطلع طول الوقت — ولا يستطيع ان يغض بصره — الى الجهة التى يقتادون اليهـــا الفلاحين ، الى جهة الحفرة . . .

خرج من البوابة اثنان ، ودفعوا شخصا آخر ، وفى اثره دفعوا ثلاثة آخرين . وخرج شاب ملتح ، يبدو انه خرج بمحض ارادته ، وقال بصوت عال :

— فلنذهب يا اعمام طالما يطلبون منا الذهاب . فما جدوى الجلوس هنا ؟

واشفق حتى على بارتشيك وقال له :

— من الذى فعل بك ذلك ؟ النحل ؟ نحلنا شرس . الم تكن تعرف بذلك ؟

اشتاط آمر السرية غضبا ، فضربوا السبعة واقتادوهم راكضين تقريبا في الرواق الالماني .

وزعق بارتشيك بصوته المخنوق :

— فلتخرج وجبة اخرى . اخرجوا طوعا والا سألقي عليكم هذه القنبلة ؛ سألقيها حالا .

مضى توبيغا على امتداد الرواق الالماني باتجاه الحفرات حيث يطلقون الرصاص . الحفرات صفراء برملها العتيق الناشف المدعوك والملطخ ببقع دموية كالمازوت . الا ان القتلى لا يرون من هنا ، فهم في القاع . وفي الاعلى ، عند الحافة وقف سبعة اشخاص ببنادقهم ينتظرون الوجبة التالية . بعضهم ينظر الى تحت ، وبعضهم الى الرواق الذى يقتادون الاهالى عبره . والى الجانب وقف آمر السرية لوحده ولا احد قربه . رأى توبيغا قدمي دوليفان (ديرليفانغير) النحيفتين في الجزمة العالية قبل ان يرى وجهه الرمادى بشاربيه الاسودين .

اقشعر بدن توبيغا ، فقد كان هناك احتمال بان يواجه دوليفان رأسا .

وفي تلك اللحظة ظهر بارتشيك في الرواق الالماني : كان مع اثنين من الشرطة يقتادون سبعة اشخاص جددا ، وصفوف الالمان تساعد في دفع الفلاحين باعقاب البنادق الى الامام ، الى الحفرة . هيا ، هيا يا سيد بارتشيك ، فان دوليفان لم ير بوزك بعد .

آمر السرية يكاد يبكي ، فقد ضيع صوته نهائيا :

— تحرك ، انا اكلمك ! الى هناك وانبطح ! انبطح هناك !

ركض بنفسه وراءهم الى تحت ، الى الحفرة ، وانزلق

على الرمل والدماء وسقط وراح يجأر راقدا : «انبطح هناك» .

صاحوا عليه من فوق وقالوا له ان ما يفعله غير صحيح . فالفلاحون يجب ان يظلوا واقفين الى ان تطلق النار عليهم . وعند ذاك اخذ يتشبث بخناقهم ويرفعهم ليقفوا على اقدامهم ، ويداه حمراوان كرجلي البط . فهو لم يعد يفرق بين الاحياء والاموات في هذه الحفرة . انه ينحني ويرفع الجميع بلا تمييز ، ويحاول ان يوقف الموتى على اقدامهم . . . وتبلد نهائيا تحت نظرة دوليفان الذى ظل واقفا وكأنه غير مندهش لشيء . وضحك شخص ما ، فالتفتَ صوبه . وسُمعتْ من جديد اصوات القرية التي تحترق وبارتشيك يخوض في حفرة الموتى .

ما هذا ؟ الواقفون احد عشر وليس سبعة ؟ لم يفهم بارتشيك لماذا تململ الذين فوق وراحوا يتهامـــــون . الضابط الالماني الشاب الذى يشرف على اطلاق النار ركض على امتداد الصف ملوحا بقبضته شاتما لاعنا . اذا كنت لا تفهم اسأل . وسيوضح لك توبيغا . لقد اندس بينكم ايضا طفيلي او فرنسي . انه طفيلي الماني منكم . يطلق النار على القبة وكأنها حبة ، بشرط ان لا يصيب الهدف .

وفهم بارتشيك ايضا في آخر المطاف . كاد يبكي بالفعل . من الخجل . الخجل من الالمان هذه المرة . اخذ يصعد من الحفرة لكنه لا يستطيع لشدة ارتباكه . فالرمل ينسحب من تحت قدميه . . .

ودوت صليتان متفرقتان الواحدة تلو الاخرى . ورقد جميع من في الحفرة من جديد . ما عدا بارتشيك الذى وقف منحنيا متأثرا لاطلاق النار .

وفجأة تهادى صوت من تحت ، من الحفرة :

— تؤلمني . اطلق النار عليّ يا الماني من جديد .

التفت بارتشيك الى الحفرة مرتعبا :

— اين انت ؟ ارفع يدك .

— تؤلمني . . .

— يدك ، ارني يدك !

ارتفعت يد نحيلة عارية خائرة ، كدخان حي ، فوق الجثث . وانهال كل الواقفين فوق بوابل من الرصاص المسعور على الحفرة تحت . . .

القرية السادسة

سلافا مورافييف .

ولد في ١٥ تشرين الاول (اكتوبر) ١٩١٨ في قرية ايغرين بمحافظة دنيبروبتروفسك . روسي ، لا حزبي ، حاصل على التعليم العالي . طويل القامة قصير الرقبة ، عيناه رماديتان ، جبهته مستقيمة انفه محدودب عريض ، شفتاه رقيقتان ، ذقنه ناتئ ، اذناه كبيرتان .

العلامات الفارقة : بنصر يده اليمنى مبتور ، وخنصرها متضرر .

من افادة ميخائيل مايدانوف من مواليد قرية اولغوفكا في ناحية كيرينيفسكي في محافظة كورسك . عام ١٩٦٠ .

«في هذه القرية اصطف الالمان ورجالنا في صفين . واتذكر ان الالمان كانوا مصطفين في الامام ، ونحن خلفهم . وامر الضابط الالماني عن طريق المترجم (ولا اعرف اسميهما)

بان ننفذ كل ما يشير به علينا الجنود الالمان ، ومن يرفض يعدم بالرصاص . . .»

كان آمر السرية سلافا مورافييف ينتظر رئيسه . وكان من المتوقع ان يعرج على قرية بروليتارسكي هنا . وقد امروا بعدم البدء بدونه . عملية بوركي ليست عادية تماما ، «فالمراسيم» معقدة جدا .

اصطفت المفرزتان الالمانية و«الاجنبية» ، وهما تقفان في الوضعية التي ابتدعها آمر الكتيبة نفسه «لتكريس المجندين الجدد» . كانوا واقفين ازواجا : الالماني في الامام وخلفه غير الالماني . وبعد ذلك سيجوبون القرية ، وسيحدث ذلك لاول مرة بالنسبة لثلاثين من غير الالمان . وهم يعرفون الآن لماذا جلبوهم ولماذا يقفون على هذه الصورة وماذا سيحدث . الثلاثون متباينون جدا ، وقد اغوتهم ودفعتهم الى ديرليفانغير ملابسات مختلفة . الا ان عليهم ان يفعلوا شيئا واحدا . سيأمرونهم وسيفعلون . مورافييف واثق من انهم سيفعلون صاغرين . ربما كان الكثيرون يفكرون هناك بعيدا يوم امس : «لن اذهب ، لن اقتل ، اقتلوني» . اما هنا فحاول ان تفكر على هذه الصورة ، ليس عموما بل عندما تعرف تماما انهم سيجرونك الى هذا السياج ويميلون بك عليه كجذع شجرة ويطلقون النار . بعضهم تبلد وراح يتطلع ذليلا الى خوذات الالمان ، الى الضباط الالمان ومورافييف ، وبعضهم يتطلع الى القرية بفضول الشباب البليد . والخفراء وحدهم يجوبون الشارع الخالي كيلا تتراكض النسوة من منزل الى آخر ولا يزحفن ويتسربن الى السراديب والمستودعات . فستخف حدة الذعر ويزداد الامل بان ابشع

الامور لن تحدث لهن . نعم ، القرى المجاورة تحترق ، واطلاق النار يجرى فيها ، لكن الناس يستطيعون ان يفسروا امورا كثيرة ليس بابشع صورة اذا لم يستول عليهم الذعر والاضطراب . حتى ان دخان الصباح ارتفع فوق بعض المنازل ، فهؤلاء ينوون تناول طعام الفطور : نحن نعيش كما تعودنا دوما ، ولذا لن يحدث ذلك فى هذا اليوم . لا يمكن ان يحدث . . .

كيف يصدق الانسان مع ذلك بان افظع المخاطر مستمر دون ان تمسه هو بالذات ؟ ! حتى على بعض الوجوه المطلة من تحت سدارات الشرطة السوداء ذات الجماجم «البشرية» البيضاء يلوح هذا التعبير الشاحب البليل «هذا غير ممكن» . ممكن ، ممكن يا عزيزى ! وهو يجرى الآن ، يجرى لك بالذات . . .

لقد اجتاز موراфييف ايضا هذه المحنة ، وهو يعرف كيف ستجرى الامور . لن يسمحوا لاحد بالتملص والتهرب . فقد صفّوكم هنا لهذا الغرض بالذات . واذا كنت لا تعرف حقيقة نفسك كاملة ، فستعرفها اليوم . وستجلس عليها ، على هذه الحقيقة ، كما تجلس على وتد . سيقضون عليك بثقلك الشخصى . ولكن ليس دفعة واحدة . حتى آمر السرية موراфييف لا يزال حيا يرزق ، رغم الشهور والايام والدقائق التى انقضت وهو يهبط على ذاك الوتد . ليلة امس ، بعد سكر وعربدة ، صرخ فى المنام يخاطب الذين كان سلافا موراфييف بالنسبة لهم ابنا وزوجا : «لا تصدقى ، لا تصدقوا ، انا لست جلادا ، انا جندى ، انا فى صف الاعداء ، لكننى جندى !» . فى المنام يتذكر ، فى المنام تبدو كلمات «فى صف الاعداء» جميلة بليغة للغاية .

ولكنه استيقظ فلم يجد احدا . لا امه ولا زوجته لودميلا ، لا احد عند موراфييف ، لان سلافا موراфييف لم يعد موجودا فى هذه الدنيا . فالذى يحل محله هو شخص آخر نكرة مثله .

«كيف استطعت يا سلافا ؟ — سألت امرأة ترتدى نظارات مستديرة برعب شديد ساذج سذاجة القدماء . انها امه : — كيف سمحت لزوجتك ان تقتل طفلك — زوجته الشابة البيضاء البدن لحد مدهش اقدمت على عملية اجهاض ، لان زوجها سلافا موراфييف اخذوه للجيش ، وادخلوه المدرسة العسكرية فى الصف الثانى من معهد التربية ، «فشعرت بقلق شديد» .

فى المنام فقط يسمح آمر السرية موراфييف لهاتين المرأتين — امه وزوجته ان تعوداه ، فى المنام فقط ، فهو فى هذه الحالة عاجز عن منعهما وعاجز عن الاشاحة عنهما والفرار منهما : ولكن بالامكان العودة هناك واستعادة شىء ما . هناك وليس هنا .

والحياة واجبة طالما انت حى .

فى زمن ما كانت «الحياة» تعنى الدخول الى المستقبل باسرع ما يمكن ، تعنى النمو والسفر من القرية الى المدينة الكبيرة للتعلم والعثور على عمل لا يبعث الضجر مدى العمر ، والعثور على امرأة من هذا النوع لا تبعث الضجر مدى العمر ايضا . . . كل ذلك كان ينتظره آنذاك . فما الذى انتظره بالفعل ؟

فى فترة ما كان ينوى ان يعمل معلما . صحيح انه كان قبل ذلك يحلم بان يكون عسكريا . التحق بمعهد التربية لان كل عائلة موراфييف ، ليس امه وابوه فقط ، بل وعمتاه ايضا ، كانوا معلمين .

وفى تلك الاثناء اخذوا يجندون طلبة المعاهد واخذوه هو ايضا الى المدرسة العسكرية ، والتحق بها راضيا .

وعندما اندلعت الحرب فجأة لم يستطع سلافا موراقييف ان يخفى انفعال الشباب الذى يقرب من التباهى . فمن هو الآن اكثر ضرورة من الملازمين الاشداء المتحمسين ؟ ! فالعسكريون المتفرغون قليلون ، ثم ان الثقة بهم قد ضعفت .

لكنهم ابقوا كل تلاميذ مدرستهم فى ضواحى موسكو ، لاكمال تعليمهم وكأنهم لا يجيدون القيام بالشىء الرئيسى : الموت دون السماح للعدو بالتقدم . سقطت مينسك وسقطت غوميل ، وذكرت البلاغات ارقاما بخسائر العدو فى المعدات والارواح ، وليس مفهوما كيف يتمكن الالمان من الهجوم بعد كل تلك الخسائر .

وفى أواخر آب (اغسطس) جمعوهم فى القاعة الكبرى للمعهد السابق ، وظلوا ينتظرون وصول بلاغ هام . حان الموعد اخيرا ! . . لكنهم تلوا عليهم امرا غريبا بخصوص مسؤولية عوائل العسكريين عن الفارين من الخدمة والذين يسلمون انفسهم للأسر . . . ويتذكر موراقييف بانه لم يستطع باية حال ان ينسب هذا الامر الى نفسه والى عائلته . الاسر ؟ ما هذا الهذر ؟ كيف يجوز ذلك ؟

واخيرا وزعوا الملازمين والملازمين الاوائل على الوحدات التى تشكلت توا ، ونقلوهم بالقطارات ليلا الى الغرب . كان يستيقظ كل مرة ، ليس بسبب توقع قصف جوى جديد (فالقصف لا يخيفه اطلاقا) ، بل بسبب الانفعال لانهم مسافرون اخيرا للقاء اللغز الرهيب الذى يسمونه «الجبهة» او «القتال» . غفا وخيل اليه ان القطار توقف رأسا ، وتراكضت

خطوات ثقيلة وراء النافذة وصدر امر : «انزلوا بسرعـــة ، بسرعة !» . نور الصباح بانفجارات كابية ، وتعالى هدير على مسافة قريبة جدا . حتى صوت الرشاش مسموع . وتناثر الرجال من الحافلات واخذوا يسحبون المدافع من العربات المكشوفة ويقتادون الخيول . واصدر احدهم امرا واخذ الضباط يصيحون باصوات فتية رنانة ويقودون الرجال الى الحقل بشكل سلسلة : «الى الامام ، الى الامام» . لقد وصلوا بالقطار الى الجبهة رأسا ، يا للمعجزة ! قاد سلافا موراقييف مفرزته بمسيرة متسارعة لجوج للقاء العدو ومقارعته عارفا بان تلك هى اسمى اللحظات فى حياته ، فالقدر لم يظلمه ولم ينتقص منه .

كان التحرك بكامل العدة صعبا بين الهرطمان والكرسنة ، فالسنابل التى تنقعت بالامطار الاخيرة تلتصق بالاقدام ، وتسحقها وتقطعها الجزمات والاحذية المبللة بالندى : هذا هو المفروض . فالمفروض ان يكون التحرك صعبا وان تتلاحق الانفاس رهيبة منذرة ، منذرة بالذات . وها هى الصيحة ترتفع بعيدا من اليمين ، من الشمال : «فى سبيل ستالين ، فى سبيل الوطن !» . وركضوا ، وسبق الملازم موراقييف المرشد السياسى للسرية . وتلقف الصيحة ونشرها فوق الراكضين كالراية : «الى الامام ، فى سبيل ستالين !» . وردوا عليه : «يعيش !» .

يا ليتهم ينهالون هنا على العدو فيمزقونه ويدوسونه ويطردونه ، يطردونه ! ولكن ليس امامهم سوى شجيرات سوداء واشجار كمثرى متناثرة فى الحقل وحصان . رأى الجميع الحصان فى وقت واحد كما خيل اليهم . كان يقف هادئا تحت الشجرة ينتظر ان تعاوده الرغبة فى ان يدس بوزه فى الاعشاب الندية .

صاروا يفهمون . فانتقلوا من جديد الى السير العادى ،

لكن الاوامر دوت بمزيد من التشدد والصلابة . خشخشة سيقان الجزمات واللفائف وصلصلة المعدن والانفاس المتسارعة من مئات الصدور كانت لا تزال تبعد الحقيقة وتطيل لحظـــة الحدس والخجل والارتباك . . . وتنفس الصعداء وان كان فيه شيء من الغرابة . . . هذه الحراب الطويلة البارزة الخرقاء ، وهذه الصيحات الصادرة عن الضباط الشباب — والالمان في الخط الامامي وربما على مسافة خمسة كيلومرات — كل ذلك يكاد يثير الضحك والاقاويل «اثناء استعراض حصيلة التدريبات». الا ان الحصيلة يجب ان تكون بعد القتال الذى لم يلغه احد ، ولا يزال ينتظر .

نشـــب القتال فى ذلـــك اليـــوم ، بعـــد ســـت ساعات ، واذهلهم بهول المباغتة مع انهم كانوا ينتظرونه على ما يبدو وكانوا مستعدين له . استمر خمس دقائق ، وربما مائة يوم . كان الرجال يتصايحون ، وكانت الاوامر تصدر ، الا ان الامر والنهى فى الواقع كانا بيد الهدير وزئير الحديد وصراخ الالم والرعب . وعندما انتهى كل شيء ومرت الدبابات الالمانية الى جهة جانبية ، صوب السكة الحديدية كان سلافا مورافييف راقدا فى خندق صغير مطمور لحد النصف ، وقد احس بثقل الرمل الرطب على القدمين والظهر . كان ذلك الثقل رهيبا لكنه هو الملاذ والخلاص . وسمع صراخا ينبعث بمختلف الاصوات من تحت الارض — فى الخنادق الاخرى وعلى امتداد السفح — وميز منه كلمة واحدة تعلو من خلال لغط كهذيان طفل مريض : «ماما» .

شباب بين الثامنة عشرة والعشرين سحقتهم الجنازير ومزقهم الحديد يستنجدون بشخص واحد وينادونه جميعهـــــم

بكلمة واحدة . فهم لا يتذكرون كلمات اخرى .

ومن الغريب ان الذاكرة ما كانت تستعيد ابدا بسخرية واستهانة مريرة المعركة الاولى وصرخة الطفولة «ماما» . مع ان الكثير ، الكثير جدا انطبع فى الذاكرة على هذا النحو بالذات .

كل ما يتذكره سلافا مورافييف مما واجه قوة العدو الجبارة الهادرة هو الجنود والملازمون يحملون البنادق وسيارات الشحن القليلة والضباط الاقدم الذين يظهرون فجأة ويختفون بسيارات «ايمكا» ودبابات صغيرة .

الجيش الالمانى استولى على نصف اراضى القسم الاوربى من روسيا وليس ذلك وحسب ، فقد اقتحم فؤاد سلافا مورافييف وازاح كل ما كان باقيا فيه (الى الابد كما خيل اليه) . ولم تكن المعركة الاولى الا بداية ، بل لم تكن بداية خرقاء هوجاء تماما . كانت طبطبة قطيعة خائرة فى مستنقع دموى ثائر . ظل بدون مفرزة ، ثم قاد سرية ، سرية غيره ، ثم وجد نفسه من جديد بلا جنود ، اطلاقا . وبعد ثلاثة ايام قام مقام رئيس اركان الفوج . حاول طول الوقت ان يكون قائدا . وكان يبحث عن شخص ما اقوى منه واكثر خبرة واشد بصيرة ليكون تحت امرته . نعم ايا كان . وكما يتوق المؤمن الصادق الى ربه كان يتوق بكل جوارحه الى المكان الذى يتواجد فيه عادة شخص يتوقف عليه النظام والسلطة والادارة التى تكون قاسية بشكل غير مفهوم احيانا ، لكنها مرغوبة جدا الآن . بيد انها الآن بالذات غير محسوسة . وبدلها يحس بالعجز المعهود امام ارادة الغير . وهذا العجز المتبقى حرمه من الكثير ، الكثير جدا ، من الرغبات والاستعداد لتحمل المسؤولية .

اما القوة الداهمة فقد بدا وكأنها تتحكم بالملابسات .

كانت تضرب بانتظام وتوجيه على نطاق واسع ، على امتداد الجبهة . كانت هذه القوة تتجمع وتتحشد تارة هنا وتارة هناك ، هنا وهناك فى وقت معا ، وتضرب وتلوى وتحطم وتتقدم من جديد .

لم يجد سلافا مورافييف الآلة الدقيقة المنتظمة التى دربوه من اجلها ، بحث عنها ولم يجدها ، فتشبث فقط فى عجلة من عجلاتها ، عجلة صغيرة لا تستحق الذكر . وها هى معركته الاخيرة ، اذا كان يجوز القول انها معركته هو . ظهرت الدبابات الالمانية وباغتتهم على حين غرة مثلما فى المعركة الاولى . يا الهى ، ما اطول تلك المباغتة الاولى . انها لا تقاس بالساعات والايام ، بل بكل الشهور التى قضاها سلافا مورافييف فى القتال . المباغتة ، الا تعشش فى دخيلته هو؟

الدبابات تتقدم هذه المرة بمرافقة جنود البنادق الرشاشة . نيران الرصاصات الكاشفة كثيفة لدرجة جعلت الهواء نفسه كأنما يفرقع محترقا . كان ذلك نوعا من شقاوة البنادق الرشاشة . قفز مورافييف رئيس اركان الفوج (اى فوج ؟ فلول مفارز !) من تحت الجذوع المتطايرة ، من تحت السقف المنهار ، فقد اصابت مقره قذيفتان دفعة واحدة فى ركنيه . وحاول ان يوقف المقاتلين الفارين . زحف معهم ورقد فى الاوحال تحت وابل النيران . وفجأة رأى حصانا مسرجا من حصن الخيالة مربوطا وراء المستودع . جلده الاسود اللماع يرتعش ، وهو يراوح مرتدا الى الخلف حافرا الارض بقوائمه فى محاولة لتقطيع الوثاق . زحف قليلا ، ثم نهض واطلق النار مرة اخرى من تحت الحصان على شبح المانى لاح فى البستان ثم هرع الى الركاب . امسك حافة السرج بيد ، وباليد الاخرى التى تحمل المسدس تشبث بعفرة الحصان ودفع الارض برجله اليمنى وغرز رجله

اليسرى مع الركاب فى بطن الحصان . كانت سيور السرج مرتخية . فتدلى مورافييف عاجزا وقد سمع من الجهة الاخرى ازيز الرصاص يخترق بطن الحصان بتمطق وشهية . سقط على الارض واسقط الحصان امامه ولاحظ فى اثناء ذلك المانيا قصير القامة منحنيا على ركبتيه وهو يرشقه من بندقية رشاشة . . .

وهنا قبضوا عليه . ظهر الالمانى من ورائه واقترب منه خلسة كأنما كان يتربص به ويتعقبه طوال الوقت . كان مورافييف منبطحا وبطنه الى الارض كضفدعة سحقتها جزمة . شخب الدم الساخن من جثة الحصان وسال لزجا على القمصلة المطوية الطرف ونقع ظهر مورافييف وجنبه . كان يتلفت ويرفع رأسه كيلا يفوت اللحظة التى يصيبونه فيها ، كيلا يفوت الموت ، فلم يقدر له اكثر من ذلك . الالمانى قصير القامة لحد مؤسف ، وهو يرتدى نظارات ويشبه صيدليا او محاسبا . لمس بطرف جزمته بوز الحصان الممدود ، لكن نظرته وفوهة الغدارة مصوبتان الى وجه مورافييف . «ماذا ؟ هل نقتلك ؟» — مورافييف يستطيع ان يقسم بان الالمانى قال ذلك ، مع انه لا يتذكر صوته . اصبع معقوف غريب يستقر على زناد البندقية ، وهو مستعد للقيام بذلك . الا ان انف الالمانى المدبب الممدود استشعر حساسية . عدل الالمانى نظاراته ولمس شحمة انفه . وفى تلك اللحظة اسرعت يد الالمانى الى الغدارة من جديد وجحظت عيناه برعب . وسدد ضربة شديدة جدا من جزمته الى مرفق مورافييف المنبطح ، فغامت الدنيا فى عينيه ، وعندما عاد اليهما النور رأى مسدسه فى يد الالمانى . وكان قد قربه من نظاراته ليتفحصه ، فهو قصير النظر . يعنى ان المسدس كان بيد مورافييف طول الوقت ، لكنه لم يتذكره عند ما كان

مستلقيا منسحقا كالضفدعة .

لم تتلاش حالة العجز والانسحاق التام . ظلت حتى بعد ان اهتم الالمانى ، على ما يبدو ، بشارة الملازم التى يحملها موراقييف وساعده فى النهوض من تحت الحصان . وانتقل موراقييف من حلم الى حلم ، فوجد نفسه بين الجموع اليائسة ، بين طوابير الاسرى التى اقتادوها باتجاه الغرب . الاسر . انه نهاية كل شىء . فى مكان ما فى منطقة الفولغا التى انتقلوا اليها قبل الحرب تقيم امه ولودميلا وابوه وهم يفكرون فيـه ويأملون فى شىء ، ولكن الافضل لهم لو علموا بانه قتل . يجب الا يعرفوا بان سلافا موراقييف لا يزال حيا . حتى وان فر (هذه الفكرة لا تفارقه) لن يلغى احد واقع كون الملازم موراقييف سلم نفسه للعدو حيا . لقد لفظته الى الابد تلك الحياة التى بقى فيها كل الذين هو بحاجة اليهم . انه اسير سلم نفسـه ، ولا مفر من هذه الحقيقة . لقد حدث ذلك بالفعل ، ولن تفر منه ، لن تختبــئ فى جموع المعاطف ، فهى لا تحجبك . لان الجميع منبوذون مثلك ، كل هذه الجموع المتعددة الآلاف منبوذة . ليس فقط بالامر القاسى الذى سمعته اذنا تلميذ المدرسة العسكرية موراقييف ولم يتصور بانه يخصه شخصيا .

منبوذون ، منبوذون من كل ما كان قبل الحرب وكيف كان .

عائلة موراقييف تعتبر محظوظة فى معايير فترة ما قبل الحرب . فالويلات لم تمسها فى تلك السنوات * . ولكن

---

* المقصود حملة الاعتقالات فى عام ١٩٣٧ بحجة مكافحة اعداء السلطة السوفيتية . وفى الخمسينات اعيد الاعتبار للمحكومين .

اتضح ان ما لم يمسك شخصيا قد تسرب اليك فى الواقع وظل فى دخليتك دون ان تلاحظه . وعندما خيل للملازم الاسير ان العالم الذى لا يستطيع العيش بدونه والذى يتراجع وينهار قد نبذه ، هو سلافا موراقييف ، بنفس الحدة السابقة بل وبنذالة وخسة ، وتخلى عنه الى الابد بثأر وانتقام ، وافق على ذلك بسرعة غريبة وكأن الامور لا بد وان تكون على هذه الصورة . كل ما كان يعرفه عن الحياة (ليس فقط عن حياة عائلته) لم يترك له بارقة امل . لقد فقد الكثير جدا ، فقد اكثر من الآخرين ، لان عائلة موراقييف لم تمسها الويلات قبل الحرب . وربما لم يكن لدى الاسرى الآخرين ، او الكثيرين منهم ، مثل هذا الشعور بالكارثة الشخصية ، لدى اولئك الذين تعودوا على وضعية المذنبين بسبب تصرف الاب او الاخ او سواهما . مع ان احدا لا يعرف ممّ كان يعانى اولئك الذين «تلوثت سمعتهم» وبمَ يشعرون ويفكرون . ان تلوث السمعة من جديد اكثر خطرا عليهم ، ولكن هل يشغل الانسان باله بهذه الامور فى مثل هذا الوقت ؟

اما موراقييف فقد أثاره ذلك وشغل باله لا اقل من الجوع ، سواء فى اليقظة ام فى المنام .

صحيح ان ذاك العالم الذى يمكن ان يحاسبه على الاسر وعلى العجز وعلى سوء القتال قد انسحب ويواصل انسحابه الى الشرق . وما كان موراقييف يرفض عودته ، ان لم يكن من اجل نفسه ، فمن اجل الآخرين ، من اجل امه وابيه ولودميلا . . . وبعد ذلك تذكر نفسه ، وصار فؤاده الخاوى يمتلئ بالحقد شيئا فشيئا : نعم ، سيستقبلنا بنفس ذاك التشدد الذى لا يتسامح ، ولكن اين كان ، اين كانت

ارادته القاسية عندما كنا بأمس الحاجة اليها وعندما كانت الفوضى الوحشية تنهشنا جيوشا بأكملها ؟ !

اقتادوهم الى بوبرويسك ، وفى البداية حشروهم جميعا فى القلعة ، الا ان مبانى القلعة وقواويشها وباحتها لم تتسع للجميع . فوسعوا على عجل المعسكر الاول الواقع على مقربة منها . واقتادوهم الى هناك . ولاحظ مورافييف ان حراس المعسكرين يشتمون ليس بالالمانية وحدها ، بل بلغتنا ايضا عندما يلوحون باعقاب البنادق او الهراوات . فالبعض اغمضوا عيونهم عن كل شىء وصمموا على العيش رافضين الهلاك . ويمكنكم ان تتنصلوا عنهم ، فهم انفسهم لا يجدون صعوبة فى التنصل عن الجميع . ارتدوا بزة المنتصر وخلعوا البزة المتربة المحروقة ، بزة اليأس والاسر والجوع والاسهال والهزيمة . بالامس كنت تفتخر ببزة الملازم . اما الآن فقد غدت بزتك فى انظار الكثيرين شارة للاسر : يقودون الاسرى . الاسرى يعملون . قتلوا اسيرا وهو مسجى على جانب الطريق كومة من معطف رمادى . . . اصابنا هزال وحشى ، وعلانا الصدأ ، نحن الاسرى ، واتسعت عيوننا هائلة كعيون النساء .

لم يعد يصدق بانه كان فى زمن ما يحلم بشىء غير الخبز والحساء الساخن . . . .

بدأ من بعيد يفكر بالالمان وبتلك الآلة التى سحقت جيوش بلدان كثيرة وحولتها الى خليط رمادى تغص بـه معسكرات الاعتقال . تلك كارثة طبيعية ، منظمة ومرتبة بدقة ، لكنها كارثة طبيعية على اية حال .

وانت تحقد عليها بقدر ما تحقد على عجزك وعلى وجودك . . .

فى المعسكر الذى ينهشه التيفوئيد والغاص بالجثث التى لا يكفى الوقت لاخلائها تتجول كائنات حية ـــ جرذان . عيونها مركزة مهووسة كعيون الوحوش الكواسر . هذه الكائنات الرمادية تتحرك وينبعث الخطر من تحركها وتنشط وينبعث الخطر من نشاطها ، انها اكثر تحركا ونشاطا من سائر الاسرى الذين يسيرون كأنهم نيام . البشر ـــ الجرذان يطبخون فى اركان المعسكر النائية منحنين على القدور او العلب ليحجبوا النار . فاى دخان يرتفع يتعرض لاطلاق النار من الابراج ، ويتساقط «الطباخون» ، ويتساقطون فى كل الاحوال تقريبا على القدور بالذات . ذات مرة اختبأ سلافا مورافييف ، مورافييف المعلم ، مورافييف الملازم ، وراء الجثث وزحف الى اسير قتل توا وراح يبحث قربه فعثر على القدر المقلوب . ما كان يطبخ فى القدر صار يشوى الآن مع النشيش على الجمر البليل . رائحة الطعام صعقته واخترقت كيانه كله كالتيار الكهربائى . التقط شيئا لزجا وراح يلوكه ويبتلعه زاحفا . كان يتوقع اطلاقة النهاية والموت فحاول ان يمضغ ويبتلع قبل ان تحل النهاية . يا الهى ، ما اكثر الكائنات المتنوعة القابعة فى كيان الانسان . انها مقبرة كاملة . لكنها جميعا تعيش ، حتى المقبور منها فى الاعماق . فحاول ان تتخلص ، حاول ان ترمى سلافا مورافييف الذى التهم ولا يدرى ما التهم . . . عندما احرقوا المعسكر المجاور ، قلعة بوبرويسك ، وزحف الدخان الاسود الثقيل فوق نهر بريزينا ، فوق المدينة ، وعندما وصل معسولا دسما لزجا الى المعسكر رقم ١ حيث اخرجوا كل الاسرى من القواويش وصوبوا الرشاشات نحوهم ، وعندما بدأ مورافييف يتقيأ والغثيان يغلى فى معدته الخاوية ،

آنذاك حدس وتذكر من الروائح وسمح لنفسه بان يفهم حتى النهاية ما مضغه وابتلعه آنذاك . . .

لقد تعود سلافا موراقييف على رائحة لحوم البشر المشوية عندما خدم عند ديرليفانغير . فلو كانت الروائح العسلية المعروفة تؤثر عليه كالسابق لما استطاع ان يأكل شيئا على الاطلاق . والآن ايضا تفوح رائحة مركزة من وراء اكمة البتولا الطرية . فالسرية الالمانية الاولى تعمل هناك .

«يستطيع الانسان ان يبقى انسانا فى كل الاحوال» كان ابوه يكرر هذا القول بمناسبة وبغير مناسبة . يستطيع ، نعم . موراقييف واثق من انه افضل من الكثيرين غيره ممن هم فى مثل حالته . «افضل من غيرى فى مثل حالتى» . هذا يبعث على السلوى ويولد شعورا بالاحقية ، بل وشعورا بالزعل على اولئك الذين «لن ينظروا فى القضية . . .» .

آمر السرية الالمانية موراقييف يعرف عن نفسه ويتذكر دوما الكثير مما هو ليس رديئا ان لم نقل مما هو جيد تماما : ولنأخذ على سبيل المثال عدم تفكيره اطلاقا ، ولامد طويل ، بان يقدم على الخدمة عند الغالبين ، مع انه عسكرى محترف وقد ادرك قبل الكثيرين ان الالمان كسبوا الحرب . وعندما جرجر اقدامه نحو الطاولة التى ملأها الالمان ورجال التعبئة «المتطوعون» بالاطعمة ونصبوها وراء الاسلاك الشائكة عند بوابة المعسكر ما كان يفكر بالخدمة عندهم . كان يريد فقط ان يأكل مرة اخرى حتى الشبع ويجرب طعام البشر الطبيعى ، وبعد ذلك فليقتلوه . لكنهم اوقفوه مرة اخرى عند البوابة : «ما اسمك ؟» — «خيلتشينكو» — «الست ايفانوف ؟ . . .» — «كلا ، موراقييف . . .» . تورط كالطفل ،

وعندما قهقهوا ودفعوه وسقط على الثلج بكى . بكى لاول مرة ، وهو واثق من انها المرة الاخيرة ، خلال هذه الحرب اللعينة . مئات وآلاف من العيون الجائعة ، تتطلع من بعيد ، تحدق فى قطع الخبز الالمانى الاسمر ، فى دوائر السجق الاحمر واقداح الشاى — تقدم وكل واشرب ، واخلع بزتك المليئة بالقمل وارتد البزة الالمانية النظيفة المكوية . . . وقف تسعة اشخاص عند البوابة واعربوا عن موافقتهم على الخروج الى ما وراء الاسلاك الشائكة والتهام الطعام على مرأى من الجميع والانتقال من الموت الى الحياة ، وان كانت حياة غريبة مجهولة ، لكنها حياة على اية حال . وفجأة اومأ ضابط المانى ، يبدو انه يحب الارقام الكاملة ، الى موراقييف الخائر الذى كان جالسا فى الوحل ، فصاحوا به : «قل : شكرا بالالمانية ، وقف معهم لتكون عاشرا» .

لم يغفر لهم ذلك : كلا ، الوقت يكفى دوما لاقطس وانتهى . سأشكركم . سأجعلكم تسيرون تحت امرتى . ها هم الآن طوع بنانه ، نفس ميلنيتشينكو وجميع رجاله المتعصبين يعبسون ويكشرون عن انيابهم كالكلاب لكنهم طوع بنانه . ميلنيتشينكو هذا كيف سيتصرف لو حل محل موراقييف ؟ انه يحلم ليل نهار فى الحلول محله . . .

طبعا ، موراقييف ايضا يذهب الى قرى مثل بوركى ، ويؤدى ما هو ملزم بادائه بحكم وظيفته الالمـانيـة ورتبته . ولكن لا اكثر من ذلك . الا ان آمر الكتيبة صابر عليه يتحمل ويغفر له ما لا يغفره لغيره . فان مكافحة الانصار ليست كمكافحة النساء والاطفال . وفى هذا المجال بالذات يحتاجون الى موراقييف الذى ينظر الى الانصار ليس كما ينظر

اليهم الالمان . ولذا يستطيع ان يعلم الالمان شيئا ما . فالالمان واثقون جدا من حدة نظر الانصار وقوتهم . فمن الصعب جدا عليهم ، وهم الغرباء على كل شيء هنا ، ان يتصوروا انفسهم فى محل العدو ، لاسيما اذا كان عدوا لم يتقمص طبيعة الالمان ولم يدخل تاريخهم ابدا . الا ان موراقييف يعرف قيمة كل الخرافات والاساطير . فقد عرف بتجربته الخاصة واقع الامور الفعلى . وهو لا يخشى هؤلاء الكولخوزيين والتلاميذ والمعلمين وبنادقهم العتيقة ومناشيرهم ومفوضيهم . يوجد بينهم مسلحون محترفون طبعا ، ولكن ماذا يستطيعون ان يفعلوا هنا اذا كانوا هناك فى الجبهة — فى الجيش ! — قد عجزوا عن فعل شيء ؟

فى البداية كان موراقييف ينظر الى الالمان بحسد العسكرى المحترف : ما اعظم هذه الآلة . لم يكن يهتم بمناشيرهم وجرائدهم باللغتين الالمانية والروسية ولا بدعاياتهم عن «فكرة الاشتراكية الوطنية» و«اوربا الجديدة» و«القائد العبقرى العظيم» ، فتلك حكاية عادية يستخدمها الجميع ، بل هى حكاية عسيرة الهضم اكثر خشونة وجهالة . لكنه رغب فى ان يرى عن كثب كيف تتحرك عتلات تلك الآلة المنظمة التى يعمل فيها القوى والجبان والشجاع بالشكل الذى يريده القادة والقيادة . اما ان الالمان ليسوا من الشجاعة بمكان وليست غالبيتهم من امثال «زيغفريد» ، وانهم كسائر الناس يريدون ان يبقوا على قيد الحياة ولا يهلكوا فذلك ما ادركه بسرعة منذ المعركة الاولى وهو بينهم . حتى انه شعر بالضجر عندما رأى تلك الحقيقة . ربما ذلك هو اللازم ، ولكن عندما يصدر الامر تراهم يبذلون كل الجهود ، سواء جبنوا ام لا ، لتنفيذ امر القائد . .

وقد علموه هو ايضا واعدوه ليكون جزءا من تلك الآلة الرهيبة . وقد صدق بكل جوارحه بالقيمة المطلقة للانضباط والتنفيذ والصمود . ان الحرب التى بدأت بشكل مؤسف قد انتزعته وقذفته تحت عجلات آلة غريبة ، فكاد يهشم رأسه على حديد الغير ، لكنه نجا . وهم الآن يقشطون منه الاصباغ القديمة ويطلونه من جديد باصباغ اخرى . لكن المسألة لا تنحصر فى الكلمات . فان موراقييف ليس فلاحا بيلوروسيا لا يملك من التعليم الا اربعة صفوف ، وليس متعصبا من امثال ميلنيتشينكو ، حتى يدسوا فى فمه علفا مضغته الافواه . لقد اختار مكانه «كجندى فى صف الاعداء» ، طالما حدث ما حدث ، واقدم على ذلك ببرود ذهن دون ان يخدع نفسه بالكلمات الجديدة ، بل انه يحترم نفسه على هذا الموقف الواقعى ، ويفتخر بنفسه بعض الشيء . لم يكن يلح على تعيينه آمرا ، لكن سلوكه كعسكرى يحترم نفسه جعل ديرليفانغير يلتفت اليه . فى البداية سأله بواسطة المترجم عن رتبته فقط ، وواصل سيره ، ثم عاد فجأة : «التحصيل العلمى ؟» . ذكر له معهد التربية . القى آمر الكتيبة على الملازم — المعلم نظرة فيها فضول شرير : «هل تحب الاطفال ؟» . واعجب آمر الكتيبة بالاسم الثنائى — «موراقييف — خيلتشينكو» وقال «طيب» ، وفى اليوم التالى عهدوا اليه بمفرزة . ومنذ اليوم الاول اخذ يصقل مفرزته ويشذبها . ولم يكن موراقييف يهتم بالانتماء القومى لافراده وبما اذا كانوا عسكريين او من الشرطة المحليين . فهؤلاء «نحن» واولئك «هم» ، ويجب «علينا» ان نبين ونثبت بأننا نستطيع ان نكون لا اسوأ «منهم» ، فى الاصطفاف وفى الرماية ، وخصوصا فى القتال . فليحترمونا

بهذه الطريقة على الاقل ، الآن على الاقل . وكان يغازل المشاعر : «هل نريهم يا شباب ؟ ستريهم خطانا» او «فلننشد «يا بنية ، يا فتاة !» هل نريهم ؟» .

وفى الايام التى تشبث فيها يائسا بالآلة التى تدحرجت وتفككت ، استولت عليه رغبة شديدة حتى الالم ليكون ملتحما بآلة متينة قوية ظافرة . وعندما كان فى طوابير الاسرى اللانهائية الزاحفة مقابل مشاة الآلية الالمانية كان لايزال يتطلع مستفهما : ما هذه القوة الهائلة ؟ من اى معدن هم ؟ اما الآن فهو يراهم ، يرى الالمان ، عن كثب ، حتى انه صار يقود بموجب ميثاقهم . وهو ميثاق عادى كانت بروسيا قد اهدته فى زمن ما لاوربا كلها ، لكنه ظل بالنسبة للآخرين كتابا تعليميا مملا ، بينما هو بالنسبة للالمان صورة اشعاعية دقيقة لقلبهم ولعمودهم الفقرى . انهم يعملون بموجب الميثاق لان كيانهم منظم على هذه الصورة . وليس بشكل يعمل فيه كل على هواه ، ولا ينصاع الا بضرب العصا . وقد اضطر هو الى ارغام رجاله على العمل ، فانصاعوا له وعند ذاك لم يعد هو بالنسبة لهم آمر مفرزة . بل «سلافا» ، صاحبهم ورفيقهم . انه يبذل جهده ليس من اجل نفسه ، بل لكى يشعروا بانهم بشر ويحترموا انفسهم من جديد .

فى البداية جعل رجاله يبلغون مستوى الالمان فى الدربة والاتقان والانضباط . بل كان من اللازم ان تنمو العضلات على السواعد والابدان النحيلة لاولئك الذين اجتازوا معسكرات الاعتقال . لكنه اطلع على شؤون الالمان عن كثب ، حتى شعر بالاحتقار لهم واخذ ذاك الاحتقار يشتد اكثر فاكثر . فهل يجوز احترام هذا الحرص النسائى على صغائر الامور

وهذا البخل فى الطعام والجشع فى الطرود وفى مختلف الحاجيات ، رغم اعتقادهم الراسخ بانه لا يوجد فى الدنيا من هم اكثر منهم نزاهة وثروة وكرامة . مزقوا احشاء العالم ، فاين ذهبت كل تلك الثروات اذا كانوا بحاجة لارسال بطة من بيلوروسيا او ثياب اليهود الى المانيا ؟ من المؤسف ان ترى اولئك الذين أسروك والتحقت بالخدمة عندهم يجبنون مرتجفين لمجرد ان يسمعوا باحد الانصار . هؤلاء الشرطة القادمون من برلين ليزرعوا الخوف والهلع فى قلوب «الشقاة» ، سيريهم موراقييف كيف ينبغى ان يكافحوا الانصار ولا يفكروا فى الخلاص بجلودهم ، ناهيك عن التفكير بالبطة . ولو كان سلافا موراقييف المانيا فهل كان سيقاتل بهذه الصورة فى ظل هذه الآلة . فليحترموه اذن جنديا ، اذا كان لا يريدون ان يحترموه روسيا . وعندئذ ستسير الامور وسيتغير ما يتغير . . .

كانت هناك حادثة كادت تنتهى بكارثة بالنسبة لموراقييف ، لكنه اثبت بانه لن يحترم الالمانى ايضا لمجرد انه المانى . فاذا كان جنديا جيدا فهو يحترمه ، ولكن ليس لمجرد انه المانى . وربما كان ديرليفانغير يعرف بتلك الحادثة ، لكنه لم يلمح اليها مرة . والا لكان قد زوج «معاونه الروسى» من «الارملة» . كيف لا و «الاجنبى» صفع احد الالمان . الضباط الالمان يحق لهم ان يصفعوا الجنود ويبصقوا عليهم ، حتى ان الجنود تعودوا على ذلك . ولكن ما افظع ان يفعل ذلك شخص غير المانى حتى وان كان آمرا .

حدث ذلك فى بداية مايو . (كانت يده معلقة فى حمالة من الشاش طوال اكثر من شهر ، وبعد ذلك

تعود عليها بدون الخنصر والبنصر ، مجرد جلد وردى رقيق مثل الورق المشمع ، وهو يشعر بحساسية فيه الآن . . .) . ارسلت سريتان للقبض على شباب الناحية . فهم لا يريدون السفر طوعا الى المانيا سواء استدعيتهم ام لا .

وصمم مورافييف فجأة على القيام بغارة فى ناقلة مدرعة الى الاعماق التى لم يثيروا الرعب فيها بعد . وقطعوا زهاء مئة كيلومترات . كان السائق الالمانى وضابطان آخران لا يستحسنون هذه المخاطرة . ثم ما الذى يمنعهم من التفكير بان مورافييف ينوى (مثلما فعل زاغايداكا فى حينه على الجسر الاحدب) ان يختطفهم ويسلمهم الى «العصابات» فى الغابة ؟ وكلما اشتد خوف الالمان ازداد استبشار مورافييف . اقتحموا قرية فوجدوا فيها حفلة زفاف . كل الشباب مجتمعون . وهذا ما يريده الالمان . قبضوا على العريس والعـــــروس واصدقائهما . ولم يتم ذلك بسلام . فالكل سكارى ، وكيف تمر الاعراس عندنا بدون مشاكل ؟ جمعوهم معا وحبسوهم فى منزلين . ولو كان شخص آخر بدل مورافييف لاختطفهم بما كانوا فيه ، اما هو فقد سمح للنساء بان يهيئن لهم امتعة للطريق البعيد .

من يدرى كم من الناس هناك فى روسيا — وهنا ايضا — سينقذهم اشخاص مثل مورافييف . نعم ، سلافا مورافييف سفاح ، نعم مورافييف آمر السرية جلاد ! «يستطيع الانسان ان يبقى انسانا فى كل الاحوال . . .» . طبعا ما كان ابوه يقصد احوالا مثل هذه ، ما كان يفترض بل ما كان يصدق بان ابنه سلافا يمكن ان يصير الى ما صار اليه ويفعل ما يفعله .

ولكن هل كان احد بالامس قادرا على تصور ما حدث وما جرى خلال هذا العام ؟ فطالما حصل ما حصل لا بد ان يتحمل شخص ما افظع الاعباء فيظل جنديا بين الجلادين ويغدو قدوة ويساعد ابناء جلدته فى آخر المطاف . كلا ، ليس كما فعل زاغايداكا ، فما جدوى اقتياد حظيرة من تسعة اشخاص ؟ وما نفع ذلك حتى اذا قتلوا عشرة ألمان قبل ان يهلكوا ؟ فالحرب خاسرة فى كل الاحوال . وتلـــك التصرفات تجعل المنتصرين اكثر قساوة . اهم شىء الآن هو المصير والحياة ، ليس مصيرنا وحياتنا انا وانت ، بل الملايين العديدة التى يسمونها بالشعب . فماذا يستطيع مورافييف وامثاله ؟ نعم ، انهم فى صف الاعداء ، يساعدونهم فى انهاء الحرب الخاسرة باسرع ما يمكن . وكانت هناك رؤوس واذهان تقول : عندنا سلاح ، وسنشكل خفية جيشا روسيا كاملا وسيحسب الالمان لنا الحساب ، سيضطرون . سخافة . خيال . ليس هناك غير طريق واحد هو جعل الالمان يحترموننا . نحن مضطرون الى القيام باعمال لا يطيقها حتى الشيطان . ولكن يمكن ان يبقى الانسان فى كل الاحوال انسانا يستحق الاحترام . ينبغى ان نظهر قيمتنا مع اننا خسرنا الحرب . يجب ان نقنع الالمان باننا جديرون بالتعامل فى الخدمة وفى الحرب على حد سواء . فى حين لا يزال امامهم نصف العالم . وسيكونون بحاجة الينا ونحن بهذه الصفة . سنقتل معهم بضعة آلاف لننقذ الملايين فيما بعد . فالأهم لا يزال امامنا ، الاهم هناك .

عندما كانت النساء المولولات الباكيات يحملن الالبسة والاطعمة «للمجندين» الى الناقلة المدرعة عزم مورافييف على

التجول في القرية . فهو يحب دخول المنازل والتحدث مع السكان المحليين والاستماع اليهم . انه يتطلع الى نفسه بانظارهم ومن خلالهم ، فيحس على نحو افضل وأشد بما في دخيلته ويتعرف على هويته وحقيقته . انه خائن وعدو بالنسبة لهم ، لكنه لا يقابلهم بنفس الحقد والضغينة . ولا يستطيع ان يخبرهم لمَ يرتدي بزة الضابط الالماني ، بزة الاس اس ، ولو اخبرهم لما استطاعوا ولما ارادوا ان يفهموه . لان المقدر لهم ان يموتوا هم من اجل الآخرين البعيدين . ويمكنه ان يفهمهم . لعل غيرهم سيفهمونه في وقت ما . . .

لم يتسن له ان يدخل منزلا ويجلس مع الاهالي في تلك القرية . فقد دوى هدير ورأى بنفسه كيف بصقت الارض وحلا في البستان . عجيب ، عندهم مدفع ! هرع مورافييف من الحوش الى الشارع مرحا وأمر : «اصعدوا السيارة جميعا» . ولعلع الرصاص فوق القرية . فقد انهال رشاشان بوابل متحشرج من الرصاص من وراء التلة . وفي تلك اللحظة اقشعر بدن مورافييف ، فقد رأى الناقلة تنطلق وتدلت من متنها قدمان مرتجفتان كأرجل الضفادع . اسرعت الناقلة المدرعة تنهب الدرب ، فقد ترك السائق الالماني الجميع وفر ، ترك حتى احد الضابطين . تراكضوا عبر البساتين دون ان يسمعوا اوامر مورافييف ولا شتائمه الالمانية والروسية . وجاء الرصاص من الجانب الثاني ايضا ، من جهة المقبرة . وشعر لاول مرة بالعجز والضعف والتفاهة ليس فقط تحت القصف الالماني ونيران الرشاشات الالمانية . دوى انفجار وعضت شظية اصابعه . رفع يده ليتفحصها فرأى شيئا احمر يتدلى منها .

ولم يفهم في الحال بان تلك هي اصابعه تتدلى معلقة بالجلد وحده . . . وظل على ذلك الحقل اربعة قتلى ، وربما جرحى وليس قتلى ، ولا احد يخليهم . وجرى تضميد مورافييف واثنين آخرين على عجل بعد ان وصلوا الى الغابة ، كان الرعب والهياج يستحثان مورافييف ويدفعانه الى ان بلغ الهاربون الجسر ورأوا ناقلتهم المدرعة قرب مخفر الشرطة . كان السائق الالماني يدخن ويتطلع اليهم بوقاحة وجبور . كان مورافييف يعرف ويحس بانه اذا لم يفعل ذلك يفقد احترامه لنفسه الى الابد . ويفقد كل شيء ، كل ما كسبه بشق الانفس بعد المعسكر .

تطلع الالماني بفضول الى يد مورافييف الملفوفة بالقمصلة المدماة وكأنه يقدم له هدية . وبالفعل فقد قدم له . خفض يده اليمنى وصفعه بيده اليسرى السليمة على اذنه صفعة شديدة جعلت صدغه يرتطم بالركن الحديدي لسيارته فاقعى على الرمل وغارت عيناه الزرقاوان في جبهته .

كانت تلك لحظة متميزة بالنسبة لمورافييف . فهو لم يصفع مجرد شخص جبان هارب ، بل صفع المانيا جبانا ، المانيا هاربا . انا اخدمكم بالحق والباطل ، ولكنني من الآن فصاعدا اعرف قيمتكم وقيمتي .

فيما بعد كرموا هذا الالماني بوصفه جريحا في مكافحة «العصابات» . وبذا اخذوا من خاطره . فتصور بالطبع ان الصفقة انتهت لصالحه ، لكنه لا يعرف بتلك الحرية والطلاقة الفرحة اللتين منحهما لمورافييف بفراره كألماني وموافقته على التكريم كألماني ايضا . نعم ، الانسان يبقى انسانا في كل الاحوال ، اذا كان انسانا . ولا احد يدري

من الذى ينقذ الآخرين ومن يبيدهم . قرية بوركى هذه لن تبقى حية على ارض الانصار على اية حال . فيجب التفكير بملايين الناس الآخرين وبالمستقبل ، ولذا لا تجوز استثارة المنتصرين طالما خسرنا الحرب واخفقنا فى القتال . فلماذا اخفقنا ؟ ما اسهل محاسبة مورافييف على ذلك ! اركض ، اهرب ولا تلتفت بمثل هذا التهديد والحرص وعدم التسامح . . .

كلا ، لم يكن الامراء والمحاربون الذين خدموا عند الخانات الاجانب حمقى او اغبياء . اجل ، اريقت دماء الروس واحرقوا واعدموا فى الامارات المتمردة . لكن الشعب ظل سالما . فان روسيا موجودة ليس لعام او لعقد من السنين ، بل الى الابد . ولو جازف الجميع بعد الهزيمة واندفعوا بايد خالية وقوى خائرة فما الذى سيحصل وماذا ستكون النتيجة ؟ ابادة الجميع عن بكرة ابيهم . . .

ديرليفانغير لا يفارق كتاب «جنكيزخان» ، وقد عرضه على مورافييف ، فى اغلب الظن ، لان عليه توقيع الرايخفوهرر هملر . آمر الكتيبة لم يكشف عن مصدر الكتاب الذى عليه توقيع هملر وعن الكيفية التى وصل بها الى مكتبة ديرليفانغير فى موغيليف ، لكن سيميرمان العليم بكل الاسرار كشف عن ذلك . فليس ديرليفانغير الشخص الوحيد الذى اختصه هملر بهذا التكريم ، فهو يهدى بنفسه هذا الكتاب او يهدونه باسمه لكل كبار الضباط .

والالمان يقرأون «جنكيزخان» لغرض فى نفس يعقوب . اما مورافييف فقد فكر فيما يخصه عندما رأى هذا الكتاب وتصفحه . نعم لم يكن اولئك الامراء «الخونة» حمقى او اغبياء . فاين جنكيزخان وفتوحاته ومقراته الآن ؟ اما روسيا

فهى قائمة حية . هل يعود الفضل فى ذلك الى معركة كوليكوفو؟ وهل كنا سنعيش حتى تلك المعركة لو لم يتحمل عبء الخيانة اولئك الذين طوى النسيان اسماءهم ونزلت بهم اللعنة ؟

مورافييف يفكر فى ذلك ويطيل التفكير ، ولكن ما من احد يتحدث معه فى هذه المواضيع ، ما عدا سيميرمان اذا تصارحا . فهو ايضا يعانى من المصاعب بين ابناء جلدته ، كالغراب الابيض .

آمر السرية سيميرمان يبحث عن الكتب بعد الكأس الثالثة ، مثلما يبحث غيره عن المشاكل . وهو سريع التأثر للضيم لانه اوطأ من الآخرين رتبة واقصر منهم قامة . بزته بجمجمتها وعظامها كبزة الاطفال تقريبا . لكنه من حيث سعة الاطلاع والمعرفة يتميز عن كل ضباط ديرليفانغير . الكتب فى شقة ديرليفانغير الكبيرة فى موغيليف معروضة فى غرفة الضيافة ليتمكن الجميع من رؤيتها ، على ما يبدو ، فلا ينسوا الماضى الجامعى لآمرهم . ثم ان ديرليفانغير نفسه يحب ان يذكر الآخرين : «درست مع هذا الابله (بول) فى جامعة ليبزيج . كنت فى الصف المنتهى وكان فى الصف الاول . لكنه انتهى قبلى ، طردوه» . ويتحدث دون اى تركيز (فينشأ انطباع وكأنه لا يسمع حتى صوته الشخصى بشكل واضح) فيقول ان الطلبة حسب التقاليد القديمة ينشون وجوه بعضهم البعض بالحراب الطلابية وان بول يحب كتابة اسمه فى بارات الجعة على السقف وليس على الجدران .

— القرد المحبب عند ربنا — يغمز سيميرمان الصغير بنظارته المستديرة لمورافييف . فمع ان هذا اعلى رتبة منه فى الاس اس الا انه روسى ، اى انه اوطأ منه بكثير ،

ولذا فان سيميرمان مستعد للتحدث معه على قدم المساواة . سيميرمان يتألم جدا لاخفاق محاولاته فى المشاركة فى الحديث الذى يخوض فيه الالمان باصوات عالية ، ولذا يقود مورافييف الى رف الكتب ومن هناك يرمى مائدة السكارى بملاحظات لاذعة . ويستقبل الداخلين ويشيع الخارجين بكلام من قبيل :

— جاء (ذهب) حمار رائع شجاع .

وفى الآونة الاخيرة فقط اخذوا يدعون مورافييف لحضور المآدب الودية ، فصار «الاجنبى» الوحيد الذى يدعى لحضورها . وقد كسب عطف ديرليفانغير ، حتى ان هذا الاخير اخذه وحده ذات مرة الى شقته ، وهناك رأى ستاسيا خادمة ديرليفانغير ، اللغز العجيب . انها نحيفة كبنت مراهقة ، اسنانها ناصعة البياض وابتسامتها ذات شبه مدهش بشخص يعرفه ، حتى ان مورافييف ارتبك ، وستاسيا خجلت . . .

— تفضل — قال ديرليفانغير بالالمانية وانفرجت شفتاه عن ابتسامة عريضة ملتوية ، ثم اضاف بالبولونية — : على الرحب والسعة ! . .

ديرليفانغير يتكلم بالالمانية وحدها دوما . لكنه هذه المرة نطق بخليط الماني سلافى . فان عبارة «على الرحب والسعة» البولونية جاءت على لسانه دارجة أليفة معتادة . (جلب ستاسيا من ضواحى لوبلين البولونية) .

كلا ، يمكن مع ذلك ارغامهم على احترام «الاجانب» بعرض القدرة على العمل والمهارة بلا مذلة ولا خوف من الموت . فلنأخذ سيميرمان ، مثلا ، انه يحاول ان يستعرض امام مورافييف تمارينه الفكرية بكل حرص وعناية . يعنى

انه يريد ان يحظى بتقدير من جانب هذا «الاجنبى» .

— هل قرأتها — سأل سيميرمان وهو يمرر يده الصغيرة على اضلاع الكتب بحب وشغف . يأخذ من الرف الكتاب الذى يريده ويتفحصه بمنتهى السرعة ويغرز انفه فيه ويقرأ دون ان ينظر الى الصفحات تقريبا .

«ربما انا اعرف افضل من الجميع لماذا يضحك الانسان وحده . فهو الوحيد الذى يتألم من الاعماق لدرجة جعلته مضطرا الى اختراع الضحك . ان اكثر الحيوانات تعاسة واكتئابا هى فى الحقيقة اكثرها مرحا . . .» .

برقت عينا الالمانى الصغير بابتهاج من وراء نظارات الاستاذية وكأنه تجرع كأسا كبيرة .

— هذا ماكتبه نيتشه الذى لم تقرأه طبعا . وبالمناسبة فهم لم يقرأوا شيئا (اشار الى الشلة التى تغمغم فى محاولة للانشاد) . حفظوا عن ظهر قلب كلمات قالها آخرون واكدوا ان الجرمانى العظيم يلعن اليهود بسبب النصرانية التى اخترعت من اجلنا . دسوها خصيصا لحرمان الاجناس الاخرى من ارادة السلطة وتسليمها الى المرضى والجهلة . وكيلا توجد اجناس وشعوب قوية غيرهم . ولكن ما اشد الاسف وما افدح الخطأ اذا احرقوا الانجيل ايضا . ان حرق الكتب — مهما كانت — هو فى اقل تقدير نكران للجميل . انه حماقة ونكران للجميل . فهؤلاء (والقى نظرة شزراء على الشلة) يحترمون الافعال فقط ، ولا يعرفون ولا يتصورون المنفعة التى خلفها غوتنبيرغ واولاده — الكتب ، كالانجيل ، مثلا ، اذا قرأناه بذكاء ومن وجهة نظرنا . لقد عمل الكثيرون من اجلنا وبدلا عنا ، حتى اولئك الذين كانوا يتصورون بانهم يكافحوننا .

لانك اذا نظرت الى الهاوية تجد انها هى ايضا تنظر اليك وتغوص فيك . لقد التقطنا فقط السكاكين التى نثروها بكثرة من زمان . وليس مهما لمن حد نيتشه او غيره سكاكين مفارقاته القاسية . المهم ان تلك السكاكين حادة . وهذا ما حفظته الكتب ونقلته الينا . كانت لدى جدى ، القس الكاثوليكى كتب اكثر مما فى سريتنا من خراطيش وقنابل . وبالمناسبة كان جدى يقيم فى ريغا قبل ان ينتقل الى المانيا ، الى مدينتنا غاليه . وقد اضطر الى التخلى عن الكهنوتية ، بسبب الخادمة التى ولدت له ابى . ثم انه كان يقرأ الانجيل بانتباه اكثر من اللازم .

اخذ الانجيل من الرف وكان بالالمانية ، فاعاده الى موضعه ، واخذ النسخة الروسية (فهما على الرف معا) .

— ها هو . . .

لكنه اهتم بالكتابات الملتوية بالحبر على هوامش الكتاب : فى تاريخ كذا اقتادوا البقرة الى الثور للتلقيح . «كيلة من الجودار مقابل ثور» وكتابات اخرى بخصوص الشؤون المنزلية . . .

— شىء منقطع النظير . كلا ، انتم وثنيون . الالمان يؤمنون بنزاهة اكثر ، على طريقة البروتستانت . تخليصهم من ذلك اصعب . وهل تظن ان التعامل معنا اهون على الفوهرر ؟

وهنا استفسر من بول عن الجودار والثور ، ولم يفهمه ، بل ولم يسمعه احد غير مورافييف . واوضح لمورافييف : «سألت بول ماذا دفع مقابل العنزة او الخنزير ؟ ام انهم دفعوا له مثل ذلك الثور ؟» الجميع يعرفون ان بول وقع فى معسكر الاعتقال لاسباب غريبة تكاد تكون منها مضاجعة الماشية . وهذا الموضوع لا يملون من مناقشته فى حفلات ديرليفانغير .

تصفح سيميرمان الكتاب وعثر بسهولة على الصفحات التى تهمه وراح يقرأ عن الاله القائد ، عن الاله الخالق الذى سلم الشعوب الاخرى الى شعبه «ليبيدها» : اقتلوا الجميع صغارا وكبارا ، ورشوا الارض بالملح («مكتوب بالحرف الواحد «ليبيدها» و «رشوا الارض بالملح») «واحتلوا فى تلك الاثناء كل مدنه وسلطوا اللعنة على كل المدن وكل الرجال والنساء والاطفال وذبحوا الجميع ولم يوفروا احدا . . . ما حدث آنذاك يحدث الآن ، وما سيحدث كان قد حدث . وسيعيد الخالق الماضى» . وكان يحرص كل الحرص على شعبه المختار ويعاقب الابناء على جريرة الآباء حتى ثالث ورابع جيل . واذا صنعوا لانفسهم صنما حتى وان كـــــان من حجر قال : «نعم ، يريدون التخلص منى» . وامر افضل المختارين : «فليضع كل منكم سيفه عند فخذه ويجوب المعسكر من ادناه الى اقصاه ذهابا وايابا ، وليقتل كل واحد منكم اخاه وكل صديق صديقه وكل قريب قريبه» . «فان شيطاننا اكثر رأفة» .

ذات مرة صاح جارنا الصيدلانى الباكستانى على جدى . كان جدى مستاءا من التعارض بين العهد القديم والعهد الجديد ، بين الاخلاق القديمة والجديدة . يقول الاله القديم لشعبه المختار اذهب الى فرعون واطلب منه كيت وكيت ، اطلب منه ذهبا وفضة وسأجعل قلب فرعون قاسيا فيرفض طلبكم ، وسأسلط على شعبه وارضه البرد والموت والجراد . سأجعله يرفض وسأعاقب شعبه على ذلك ! كيف يجوز ان يتضمن كتاب واحد : «السن بالسن» و «لا تقتل» ، «إثأروا حتى سابع جيل» و «سامح عدوك ؟» جدى لم يقرأ

نيتشه . والقرن التاسع عشر عموما (والالمان خصوصا) ما كان يصيخ السمع للرجل الذى حل هذه العقدة المسيحية . كان اول من تجرأ على القول صراحة وبأعلى صوته : لا داعى للاخلاق ايا كانت . الناس الذين اختاروا انفسهم فى غنى عنها ، فى غنى عن الاخلاق القديمة والجديدة . فالطبيعة لا تعرف الاخلاق . وصعق التيار القلب والعضلات : «الآلهة ماتوا . وستنجبون انتم الذين اخترتم انفسكم شعبا مختارا ، وسينجب هذا الشعب الانسان الفائق !» . مللنا من الثرثرة الفارغة عن الخير للجميع . فالى متى ؟ لكننا لم نر مخرجا . فالفوهرر لم يكن موجودا بعد . الا ان الكتب موجودة . نعم كانت موجودة ، وها هى . لكن احدا غيرنا لم يقرأها بالشكل اللازم . وفهمنا الى الابد ان الجيد هو ما ينفع حركتنا . وما ينفع حركتنا اكتشفه الفوهرر .

ولمس بيده الصغيرة اضلاع الكتب المختلفة الالوان ، لمسها من جديد برقة وحنان ، حتى انه وقف على اطراف اصابعه ليلمس كتب الرفوف الاعلى .

— لقد اشار علينا بما يجب ان نفعله . لا تبحثوا فى النظريات ولا فى الاقتصاد السياسى ، انظروا الى انفسكم ولا تجبنوا ، انظروا الى الاعماق . انطلقوا واطلقوا ما هو حى . لا تخجلوا من انفسكم . تخلوا عن الحرير وتمتعوا بنشوة السكاكين . هل تتذكر كاتبكم دوستويفسكى ؟ القاتل فى روايته يلف الموس بقطعة من الحرير . فمن انقذت قطعة الحرير الخجول تلك ؟ رياء مسيحى لا اكثر . رياء برجوازى ، رياء ماركسى .

كان ضابط الاس اس ذو النظارات والبزة الطفولية ينقل

الكتب من يد الى يد كعامل طابوق ماهر ويقلب الصفحات باصبعه المبلل باللعاب ، ويشق طريقه باصرار الى اذنى مورافييف ووعيه عبر غمغمة السكارى واناشيد الالمان الآخرين .

العطف ومؤاساة ذوى القربى والطيبة — هل جئتم بشىء جديد نافع ؟ كل ذلك شانتاج من جانب الضعفاء والبؤساء . الطبيعة لا تكذب . فهى تقول للضعفاء والمرضى بصراحة : يجب ان تهلكوا . فى حين انهم استأجروا محامين يثرثرون قرونا وآلاف السنين عن العطف والمؤاساة لكنهم يزيدون الآلام ويضاعفون المصائب على الارض . فالواحد منا يعطف على الآخر ، والحاصل هو تعيسان بدلا من تعيس واحد . تلك عدوى ووباء . فيجب عزل المتألمين كالمجذومين . الاعصار يضحك اذا دغدغته يد رقيقة . كذلك الفكرة العظمى عندما تتحرش بها الاخلاق . الحضارة كلها نمت من القساوة الملهمة ، الملهمة بالذات ، وليس من مجرد القساوة . (والقى نظرة احتقار على الشلة) . الهدف العظيم لا يتحقق الا بجريمة عظمى ، ضد ما يسمى بالاخلاق . ولكن لا يجوز التبسيط ، كما تعودوا عندنا . فالطيبة ليست غريبة على الناس الجدد ايضا . ها انا اقرأ . . . مكتوب هنا عن فائدة الاخلاق القطيعية وغريزة القطيع ، بل وحتى الدين اذا كان ذلك ينسب الى الاجناس الوضيعة . وبذلك يتم اعداد صنف من البشر يتقبل بنفسه ابادينا . بنفسه ، طائعا — وفى ذلك تتجلى النزعة الانسانية السامية . «وستكون النتيجة هى احتقار الضعفاء لانفسهم : وسيحاولون ان يختفوا وينقرضوا من تلقاء انفسهم . . .» بسبب عدم نفعهم ان صح القول . نحن ايضا ، كما ترى ، ننادى باللين . لكل ما له ،

ولكن الافضل ان يتم ذلك طوعا . عندما كنا جياعا وانتزعت منا غرامات الحرب بموجب صلح فرساى لم يكن المنتصرون الجشعون الذين سرقوا النصر منا بمعونة اليهود والحمر قد تقيدوا بعرف او تقليد . هل تعرف ما هددنا به الفرنسيون والانجليز؟ هددوا بنقل الشباب الالمان عبيدا الى افريقيا اذا لم نسدد الغرامات . لدى الغالب اخلاقياته دوما . لكن اخلاقياتهم كانت تجارية صرفا بدون اية فكرة . . .

قبل اربعة ايام لا اكثر دار هذا الحديث فى شقة آمر الكتيبة . استمع مورافييف بارتياح الى ثرثرة سيميرمان الثمل . لم يسلم مورافييف كل المواقع كلا ، ليس كلها . وربما كانت الامور اصعب عليه من غيره . فهو فى صف الاعداء ، وهو يحمل الغالبين على تغيير فكرتهم عن المغلوبين . فهل يستأثر مورافييف وحده بتلك المنفعة ؟ فهو على اية حال لا يحتاج الى الكثير ، بل لا يحتاج الى شىء .

وبعد ذلك دخلت الغرفة بهدوء ستاسيا خادمة ديرليفانغير حاملة صينية . كانت تعد المائدة عادة امرأة عجوز تحمل الطعام صامتة وتقول برعب : «شكرا» حين تأخذ الاطباق الخالية وتظهر من جديد وتختفى . اما ستاسيا فقد رآها مورافييف امام الضيوف لاول مرة . احضرت صينية عليها فناجين القهوة . وادهشت مورافييف من جديد بالشبه الكبير بينها وبين بيرتا التى كان يحبها فى المدرسة . ماذا لو صبغت شعرها الابيض بلون قاتم . . . او استعادت لونه الطبيعى ؟ شعرها النامى يفضحها بجذوره السوداء ، ويجعل المرء يتساءل عفويا : وعيناها الزرقاوان هل هما بلونهما الطبيعى ؟ عينا المعلمة اليهودية الشابة بيرتا سوداوان فاحمتان . لكن ابتسامتها

«ملعلعة» مثل هذه بفم منضد بالاسنان الجميلة البيضاء . وربما لم يكن ذلك جميلا عند امرأة اخرى ليست فتية حيوية مرحة مثل بيرتا . وها هى ستاسيا ، فمها المغلق بتواضع او بعناد يبدو ناتئا بغير جمال . ولكنها عندما تبتسم لا اروع منا . . .

— وصاح يسوع بصوت مرتفع : «اغرب عنى يا لعازر» .

هذه المرة حتى السكارى جدا سمعوا صوت سيميرمان فى السكون . لان ديرليفانغير سمعه . فقد القى نظرة متفحصة على الضابط الصغير ، نظرة متنبهة جدا . لان لعازر هو الاسكافى الاكبر سنا ، احد الاسكافيين اليهود العاملين فى السرداب . لا يزالون على قيد الحياة لانهم يعتبرون «نافعين» ويطلق عليهم هذا النعت ويقبعون تحت شقة ديرليفانغير ويصنعون جزمات ممتازة لكبار الضباط فى موغيليف . قبل ستة اشهر كانوا سبعة ، وهم الآن اقل . وتقول الاشاعات ان الاسكافى الاكبر سنا ذا اللحية السوداء لعازر هو والد ستاسيا . وفكر مورافييف وهو يتطلع الى سيميرمان الذى شحب وجهه : «لن ترى المانيا فى اجازتك !» . لم يتمكن الضابط الصغير من وضع الكتب فى مكانها على الرف ، وها هى تتساقط على الارضية برعب . وقفت ستاسيا ، النحيلة كالطفل تقريبا ، وغضت بصرها ، كالالمانية المتواضعة فى مئزر الخادمة النظيف . وكان يجدر بسيميرمان ان يزيد الطين بلة ويستشهد بآمر الكتيبة : «لا اعترض لو انك نمت مع فتاة روسية ، ولكن يجب ان تطلق النار عليها بنفسك فى الحال» . تلك وصية خاصة «بالاجانب» على وجه التحديد . فقوانين النظافة العنصرية لا تشملهم . ولكن مضاجعة اليهودية امر غير جائز

حتى «للاجانب» . كلا ، ان ديرليفانغير هذا متهور للغاية . انه يسير على الحبل .

وفجأة مضى صوب سيميرمان . كلا ، ليس صوبه ، مضى الى رف الكتب ، واخذ الانجيل الالمانى الازرق وبحث عن صفحة فيه وسلمه صامتا الى ستاسيا . ارتبكت الفتاة وهى تبحث عن مكان تضع فيه الصينية الفضية ، فأخذوها منها ، بينما اجلسها ديرليفانغير بيد غاضبة مرتجفة من السكر فى اريكة وثيرة غير مناسبة :

— اقرأى هذا على هؤلاء الخنازير !

لغة المانية خفيضة وغير معتادة بعض الشيء تتحدث عن قصة يهوديت بمشاطرة وتألم على تلك الارملة اليهودية التى لم تبخل بشرفها واندست فى صفوف الاعداء وباتت الليل فى خيمة القائد الرهيب حتى اذا ما غفا قطعت رقبته ، وزرعت الرعب فى صفوف الاعداء الذين كانوا يحاصرون مدينتها مسقط رأسها فانقذت شعبها . هذه الحكاية الانجيلية يتذكرها مورافييف من سنوات الدراسة فى المدرسة عندما قرأها بصياغة مرحة فى مجموعة من اعداد جريدة «الملحد» فى اغلب الظن . وهو يتذكر ايضا الصورة المرسومة : الحسناء تحمل صينية جميلة وعليها رأس مقطوع بحرص واهتمام بلحية آشورية او بابلية مجعدة بعناية . . .

نعم ، سيقطع رأس . وقد شعر بذلك حتى السكارى فى شلة الانس . جحظت عينا بول برعب . وكان ديرليفانغير يستمع واقفا ، وقد ارغم الجميع على الاستماع .

انتهت الفتاة — الطفلة ذات الشعر الابيض من القراءة

ورفعت بصرها الى آمر الكتيبة . كانت عيناها الزرقاوان صافيتين . وانحنت برفق والتقطت الصينية الفضية مع القهوة الباردة .

— ساحضر قهوة ساخنة — قالت وهى ، لسبب ما ، تتطلع الى مورافييف وقد انفرجت اسنانها البيضاء عن ابتسامة ، تشبه ابتسامة بيرتا تماما .

صفان من الالمان و «الاجانب» المستجدين تجمدا من امر اصدره ضابط المانى شاب بصوت مرتعب . فمن وراء الشجيرات القريبة ظهرت فى اثر الناقلة المدرعة سيارة «اوبل» سوداء ، سيارة آمر الكتيبة . ومنذ تلك اللحظة صار موعد حياة وممات قرية بروليتارسكى — ثلثمائة وستة اشخاص لم يسمعوا ابدا ولن يسمعوا باسم اوسكار ديرليفانغير — يتوقف على مدى سرعة وصوله ونزوله من السيارة على قدميه الطويلتين النحيفتين كأرجل الحشرات ، ومتى ينتهى الضابط من اصدار تعليماته للسفاحين المستجدين حتى يصدر ديرليفانغير امره بالشروع . . .

من افادة ميخائيل مايدانوف (تتمة) :

«طلب كل المانى من «الاجنبى» الواقف خلفه بان يتبعه الى احد المنازل . وعندما وقف شخصان ، المانى و «اجنبى» امام كل منزل اصدر الضابط امره بدخول المنازل . ودخلت مع الالمانى الى المنزل الخامس او السادس ، وكان عدد المنازل فى هذه القرية ٢٥ او ٣٠ . دخلت المنزل فى البداية ورأيت شيخا وعجوزا فى حوالى السبعين جالسين الى المائدة ومعهما صبى فى الخامسة عشرة . وقال لى الالمانى : «اطلق» واشار بيده الى الجالسين . اطلقت من

بندقيتي ثلاث طلقات ، طلقة لكل واحد منهم . اطلقت عليهم مباشرة فسقطوا على الارضية . وبعد ذلك اطلق عليهم الالماني صلية وقال : «خلاص» .

ستيبان شينكيفيتش من ابناء قرية نيكولايفكا في محافظة نيكولايف :

«سار الالماني في الامام وانا خلفه . عندما دخلنا المنزل رأيت ثلاثة اشخاص : رجلا في حوالي الاربعين متوسط القامة ، كان جالسا قرب المائدة ، وامرأة عجوز في حوالي الستين راقدة على السرير ، وامرأة اخرى متوسطة السن واقفة على مقربة من السرير . واشار عليّ الالماني بيده ان اطلق النار على الرجل . فاطلقت . اطلقت من البندقية على رأسه . سقط الرجل على الارضية وظل يرتجف بعض الوقت . واطلق الالماني صلية قصيرة على المرأتين ، وخرجنا من المنزل . عندما دخلنا هذا المنزل ايضا لم نتكلم مع اهله . اطلقنا النار رأسا وخرجنا» .

من افادة فيودوس غرابوفسكي من اهالي غرابوفكا في محافظة فينيتسا :

«بعد ان نزلنا من السيارة واصطففنا كلفنا ديرليفانغير ، عن طريق المترجم ، بان ندخل المنازل ونطلق النار على الجميع من كل بد ونحرق المنازل ، وذلك ما قمنا به فعلا . ودخل كل من افراد المفرزة الاوكرانية منزلا مع الماني واحد او اثنين . . .» .

عام ١٩٤٦ . اجوبة الجندي الالماني هانز يوسف خيختيل في المحكمة . نمساوي من اهالي مدينة سان بيلتين ، جندي اول سابق في فوج التدريب الميداني رقم ٧١٨ .

جواب : اعرف الآن طبعا ان ذلك غير لائق . . .

سؤال : متى شنت الحملة التنكيلية الثانية ضد الانصار؟

جواب : شنت الحملة الثانية ضد الانصار في شباط (فبراير) ١٩٤٣ في المنطقة الواقعة بين بولوتسك ومحطة اوبول . اثناء الحملة انا شخصيا احرقت ٤٠ منزلا واعدمت رميا بالرصاص ٢٨٠ شخصا . واعدمت مفرزتنا اكثر من الفين من السكان المسالمين . . . لقد اخطأت ، ولكنني لو لم انفذ الامر لعاقبوني .

سؤال : فيم كنت تفكر عندما اطلقت النار على الاهالي المسالمين ؟

جواب : لم افكر في شيء .

سؤال : كم كان عمرك آنذاك ؟

جواب : ثمانية عشر .

من افادة افاناسي ايفانوف من اهالي قرية سكريبليتسا في ناحية كيروفسك بمحافظة موغيليف :

«وقفنا نحن والالمان في نصف دائرة على حافة الحفرة التي كان فيها الاهالي المسالمون من قريتي فيازين وسيليتس في ناحية كليتشيف واطلقنا النار عليهم من الاسلحة التي كانت لدينا . وكنت شخصيا احمل بندقية آنذاك . وكان ديميان فورونتشوكوف وفلاديمير رومانوفيتش يحملان رشاشين بلويين . وكان اوغست بارتشيك وفاسيلي ايزوخ وارخيب

بوريسينكو يحملون بنادق . . . »

باقل خيلتشينكو من اهالى قرية كروتيكى فى ناحية تشيرنوبايفسك بمحافظة تشيركاسى :

«وبعد ذلك امرونا باطلاق النار على اهالى القرية . . . ووصل معنا الى القرية ضباط المان من كتيبتنا ، واصدروا امرا بجمع الاهالى ، ونقل آمرو المفارز والحضائر امرهم الى افراد وحداتهم . وتوجه الالمان وافراد سرية بارتشيك الى القرية بشكل مجموعات صغيرة وعلى انفراد ، وسمعت اصوات اطلاق النار فى مختلف انحاء ستوديونكا . وتوجهت انا ايضا الى الشارع وصادفت امرأة تحمل طفلا صغيرا . انعطفت المرأة مع الطفل من الشارع الى البستان . فلحقت بها الى البستان واطلقت النار عليها من المسدس الذى كان معى . وكنت على بعد بضعة امتار عنها عندما اطلقت النار . اطلقت عليها طلقة واحدة فسقطت . وبعد ذلك اطلقت على الطفل . فعلت ذلك بناء على اوامر بارتشيك والقادة الالمان الذين اكدوا على اطلاق النار على جميع اهالى قرية ستوديونكا ، وعددهم خمسمائة على ما اعتقد» .

. . . ومن افادته ايضا

« . . . وقف قرب جذوع الاشجار المعدة لبناء احد المنازل فى قرية ماكوفيه الضابطان الالمانيان سالسكى ورويرت ، ولا ادرى اذا كان هذا اسما او لقبا . وكان هناك المان آخرون . امر سالسكى باطلاق النار على الاهالى الذين اقتادوهم الى المنزل الذى لم يتم بناؤه . كان سالسكى يجيد الكلام بالروسية وكان يصدر الاوامر بالروسية . نصبت الرشاش اليدوى على

حمالته مقابل فتحة الباب فى المنزل المذكور على بعد عشرة امتار عنه واطلقنا النار . . . وكان الالمان والضباط وآمرو المفارز يطلقون النار على الاهالى من البنادق الرشاشة . وكان توبيغا يطلق النار من النافذة . انا اتذكر ذلك لانى كنت اخشى ان يصوب رشاشه نحونا ، لانه كان يطلق على النافذة الجانبية»

من افادة غريغورى كاراسيف من اهالى قرية نيغوفلا فى ناحية كيروفسك بمحافظة موغيليف :

«فى طرف الغرفة المقابل للباب عثرنا على امرأتين عجوزين جالستين على السرير . ولا اتذكر ماذا كانتا ترتديان ولم نتكلم معهما . اطلق سموروفيتش النار من غدارته على احدى المرأتين فسقطت على الارضية . ثم اطلقت النار من غدارتى على صدر الاخرى من مسافة ثلاثة امتار . وسقطت هى ايضا . واتذكر انى لم التفت الى المرأتين القتيلتين ، وفتحنا الصندوق . . . » .

ومن افادته ايضا :

«دخلت احد المنازل ورأيت فى نصفه الاول امرأة ورجلا قتيلين . وعندما دخلت النصف الثانى رأيت مهدا معلقا بحبال الى السقف ، وفى المهد طفل عمره عام تقريبا . ولم اميز هل كان ذكرا ام انثى . فاطلقت النار عليه رأسا من البندقية وقتلته» .

من افادة ميفودى باغريا من اهالى قرية ميخايلوفكا فى ناحية بولتافا :

«اتذكر جيدا الحادث التالى . كنت اتجول فى قرية اسمها على ما اتذكر نيفكا ، فرأيت المانيا يحمل طفلا فى السادسة او السابعة من قميصه ، ثم ضربه ثلاث مرات على الارض وقتله» .

ومن افادته ايضا :

«تشبث صبى فى العاشرة تقريبا بحزام الالمانى وهو يصيح : «لماذا قتلت امى ؟» . وعند ذاك اطلقت النار . اما الالمانى فقد رفع من السرير رضيعا مع الوسادة ووضعه على الارضية . وقرب ماسورة البندقية من وجه الطفل واطلق النار . وامر بسحب الذين اختبأوا تحت السرير ...» .

... السفاح الكسندر سيلين من اهالى قرية توتشيشا فى ناحية كليتشيف بمحافظة موغيليف :

«عندما عدنا من بوركى الى البيت قال احد رجالنا ان اندرى روسيتسكى قتل عائلة كاملة بأمر من افاناسى ايفانوف . وكان الجميع يضحكون عندما ارتجفت يدا روسيتسكى وهو يطلق النار على الاهالى .

من رسالة سلافا مورافييف (بعد الحكم عليه بالاعدام) :

«اكتب هذه الرسالة ليس عن نفسى بل عن عائلتى واقربائى .

فى الثانى من ايلول (سبتمبر) ١٩٤٥ عدت طوعا من فرنسا وجئت الى دائرة مكافحة الجاسوسية فى المنطقة السوفييتية معتقدا بان اسمى معروف وانهم مطلعون على جرائمى . ولكنهم مع الاسف نظروا الىّ مستغربين . لم يكونوا يعرفون

عنى شيئا . وعند ذاك صممت على معاقبة نفسى بنفسى ، ولكن بحيث استطيع ان اثبت عن طريق العمل للحكومة بان جرائمى بحق الوطن لم تكن بسبب حقدى على السلطة السوفييتية بل بسبب تحيرى فى بداية الحرب والخوف من الموت جوعا ومن انتقام الهيئات التنكيلية وبسبب الجبن من الموت فى الأسر . وقد اعترفت «لدرجة كافية» فحكمت علىّ المحكمة بالسجن ١٥ عاما وارسلونى الى المناجم ...

ولم احدث احدا (لاسيما عائلتى واقربائى) ابدا عن جرائمى وظننت ، والحق يقال ، بانه لم يعد هناك موجب .

ارجوكم كل الرجاء لا تعلنوا نبأ المحاكمة فى الصحف والاذاعة والتلفزيون والقنوات الاخرى .

كل افراد عائلتى واقربائى شغيلة صادقون واناس نزيهون بكل معنى الكلمة . انا مجرم ، وقد عاقبت نفسى بنفسى فى عام ١٩٤٥ (ولكن ليس بالقدر الكافى مع الاسف) ، اما فى عام ١٩٧١ فقد حصل فعليا ان عائلتى هى التى تتعرض للعقوبة اكثر . سيارة «الفولغا» والكراج والنقود (٤,٥ آلاف) عائدة لزوجتى . لاسيما وان اموالى صودرت فى عام ١٩٤٥ . ان النساء اللواتى مثل زوجتى قليلات فى روسيا . فارأفوا بها . انها امرأة مثقفة وطبيبة فى الامراض النسائية ، وقد جاءت الىّ طوعا لتقيم فى منفى الاستيطان وبكل تفان شاطرت زوجها الصعوبات التى يواجهها .

لقد حصل انى صرت نشازا بينهم . فليقع عارى كله علىّ وحدى .

عندما كنت فى الاسر فقدت ثقتى فى امور كثيرة واعتقدت بانى فقدت الوطن الى الابد . كنت عاجزا نهائيا وكاد كل

شيء في داخلي يموت . ومنذ ذلك الحين اعتبرت نفسي مجرما ولم أكن افهم لماذا حصل ذلك . لا استطيع ان اقول بالضبط لماذا وجدت نفسي في صف الاعداء . لم تكن قواي تكفيني للمقاومة ، فصرت عدوا بسبب الملابسات . والحرب هي المذنبة في كل شيء . وعندما وقعت في الاسر اعتبرت نفسي منتهيا وشخصا مضيعا بالنسبة للوطن . واقدمت على الخدمة عند الالمان لان رغبتي الوحيدة كانت هي الخروج من معسكر الاعتقال . كانت تتعقبني فكرة البقاء حيا .

انني اعتبر كل ما حدث لي في ١٩٤٢—١٩٤٤ مصيبة كبيرة لحقت بالوطن وكذلك بي وبعائلتي . . لن احاول ان ادافع عن نفسي ، الا انني اريد ان اقول اننا الآن لسنا كما كنا قبل ثلاثين عاما . . . ولكن رغم ذلك كله اعتقد بانني يجب ان اتلقى اقصى العقوبة . لكنني ارجوكم ان لا تؤذوا عائلتي ولا تصادروا الاموال .

انا لا انكر ذنبي ولا اطلب مرحمة ، ولكنني لا استطيع القبول بعدد من الجرائم . كنت اعمل في تعبئة الكوادر — اوصي بالضباط وضباط الصف واعمل في ترتيب امور عوائل الشرطة وحل الخلافات بين الالمان والروس . كنت مجرد ضابط اتصال .

لقد خنت وطني ، انا خائن حقير ، لكنني كنت جنديا في صف الاعداء ، ولم اكن جلادا ووحشا كاسرا ! . .

كنت آنذاك بالاساس جنديا ينفر من تلك الحياة ، وكنت اجازف لكي يقتلوني ، لكن الرصاصة مع الاسف لم تبلغني آنذاك .

فهل كنت اعرف اين سأجد نفسي عندما «تطوعت» من الاسر في فرقة الأمن ؟ لم اعرف بذلك الا بعد شهر . كانت الرغبة في البقاء على قيد الحياة ومعرفة تلك القوة التي استطاعت ان تقهر السلطة السوفييتية (هذا ما خيل الينا آنذاك) ذلك ما قادني الى السقوط ، ثم ربطني الالمان نهائيا بحبل واحد معهم . . .

لكنني شخصيا لم اقتل احدا ولم اعذب احدا ابدا . فتلك افتراءات . فما حاجتي الى ذلك اذا كان تحت امرتي عدد كبير من الرجال ؟ انني استحق اقصى العقوبة اكثر منهم لاني كنت اقودهم ، فما فائدة الانكار الآن ؟ . . »

من الدراسات والمراجع المرتقبة عن الهبربري في القرن العشرين :

«في عصر المعمّرين صار الاستعداد للتضحية بالنفس فضيلة نادرة حقا بين الهبربري ، حتى عندما فقدت الحياة كل المبررات الانسانية وصارت تشكل خطرا على الآخرين . الهبربري يعيشون هاتفين : «الافضل ان تموت انت اليوم ، وانا غدا !» . كل الهبربري بلا استثناء موهوبون في شيء واحد ، هو فن تبرير افعالهم .»

* بعد صدور كتاب «السفاحون» في عام ١٩٨١ سلمني الكاتب يانكا بريل رسالة من فلاديمير تومكا وهو من معارفه من اهالي بلدة غوروديشه في ناحية بارانوفيتشي . وجاء في الرسالة : «بالمناسبة كان هؤلاء السفاحون في عام ١٩٤٤ مرابطين في قرية فيليكويه سيلو على مقربة من غوروديشه . يقول الكاتب ان مورافييف قال في المحكمة انه لم يقتل احدا ، بل كان فقط يأمر بالقتل . في ربيع نفس ذلك العام فر احد افراد الكتيبة وكان خائفا من الانصار ايضا ، فاختبأ في قريته ليس بعيدا عن غوروديشه . قبضوا عليه ، وصفوا الكتيبة كلها في الساحة وتلوا الامر واطلق مورافييف نفسه ، شخصيا ، النار من المسدس على قفا المحكوم عليه . . . » .

هى : ماذا تعنى كل هذه الساعات يا الهى ؟ ام ان تلك علامة واشارة ؟ انك تجمع الساعات العتيقة وتعلقها بين النجوم .

هو : جئت من جديد يا امرأة . شكرا لك ايتها الروح الطيبة . هل تتصورينني ساعاتيا عجوزا ؟ «ولن يكون هناك زمان . . .» . كل تلك هى ايقونات الزمن . ظلت باقية ، فلنسمّها متحفا . من زمن الطوفان ساعات مائية ، ومن خلق الكواكب ساعات شمسية ، ومن الخليقة هذه الساعات ذات الثقوب السوداء فى مواضع الارقام . . .

هى : يعنى انها هنا بدل الايقونات ؟

هو : وهل تريدين ان اعلق صورى ؟ لا احد يملك مثل هذه المجموعة اليس كذلك ؟ ساعات رملية وميكانيكية والكترونية واشعاعية . . . وهل تعرفين ما هذه ؟ انها تشطر الوقت : تمدد الثوانى الى سنين عديدة . الانسان يحزر وجودها ، لكنه لا يتطلع اليها عادة الا فى لحظاته الاخيرة ، قبيل النهاية . لانه لا وقت له ليواصل العيش مثلما تعيشون فى يقظة كالنوم .

هى : ولكن ليس عندك ديك هنا . فى الطفولة ، فى قريتى كان الديك يوقظنى . كان يتطلع فى النافذة بعين ثم باخرى ، وكان اصفر جدا وغاضبا جدا .

هو : كان سيشعر بوحدة قاتلة هنا وهو الكائن الحى .

هى : تتحدث عن الموت من جديد وكأنك يمكن ان تموت بالفعل .

هو : انا لا اقول ذلك ، هل تتذكرين كيف كان طالبك يقول فرحا : «الآلهة ماتوا ، فالى الامام ايها المتفوقون ، ايها الهبربرى . مات الآلهة ، وجاء دور الانسان الفائق !» * .

هى : انت ايضا تعتقد بانى مذنبة فى جنونه . فما اكثر ما قرأت عن ذلك . . . والاصح قرأوا لى . فلا يفوتون شيئا الا وعرضوه على ! اليس ذلك كثيرا على كتفى الضعيفتين ؟

هو : اقتربت منه ومسدت خده فقر منك ، وبعد ذلك عاد على اية حال . . . هل حدث ذلك فعلا ؟

هى : نعم . عاد ، بحث عنى ووجدنى . وحذرته بخصوص مرضى . لانى فهمت انه يحبنى . هل تتصور ؟ يحبنى انا !

هو : يعنى انه كان وحيدا جدا . جدا . هناك شخص اعرفه ، كتب يقول . . .

هى : (دون ان تسمعه) : يعنى اننى مذنبة فـــــى كل شيء . فى جنونه ، وبالتالى فى جنون الجميع .

هو : لم اقل ذلك يا امرأة . عندى اشخاص اعرفهم بين المؤرخين . كنت مضطرا لاسمع مجادلاتهم البليغة . فان صاحبك الطالب المسكين ساعد على تشخيص المرض . كل ما فعله هو ان عبر ببلاغة — وربما تلك هى جريرته الرئيسية — واوضح ببلاغة نسبيا ما يجرى فى العالم . وبذلك علق جريرة العصر على كاهله . . . (الاشخاص الذين اعرفهم يكتبون جيدا احيانا) . ولا جدال فى ان صاحبك المجوسى والكافر بالمسيحية كان يجيد الكلام : «اراد الخالق ان يحول

* فريدريك نيتشه .

نظره عن نفسه فبنى العالم . . .» . نعم كانت لديه حروف ، كما يقول ، «يستطيع حتى المكفوفون ان يروها» . واتضح ان المكفوفين اكثر مما كان يتصور عندما دعا الى العمل بالسكاكين . فى سبيل «الحب الجديد» للانسان . صاحبك المنطيق المتحذلق ما هو الا مرآة نرجسية . «انظروا يا ناس كيف اعكسكم بلا رحمة . ولهذا الغرض انظروا اليّ» . اليّ ! ذلك هو بيت القصيد . «لا اعبأ بكم ، انا احتقركم يا تافهون ، انظروا ، انظروا الى مدى استهانتى بكـم . انظروا اليّ ، اليّ انظروا !» . لقد عجنوكم جميعا فى كبرياء شريرة لا تعرف الطيبة . تلك هى الاهانة من اجل الصعود .

هى : بينما تصورته شبيها بالمرأة من حيث الطيبة والمشاطرة . عيناه مثل عينى طفل مريض . كنت اول امرأة بالنسبة له . هذا ما فهمته رأسا .

هو : اول امرأة ، واصابة بالسفلس رأسا . يمكن للمرء ان يحقد على العالم كله بسبب ذلك .

هى : حتى اننى لم آخذ منه نقودا . لمّ عاد ولم يذهب يا الهى ؟ لقد حذرته .

هو : وضع شهواته فوق كل شىء . هذا يصادف عندكم . كلا ، انا اقصد معنى ساميا ، معنى الوجود !

هى : وفيما بعد ، فى الصور الفوتوغرافية ، رأيت شوارب الجنود البغيضة تلك . كانت تلك الشوارب عند الجنود الذين قبضوا عليّ فى مرج والدى واقتادونى الى الغابة . كانت تفوح منهم رائحة الخيل . ومنهم اصبت بالعدوى .

هو : اصابوك بالعدوى واصبته انت .

هى : ونقلها هو الى الجميع ، اليس كذلك ؟

هو : قلت لك : ليست الامور بهذه البساطة . فانا ، مثلا ، اعرف فيزياويا اقترح الموديل التالى . . .

هى : (تتحدث عما يشغل بالها دون ان تسمعه) : اذا كنت انا المذنبة ، فالبداية لم تكن منى . فان احدا نقل العدوى الى اولئك الجنود ايضا . . .

هو : «فى البداية كانت الكلمة ، والكلمة هى الاله . . .» . هذا ما يقوله يوحنا أليس كذلك ؟ لكننى ادعو ابنى ليكون شاهدا . كلا ليس هذا ما اردت ، وانا على العموم لم اخطط لشىء ولم انو شيئا . صاحبك الطالب حزر . فانا لم اخلقكم من الطين ، بل من الالهام . لقد وفقت فى خلقكم فى لحظة سعيدة محظوظة للغاية . لم يكن قـد حدث مثل ذلك لا من قبل ولا من بعد . وربما ، بالفعل ، شعرت بالوحدة واردت ان يوجد من يضاهينى . انتم جميعا تتطلعون الى السماء وتسمونها الفضاء الكونى . ومنذ يومكم الاول نفد صبركم وتريدون جميعا ، كالاطفال ، ان تتأكدوا بانكم لستم وحيدين ولا تعانون من الوحدة . ولكنكم يمكن ان تزعلوا جدا لو حزرتم بانكم كان يمكن ان لا توجدوا . وحتى مشيئتى غير كافية . فقد كان يجب ان تتوفر تلك اللحظة والالهام

هى : يبدو انك متأسف على سخائك وتوفيقك ، أليس كذلك يا الهى ؟ نعم نحن ابناؤك القساة الناكرون للجميل . ولكن كان بوسعك ان تصحح وتعدل ما خلقت .

هو : هل يمكن تصحيح الالهام وتحسينه ؟ واعادة البناء واكماله «بانف بارد» على حد تعبير احد المخرجين ممن اعرفهم ، والذى لا يحالفه التوفيق فى تحقيق الهامه . لان النتيجة معروفة مسبقا لدى الآخرين . لا توجد عندى

16-304

دائرة مسؤولة عن شؤون الالهام . واذا تكلمنا بجد اقول
بانى اعطيتكم كل شيء ، حتى الاداة التى خلقتكم —
الطبيعة . فاستمروا واكملوا العمل . واكملوا انفسكم ايضا .
فى اعظم ما تمكنتم منه . انه يثير الدهشة . الكوكب الذى
أعطي لكم وكان كبيرا عليكم جعلتموه صغيرا ، مع انكم
بدأتم بداية النمل . وذاك الفيزياوى استنبط صيغة — خصيصا
من اجلي — صيغة الطاقة التاريخية التى تزداد بشكل تدميرى . . .
فى هذه الحالة حان الوقت للتدخل فعلا وارسال الاشارات
«من الفضاء الكونى» : برد ، برد . . . حر ، حر ! فكيف
كنتم عندما رأيتكم فى البداية ؟ كنت اشفق عليكم احيانا
عندما كان البشر يتراجعون امام كل ذى ناب ومخلب .
وكنتم تبتعدون عن ذوى الانياب الحادة وتقتربون من الحيوانات
المسالمة كالابقار والديناصور (وبالمناسبة فقد جابت هذه
الحيوانات الارض قبلكم) . واكلتم بتواضع ما تعفن وعافته
سائر الحيوانات . كنتم قليلين جدا فى العالم الكبير الهائل
حتى ان عقلكم لم يكن كافيا للتفكير بقتل ابناء جلدتكم .

هي : مثل قابيل ؟

هو : حدث ذلك فيما بعد ، بعد زمان طويل ، عندما
تذوق الانسان فرحة التلذذ بالسلطة والقساوة ، عندما تذوق
نشوة السكاكين .

هي : لماذا ؟ لماذا ؟ هل ذلك لازم يا الهي ؟

هو : حبذا لو لم يكن لازما . لكن الامر اصعب عليّ :
فانا اتذكر اكثر ، اتذكر كل شيء . واخشى ان اضطر انا
الى ان ادخل الانسان ايضا فى الكتاب الاحمر . وليس
معروفا بعد ، بأية صيغ ومعادلات سيفجرون الارض ، بمعادلات

الفيزياويين او صيغ الشعراء من امثال صاحبك الطالب . . .

هي : يعنى انه لا يجوز ان تتركنا لوحدنا .

هو : ليس الجميع من هذا الرأى . صاحبك الطالب
كان يعرف الناس معرفة افضل : «الاله الذى يرى كل شيء
حتى الانسان ، هذا الاله يجب ان يموت . الانسان لا
يطيق وجود مثل هذا الشاهد» .

هي : انا امرأة ، وانا احس خصوصا بصعوبة بقاء
الانسان لوحده .

هو : من يدرى ؟ ربما كانت تعوزنى بالفعل الصلابة
حتى النهاية ، او الحب ، حتى النهاية ايضا . لا ادرى .
كما هو حال الجراح الذى اعرفه . كان يجب اجراء العملية ،
اما هو الاخصائى الكبير فقد رفض . لم يتجرأ . وكلف
غيره باجرائها . فعلى طاولة العمليات ابنه . تلك ليست
قساوة ، صدقينى يا امرأة ، ذلك شيء آخر .

هي : اعرف ما هو . انه الحب . ماذا ؟ هل مات
الابن ؟

هو : مات الاب . يخيل الى انى صرت متحذلقا .
كل شيء بالنسبه له مر بسلام . . . ولكن بالنسبة لى ،
لى انا . . . لقد تعبت من الاشفاق والرحمة . الاشرار يمارسون
الشر ، وهم يمارسونه بشكل شرير ! لقد تعبت ! تباغضى
يا شعوب ، ولكن اتقى الله ، تسلحى ولكن اتقى الله !
سيحرقون السلاح ، لكن الخلاص لن يأتى . . .
سأحطم انوفكم الشمّاء وسادمر سماءكم . . .

هي : انا اخشاك الآن . لقد تغير صوتك ووجهك .

هو : سأجعل سماءكم كالحديد وارضكم كالنحاس . . .

ستأكلون اللحم حتى يخرج من مناخيركم . لان الهكم وربكم حريص غيور ، انه اللظى الملتهب . . .

هى : انت تثير العجب يا الهى . الم يقولـــوا عنك : «عندما يرى ان العالم يستحق الهلاك ينهض من عرش النقمة ويجلس على عرش الرحمة» ؟

هو : ثم جاء هو ومد قنطرة الصلح بينى وبينكم . وشق قوس قزح سحابة الغضب . وظهر الاشفاق عليكم انتم القساة ، وظهرت الرحمة للذين لا يعرفون الرحمة . وجلب ذلك حتى للاب الحب والايمان بعدالته الحتمية واراد — على مرأى من الاب — ان يتحمل آلامكم . وفعل ذلك رغما عنى : «لا تعامل الآخرين بما لا تتمناه لنفسك ولابنك !» . هكذا استخدم وصيتى ضدى . وتجرع الكأس قطرة قطرة برعب ، برعب بشرى : «يا ابتاه ، اذا كان هذا القدر لا يستطيع ان يوفرنى . . .» وادركت من خلال دورى العزيز علىّ صعوبة الامر عليكم انتم القساة الذين لا تعرفون الطيبة ، لكنكم تعانون من عذاباتكم . وهبطت الى الجحيم ، الى ابنى . دخلت الى هناك لاول مرة . وفتحت الجحيم ذراعيها لتقتنص الاله . لم يعد فى الجحيم لظى ، ولم يعد هناك الاله السابق المتمنطق باللهيب والغضب . مصيركم فى ايديكم . واللظى الملتهب فى ايديكم . فأية يد هى الاثقل ؟ يد اله السموات ام ايدى آلهة الارض ؟ اولئك المولعين بحكم العالم ، والمستعدين منذ نعومة اظفارهم للتأكيد بان العالم قد خلق بالذات ليتمتعوا بحكمه .

فاذكرى لى قربانا لم يعترضوا عليه . الآباء يقدمون ابناءهم والابناء يقدمون آباءهم قرابين لاصنام يحطمونها

بانفسهم فيما بعد . ألاجل ان يفسحوا المجال لغيرها ؟ . .

هى : يا الهى ، ليس لى قدمان تحملاننى لاخطو خلفك من قمة الى قمة ، ومن حكاية لحكاية .

هو : هل يعقل اننى يجب ان اصلب حتى يسمعونى ؟ او اننى يجب ان اعود متمنطقا باللهيب ؟

هى : اشفق عليهم .

هو : وانتم ، انتم على الاقل ارتعبوا قبل فوات الاوان .

هى : نفخت فيهم من روحك .

هو : تريدين ان تقولى انهم بالشكل الذى خلقتهم فيه . لقد اوضحت وقد حاول احد الفسلجيين ان يوضح علميا نتيجة الهامى ، اى ظاهرة الانسان . واتضح اننى غرست الوحوش نفسها فى الوحوش . ولا شىء اكثر من ذلك . فهى هى منذ البداية . اما الانسان فهو ما سيصنعون منه . انه يضاهى ما تصنعه منه الظروف والبشر الآخرون . فى الذئب يكمن «ذئب» وفى الحمل يكمن حمل مبرمج (كما يقول الاشخاص الذين اعرفهم) ، وهما لا يتبادلان الادوار باى حال من الاحوال ، كما يجرى عندكم بين الجلاديـــن والضحايا . فمن الجندب السليم ينشأ جندب دوما ، ومن العصفور عصفور ومن النمر نمر . اما الانسان فهو يختلـــف عن ذلك تماما . اذا ربته القرود ينشأ قردا وان بهيئة البشر . واذا ارضعته ذئبة من لبنها وربته فسيكون ذئبا . ان الفراغ الذى تركته انا فى الانسان يمكن ان يملأ باى شىء كان . لم انحت الا وعاءا — وهو وعاء متميز يجعلنى افتخر به — سلمته لكم . فاملأوه بانفسكم . املأوه بكل ما جمعتموه وستجمعونه . املأوا بعضكم ببعض . املأوا الآخرين بكينونتكم .

نوعكم البشرى لا يقبل التجزئة : ففيك الجميع وانت فى الجميع . البشر كائنات تصنع نفسها ، تخلق نفسها .

هى : ما اشد رغبتنا فى السعادة . اننا نريدها اكثر من اى شىء سواها . الجميع ينشدون السعادة .

هو : الجميع ينشدونها . ولكن لماذا تنتهى الرغائب والوعود بالشر عادة ؟ اننى اوجه هذا السؤال لنفسى . حتى الصليب الذى مات عليه ابنى فى سبيل الحب حولوه الى رمز للفرقة والاحقاد .

هى : يبدو انك ستحقد علينا فى آخر المطاف .

هو : توجد جحيم حتى للآلهة ، انها جهنم للبشر . صاحبك الطالب محق بهذا الخصوص . . . يا ليتنى اعرف امام من اركع ، يا ليتنى اعرف ، لابتهل اليه واستعطفه : لا تقتل ابداعى الذى جاء بالصدفة وكان افضل ما خلقت ! لا تمح الكتابات الحية ، فلا احد يستطيع — حتى انا — ان يعيد كتابتها ابدا .

انا مستعد للابتهال والاستعطاف !

هى : يا الهى ، ماذا فعلت ؟ يا الهى ، ما الذى سيحدث لى ؟ لنا ؟ هل قبلتنى انا (بما انا عليه) فى شقتى ؟ العالم يجن تماما . ماذا فعلت ؟ لماذا ؟ لقد حذرتك ! . . . وحذرته هو ايضا . ماذا تفعلون بانفسكم يا تعساء ؟ ماذا تفعلون يا ملاعين ؟

فى الطريق الى القرية المركزية فى بوركى

الدكتور اوسكار باول ديرليفانغير ، من مواليد ١٨٩٥ . مدينة فيورتسبورغ . والداه اوغست ديرليفانغير وباولينا خيرلينغير .

عضو الحزب الاشتراكى القومى من عام ١٩٣٢ ، التحق بالاس اس عام ١٩٤٠ ، فى عام ١٩٤٢ قائد لواء خاص برتبة شتورمبانفوهرر ، فى عام ١٩٤٣ حاز على رتبة اوبرشتورمفوهرر الاس اس ، فى عام ١٩٤٤ حاز على رتبة شتاندارتينفوهرر الاس اس ، فى اواخر عام ١٩٤٤ حاز على رتبة اوبرفوهرر وقاد فرقة الاس اس التى دمرت وارشو الثائرة ، ثم دمر القرى مع اهاليها فى جبال سلوفاكيا .

الطول فوق المتوسط ، العينان زرقاوان ، الشعر اشيب ، الانف رقيق ، التعليم جامعى تجارى ، الديانة مسيحى ، العلامات الفارقة — بلا .

عندما غادر ديرليفانغير القرية التى توزع جنوده و«الاجانب» المستجدون على احواشها ومنازلها لم يعد يتذكر اولئك الذين يمارسون القتل ولا الذين يقتلون هناك . فلديه مشاغل اخرى وافكار تلهيه عن كل ما سواها . آمر السرية مورافييف الجالس قرب السائق صامت يتطلع الى الامام بلا حراك : فهو يجيد الانسحاب عندما يكون رئيسه معتكر المزاج . هذا الآسيوى ذو الانف العريض والشفتين الرقيقتين يعرف كيف يتصرف . انه غير لجوج ، لكنه سهل المنال دوما . وهو يتحلى بالتأدب ويفهم المسافات بين الناس . لكن ديرليفانغير اتخذ قراره مع ذلك . فان شخصيات ذات شأن كبير جدا تشارك فى اللعبة السرية الدائرة حول اوسكار ديرليفانغير ، فلا تتذمروا اذا ساءت احوال احد منكم . ومن نصيب المعاون الروسى لآمر الكتيبة الخاصة ان يشاطر رئيسه الاتراح ايضا ، ويكون «كبش الفداء» اذا

دعت الحاجة ، اى نفس ذلك «الكبش» الذى يرميه الروس بكل الاحجار .

اما هناك ، فى القرية ، عندما كان يتفقد صف المستجدين ويستمع الى توجيهات موراقييف باللغة الروسية ، ما كان يفكر فيهم ، بل يفكر فى رسالة الرفيق الحزبى فريدريك ويؤلف فى ذهنه ردا ذكيا حذرا على تلك الرسالة . سيكتب الرد ويبعثه غدا . الفكرة رائعة : يستعرض فى ثرثرة ودية كل الملابسات ويركز خصيصا على مكائد تجعل الرقابة تهتم بالرسالة رأسا وتحيلها الى اعلى المراجع . وهناك سيفهمون . فما اسوأ ان تكون للمرء حاجة عند موظفى الصعيد الاوسط وليس الاعلى . فى الاعالى يمكن ان يدوى الرعد ويومض البرق . لكنهم هناك لا يخشون تحمل المسؤولية . وهناك يفهمون الفكاهة خلافا للموظفين القصيرى النظر . ثم انهم هناك لا يعرفون الاوهام الالمانية العتيقة . فاذا اشار فى الرسالة الى اسم الرايخفوهرر هملر بشكل يلاحظون فيه تلميحا الى علاقة شخصية وسر مشترك بصيغة تقبل التأويل فانهم يحيلون الرسالة رأسا الى مرجع اعلى . وربما يتذكر الرايخفوهرر كيف مد يد المعونة ذات مرة الى المناضل الحزبى القديم غير المشهور اوسكار ديرليفانغير . ولا بد لهم ان يفهموا فى آخر الامر ان تلك ليست حالة عادية ، بل هى نفس الممارسة الخطرة جدا التى ينتقم فيها الموظفون الجبناء من ثوريـــى الاشتراكية القومية الحقيقيين . وعلى اية حال فان كـــل شىء يتوقف على عدد قليل من الناس المتقاربين من حيث النفسية ، وحتى هرم الدولة يعتمد عليهم . ان المصلحة العليا للدولة هى الحفاظ على روح الاشتراكية القومية ، فى

حين انها تتجسد فى المناضلين القدامى . فقد حدث ومد الرايخسفوهرر يده المنقذة الرهيبة ، فى حين لم يكن ديرليفانغير آنذاك قد قبل فى الاس اس . فما كان احد يريد ان ينسى بانه من قدامى افراد الفصائل الهجومية ، وانه كان مقربا الى الكابتن ريم ، ذاك الرجل الشجاع الغبى السريـــع التصديق . فما أكثر الشخصيات المرموقة التى اخذها معه الى القبر . لكن ديرليفانغير لم يشيعه ابدا بالاحجار كما فعل الآخرون فى الحال . ولذا اججوا الهستيريا حول قضية الفتيات القاصرات . فقد انفعل الجميع اشد الانفعال من الكلمات «القطيعة» : افساد اشخاص فى اقل من الرابعة عشرة ! الا ان هذه القضية مرت امام الرايخسفوهرر هملر فتبددت الظلمات بابتسامة انسانية متفهمة : «انظروا الى هذا الصيد غير المشروع !» . واقتحم النور والهواء المنعش دائرة القلم ، وفقدت «الفقرة ١٧٦ ، المقطع الاول — لاقتراف وافساد . . .» — مغزاهما الرهيب رأسا . كلمة حية واحدة اعادت الامور الى نصابها . واخذوا يكررون متفهمين ايضا : «آ ، صاحب الصيد غير المشروع ؟ . .» . وبدلا من السجن ومعسكر الاعتقال ارسلوه الى الفوج الجوى الشهير «كوندور» ، الى اسبانيا ! اما الآن فقد تحركوا من جديد وراحوا يتلصصون ويتربصون . ويحاولون من جديد ان ينتزعوا من المانيا مناضلا آخر من قدامى المشاركين فى الحركة . انهم يبغضون عامة الناس ويخشونهم . وهم الذين ألبوا الفوهرر فى حينه علـــى الفصائل الهجومية ، على الكابتن ريم ، وكانوا متخوفين من ان الرايخسفوهرر سيغدو فعلا بمثابة الجيش الشعبـــى وسيكنس ملازمو وكابتنات الامس كل الجنرالات الشائخين

من الاركان . والآن ، حيث تحرز النصر ، صاروا من النشطاء وتعلموا كيف يمدون ايديهم ، يمدونها بمثابرة وجد . ويجهدون لتبلغ ايديهم مقام الفوهرر من فوق رؤوس المناضلين القدامى .

التفت موراقييف الى الوراء ، فقد خيل اليه ان ضحكة رئيسه وكلماته موجهة اليه . لكن ديرليفانغير قابل نظرته مقطبا وامر السائق بان يسبق البلهاء الذين يثيرون الغبار امام «الاوبل» . اعطى السائق الالمانى باصرار اشارة صوتية طويلة ، فانعطفت الناقلة المدرعة المبقعة فى الحال الى حقل الجودار الاخضر وتوقفت مهتزة ، وسبقتها سحابة الغبار وزحفت ببطء على الطريق لتلتقى بالدخان

«عزيزى الرفيق فريدريك . . .» — هكذا يبدأ ويضيف رأسا : «انا مندهش بسرور . . .» نعم بسرور ! مندهش بسرور لان رايخسفوهرر الاس اس تسلم شخصيا معلومات عنْ حياتى فى لوبلين . . . ستستقر على هذه الكلمات نظرة متشبثة مشمئزة من زجاجتى النظارات المعروفة : «من هذا الذى يتجرأ على الاستشهاد بهملر ويذكر اسمه عبثا؟» ديرليفانغير ، نعم ، اوسكار باول ديرليفانغير . لاحظ انه الآن برتبة شتورمبانفوهرر ، آمر كتيبة خاصة ! نفس ذاك الشخص الذى مارس «الصيد غير المشروع» ، وهو بالمناسبة من قدامى المحاربين فى اسبانيا ، وبولونيا . والحديث يدور عن بولونيا بالذات ، عن معسكر الاعتقال فى لوبلين . . . تعلقوا به كالكلاب . لانه لم يسلم ، ويا للعجب ، اسمالا يهودية . لم يسلم الحاجيات بموجب التوجيهات . يا لتلك التوجيهات ! انهم يستخدمونها هنا ايضا ، يستنسخونها من تقاريرى ويشيرون علىّ بما يجب

ان افعل وكيف افعل . اين الاسنان والفكوك الذهبية ؟ ماذا فعلت لها ؟ سيلتهمون البط المحمر ولحم الخنازير التى تجمعها كتيبتى وترسلها وسيكتبون من جديد عن الاسمال والاسنان . لا يفيد الصبر معهم . ولكن يجب ان اكتب عن ذلك تلميحا بسخرية واحتقار . بسخرية مريرة واحتقار . وربما تجدر الاشارة الى هدية الرايخسفوهرر ، الى كتاب «جنكيزخان» الذى يهدونه بتوقيع هملر ، مع انه ليس هو المؤلف ، الى كل ضباط وآمرى الوحدات المتميزة . المتميزة فى ماذا ؟ ويسر الرايخسفوهرر عندما سيقرأ ان تلميحاته وفكاهاته بخصوص توزيع هذا الكتاب قد فهمت وحظيت بالتقدير . فهذه الرحاب قد دبت ودمرت من الشرق الى الغرب ، وحان الوقت للقيام بالشيء ذاته من الغرب الى الشرق . حان الوقت لمصافحة جنكيزخان عبر آلاف الكيلومترات ، عبر القرون . تلك هى سعة التفكير ، وليس توجيهاتكم السخيفة : «ننصح بتخفيف توتر النهار عن طريق الامسيات الودية وقراءة رسائل الاهل والاقارب . . .» . ربما قراءة توجيهاتكم وتوصياتكم ؟ حالما نعود من بوركى هذه الى بيتشورسك سنشرع فى القراءة ، ايها البلهاء !

«انا مندهش بسرور ، يا رفيق فريدريك ، لان الجنرال هـ . . .» (لن اذكر اسمه بالكامل ، وسيفهمـــون) «لان بريغادينفوهرر هـ ادى واجبه و . . .» (حبذا لو كتبت «وافترى علىّ») . ادى واجبه الخنزير ! فهل هو الشخص الوحيد المهتم بمصالح الدولة . مرت شهور طويلة على معسكر لوبلين — مايدانيك ، وصار ديرليفانغير يقود كتيبة كاملة ، وغدت حياة الآلاف ليس فقط آلاف البولونيين واليهود ، بل البيلوروسيين

السوفييت هؤلاء ، متوقفة على تصميمه وصلابته ، اما الوشايات فلا تزال تتعقبه وتتقفى اثره . انهم متواطئون مع هؤلاء الانصار الشقاة . نعم ، اولئك وهؤلاء يريدون شيئا واحدا ، يريدون القضاء على ديرليفانغير . هذا ما حصل يا عزيزى الرايخسفوهرر . واذا استمعنا الى ما يقولون يتضح ان اوسكار ديرليفانغير ما كان له فى لوبلين غير هم واحد هو الحفاظ على حياة خمسين يهوديا . وجريرته الثانية هى انه سممهم ، سمم نفس اولئك اليهود . هذا كلام متناقض ، لكنه لا يعنى شيئا بالنسبة لاولئك الالمان الذين يدوسون غيرهم من الالمان بدافع من الحسد او الخوف . وبذلك يعرضون الاخوة العرقية باروع شكل . ما اسوأ ديرليفانغير هذا : سممهم خفية ، ليتصرف بالفكوك والاسنان الذهبية فى غيـــاب البريغادينفوهرر . فى البداية كان يطعمهم ، بل ويتحدث معهم بود . اختار لنفسه وحافظ على الذين اسنانهم من ذهب . ثم سممهم على عجل واختفى الذهب .

كلام مقنع . وكله كذب !

امثال هذا البريغادينفوهرر يقيمون وزنا كبيرا لنشاطهم فى معسكرات الاعتقال . واقصى ما يسعون اليه لاثبات اخلاصهم للفوهرر هو تخليص اوربا من مليونى يهودى . البدن يقشعر من سعة هذا النطاق . انهم لا يستطيعون ان يفهمونا نحن الذين تعتبر هذا التصرف مجرد وسيلة للتهيؤ واكتساب شحنة قبيل العمل الحقيقى . فامامنا ثلاثة او خمسة ملايين ، بل ثلاثون ، خمسون ، مائة مليون — بحر من السلافيين . حبذا لو وصل الى هنا وخاض فى مستنقعات بيلوروسيا ، فذلك لا يشبه الجلوس على ابراج الرشاشات وراء سياجين

من الاسلاك الشائكة . غابات وعرة ومستنقعات مصاصة وعصابات وراء كل شجيرة وركن . فى مثل هذه الظروف نعمل . وهنا ستنسى فى الحال اسنان الذهب . ولن تعتبر «تزوير» تسجيل املاك خمسين من السجناء حادث يستحق الاهتمام من قبل المراجع الأعلى . فالى متى يتساءلون عن ذلك ؟ والى متى اظل ارد على الاسئلة الحمقاء ؟ سلمتها الى شترايبل ، نعم سلمت كل الثياب الى شترايبل ، واستخدمت كلها فى فريق الاشغال الشاقة . اما الأسنان الجرباء فقد اقتلعوها بحضور مدير شرطة لوبلين وسلمت كلها الى اطباء المعسكر . نعم سلمت الى اطباء الاسنان . افلا تعرفون شيئا عن هذه الممارسات ؟ فان اسنان افراد الاس اس تتلف ايضا ، ولذا يترك لهم جزء من الاسنان الذهبية المغتنمة . كنت اتوقع ذلك فاخبرت رأسا البريغاديفوهرر هـ . نفسه ، مع انه الآن يتظاهر بانه يسمع لأول مرة باسنان الاس اس وبالممارسات التى بدأت من قبلنا . لقد غفت الذاكرة حالما سمع بان المسؤولين فى برلين عرفوا بذلك واعربوا عن تذمرهم . ان امثال هؤلاء الالمان يحملون الى اوساطنا اصولا لا يمكن ان تطبق الا على الاجناس الاخرى غير الالمانية . واذا خلطنا كل شيء فكيف سنبنى النظام الجديد وكيف تبنى الحياة الالمانية النزيهة فى العالم بأسره ؟ يعنى ان الالمانى يجوز ان يكذب على الالمانى ايضا ، وان بالامكان مطاردة ابناء جلدتنا بالوشايات ان لم يكن بالكلاب ! كلا ، تأمل يا رفيق فريدريك (وانت ايضا يا رايخسفوهرر) ما ابسط الامور وما اسهل الاقتناع بها ! شرب العرق مع اليهود ، وارتبط بعلاقة غرام مع يهودية ، وبعد ذلك سممهم جميعا !

قاووش كامل . والاكثر من ذلك — اسمعوا ، اسمعوا — انى صرت اتردد وافكر فيما اذا كان من اللازم ان اتخلى عن سائر مبادئى العقائدية واستبدلها بالميل الى يهودية ما . وبعد ذلك ارتعبت واطعمتهم الزرنيخ . ها هو مركب النقص الذى يعانون منه يتجلى بكل وضوح فى هذا المنطق . الافضل لهم ان يقولوا للآخرين ، وليس لى ، كيف يؤمنون بالانتصار النهائى لافكار الفوهرر . فقد رأيت الكثير من ذلك فى بولونيا . واقتصر هنا على ذكر قصة قميص البولونى الذى خاط عليه سرا ارقام الذين قتلوا فى المعسكر واسماء اكثر الضباط تحمسا لذلك ، فقرأوا ما هو مكتوب وحصل هرج ومرج وكأنما عثروا على مستودع للسلاح . فحصوا كل الثياب لعلهم يعثرون على كتابات اخرى عليها . وانت نفسك ، يا رفيق فريدريك ، اخبرتنى بانهم كانوا يفتشون حتى العجيزات العجفاء خوفا من ان احدا سطر عليها ارقاما واسماء للذين سيأخذون الثأر فيما بعد ، وخبأ عليها مادة للاتهام . اما القميص الممزق الذى خيطت عليه اسماؤهم فلم ينسوا ان يبعثوه الى برلين ، ولسان حالهم يقول : انظروا كيف نجازف ، وقيموا بسالتنا . فبأى صوت كان يمكن ان تغنوا لو كنتم فى محلى هنا ، فى بيلوروسيا العصابات هذه ؟ هل يمكنك ان تقنع هؤلاء الذين حفظوا عن ظهر قلب ، كالصلاة ، افكار الاشتراكية القومية بان المعايير العادية لا تصلح للجميع ؟ «هل يمكنك ان توضح تصرفاتك لاناس لم تزدهر افكار الفوهرر فى نفوسهم بفرحة وحبور ؟ انهم لا يتصورون حتى بان الالمانى الحقيقى ، الانسان السيد ، يشعر بالحاجة الى اختراق جمهور البشر الناقصين ، كالسكين ، دون ان يخشى التلوث . لان المناضل

القديم لا يمكن ان يتلوث . وهل هناك ما يمنح المرء شعور المتحكم بالموقف والسيد المنتصر غير اللعب بشجاعة ومجازفة على الحافة ؟ كل ما تريدونه ان تختبئوا وراء الجدران وتتابعوا من وراء الزجاج كيلا تسمعوا العويل واللعنات . يا ليتكم تأتون الى هنا ، الى بيلوروسيا . فهنا لا يمكن تلافى «الاتصالات» حتى «غير المرغوب فيها» . كيف كنتم سترتبكون لو عرفتم بان جنودى ينفخون فى الهارمونيكا فى الحفلات الريفية ؟ صحيح انهم فى صباح اليوم التالى يذهبون الى نفس اولئك الاهالى والى نفس تلك المنازل ويصفون الجميع . جميع الذين عزفوا لهم . ولكنكم على الاكثر ستنسون الاشارة الى هذه النقطة الصغيرة فى تقاريركم . اما النفخ فى الهارمونيكا فيمكن ان تجعلوا منه «خيانة عظمى» .

كلما امعن الشتورمبانفوهرر ديرليفانغير فى التفكير المستهين بالخطر «الوثائقى» الذى يتهدده وكلما طرح على «الرفيق فريدريك» المزيد من حججه الدامغة شعر بوخز بين الاضلاع ، وازداد قلقه وتعكر مزاجه . كل ذلك فى مثل هذا اليوم الهام الصعب المسؤول .

اوسكار ديرليفانغير يعرف جيدا كيف تتحطم المصائر والمراتب بعد ان تفتتها الوريقات والوثائق غير الملحوظة والاشخاص التافهون الذين لا يمكن مع الاسف ان تحتويهم بذبابة التنشين . الانسان عندما يبلغ الذروة يتصور انه فوق كل شىء ولن يطاله احد ، وفجأة يهوى من عل ، وتلحق به اللعنات : المانى غير خالص اخفى الحقيقة ، لوطى ، مختلس . ولا يكاد يستعيد رشده حتى يجد نفسه فى زاكسينهاوزين بمثلث اسود او بنفسجى على الثوب المخطط .

انه الآن هادئ مسالم يحمل رفشا او فأسا ، ولم يعد بالامكان تصوره فى رتبته السابقة ، فى بزة الجنرال وعلى عينه نظارة فردية . تلك ظاهرة معروفة تماما . وقد لاحظ بنفسه حالات مماثلة عندما خدم فى لوبلين وسافر الى زاكسينهاوزين وداهاو لتبادل الخبرة . خذوا بول مثلا ، فهو ليس جنرالا ، الا انه المانى مخلص للفوهرر . السكير الشجاع بول اجتاز هذه المحنة ايضا . كان يحمل الرفش ويرتدى ثوبا عليه شارة الفساد الاخلاقى البنفسجية المثلثة . ومن حسن حظه ان ديرليفانغير صادفه فى الطريق . لكن ديرليفانغير نفسه ما كان يستطيع ان يساعده بل ما كان يريد ان يساعده لو لم يأت من الرايخسفوهرر سماح بتنسيب هذا الجمهور كله الى الفرق التنكيلية ، لارغامه على ممارسة نشاط نافع للالمان .

ولكن ما اشد ما يتغير الانسان . يا للغرابة والدهشة ! فلنأخذ بول نفسه . كان طالبا هائجا لا يرضخ لشىء ، ثم سجينا لديه رقم وليس لديه صوت ولا وجه ، ثم عاد من جديد الى حالته الاولى ولكن بمزيد من الهياج والسكر والعربدة ، انه بول الذى يحطم كل شىء فى طريقه . لكن الامر الرئيسى هو كيف تتصور نفسك وليس كيف يتصورك الآخرون وكيف تبدو فى انظارهم . وقد اجتاز ديرليفانغير ذلك عندما كان موقوفا ينتظر المحاكمة بتهمة العبث «باشخاص فى اقل من الرابعة عشرة» . فالانسان يكاد يفقد ماهيته : شفاهه تلتصق مبتسمة من تلقاء ذاتها وترتفع كتفاه لتبلغا اذنيه وتتهدل اذناه لتبلغا كتفيه . ويبدو اى بواب فى انظاره كالاله . . .

وفى معسكرات الاعتقال فهم الانسان وحدق فيه اكثر

مما فى اى مكان آخر . كان حكيما ذلك الامر الذى صدر بارسال كل الذين يخدمون فى «قوات الاس اس العامة» للتدريب على الخدمة فى حراسة المعسكرات . حقا ، فالمرء يتفهم هناك كيف تبدو وما رائحة نفايات البشرية ، حثالات البشر : المجرمون واليهود والبولونيون الملاعين . . . الرايخسفوهرر هملر يجيد التعبير عن اعمق المعانى بكلمة تحفظها الذاكرة : «اقتربوا من شرج اوربا وتشمموا» .

وها هى المفاجأة : بول يقف فى حالة استعداد فى المعسكر . «قبعته» خرقة تشبه الطاقية امسك بها وضغطها الى صدره ، وغض بصره . حثالة بشرية مزرية باهتة — الانسان السابق بول توميل ، السكير العربيد بول . لقد عرف ديرليفانغير طبعا عندما رآه . لكن وجهه النحيل الوسخ لم يشرق بالفرحة والامل ، بل انطبعت عليه مسحة من الرضوخ الجبان والشعور بالذنب . وكان من دلائل الوقاحة انه عرف شريكه السابق فى السكر ، ولذا فهو كأنما يدعوه للتعرف عليه والاعتراف به هو بول . سقوف حانات الجعة والحانات الطلابية فى ليبزيج التى كان يحب التوقيع عليها لا تزال الآن ايضا تحتفظ فى بعض الاماكن باسم بول توميل . ولكن هذا الاسم لم يعد يشير الى المانى آرى قح . وحل محله رقم على الثوب المخطط . انه وسخ تعيس يثير الشفقة . الاهم انه تعيس . وبذلك كأنما يؤكد على انتمائه الى الحثالات . يؤكد بذلك اكثر مما بثيابه والشارة المثلثة عليها . حتى قطعة السحق الطازجة اللذيذة اذا سقطت منك سهوا فى وعاء للنفايات العفنة فانك لن تلتقطها من هناك ولن تأكلها . لانها تغدو فى الحال من النفايات . هكذا

17-304

هو الانسان ، حتى اذا كان المانيا ، عندما تلحق به الهزيمة ويثير مظهره الشفقة . تكلم مع بول وسمع صوتا يرد عليه من الوعاء القذر ، صوت المعسكر باهتا طائعا مرتعبا . اراد ان يصفعه ويدوس عليه ليغوص الى اعمق مما كان ، كيلا تربطه اية صلة ببول هذا ، وبماضيه الطلابي .

لكنه تذكره مع ذلك فيما بعد ، بل وانقذه وضمه الى كتيبته . لكنه عرف منذ تلك اللحظة واحس — كما يحس المرء بالشم — ان هناك حثالات عرقية بين الالمان ايضا . انهم اولئك الذين دفعتهم الحياة الى الحضيض تحت الاقدام ، والذين ينظرون من هناك بعيون مهزومة . كانت تلك النظرة من نصيب كل الالمان لو لم يعد لهم الفوهرر وحزبه ارادة السلطة ، الارادة القومية . لولاها لسقطوا طويلا ، وربما الى الابد ، عند اقدام البقية المتبقية من اوربا ، ولغدوا امة هالكة مزرية عاجزة عن الاعمال الحازمة وعن تطهير الذات . وحتى الآن ، حتى الكثيرون ممن يسمون «بالالمان العقائديين» لا يفهمون لماذا نوموا ، قتلوا ، قبيل الحرب الواسعة ، مائتى الف او ثلثمائة الف من الالمان المرضى والطاعنين فى السن والعجزة . لم يكن السبب هو ان الامة عاجزة عن توفير الطعام لهم (فذلك تفسير غبى مهين لشعب يحب العمل !) . ولم يكن ذلك تمرينا او بروفة (افلا توجد فى معسكرات الاعتقال مادة كافية لهذا الغرض ؟) . كلا ، كانت الامور اكثر جدية وخطورة . وكان بالامكان ان يتم ذلك بذكاء لو كنا بانفسنا على مستوى الاحداث . فان تلك «السيارات الصحية» السرية لنقل البشر ، وتلك «المستشفيات المختصة» التى جرى فيها حقن الابرة الاخيرة وسجلت «بطاقة

المرض» وارسلت منها حوالات نقدية الى الاهل والاقرباء مقابل «العلاج» ووعاء الرفات — هل كانت ستبقى سرا حتى فى ظل الاشتراكية القومية ؟ هيأوا كل شىء ، لكنهم نسوا ان يهيئوا التبرير الذكى المقنع . كان بوسع الالمان ، الالمان الحقيقيين ، ان يفهموا لو تلقوا التفسير بصراحة وفى الوقت المناسب . لقد اقتنعنا مرارا ، على ما يبدو ، بالحقيقة القائلة : افعل بالناس ما تريد ، ولكن تحدث معهم بين حين وآخر حديثا جديا واعترف لهم حتى ببعض الذنوب ، وعند ذاك يمكنك ان تمتطيهم وتستمر ! اذا كان هناك نقص فى شىء اعترف بالنقص فى اللحظة المناسبة واعترف بالهفوات التى اقترفت ، وسيفرح الناس للحقيقة ، لكنهم سينسون جوهر القضية . لقد فقأوا عيوننا كثيرا بقولهم : «المدافع بدلا من الزبدة !» ، فى حين ان المدافع صارت الآن تؤمن الزبدة للالمان . «الحقيقة بدلا من الزبدة» — ذلك مبدأ مجرب لا يقل اهمية . لكننا نستهين به ، والشعب الالمانى سمع الحقيقة ليس من افواهنا ، بل من الشيوعيين ، من الاذاعات الاجنبية ومن خطب القساوسة الظلاميين . فما اشد العويل الذى اطلقه كل هؤلاء «الانسانيين» ! ولكن اين كانوا عندما كان الالمان المنهوبون يهلكون من الجوع ؟ لم يكن احد يهتم بهم . اما الآن فقد اخذوا يولولون . كيف لا وقد شعروا بان الالمان ظلوا المانا . وحتى اكثرنا تشددا لن يسمحوا بان القشرة المتعفنة من الامة — كل هؤلاء المجانين والمهزومين — ستعدى وتسمم كيانها كله .

لكن القضية ليست فى المرائين والجبناء فى الداخل والخارج ، وليست فى المجانين السافرين ، بل فى الشعور

العفوى الذى يلازمنى انا ايضا . انه الخوف من الهزيمة . فالذين كانوا فى معسكرات الاعتقال ، حتى فى الحرس ، قد فهموا فعلا : ما اسهل وافظع ان يكون الانسان من النفايات . لا داعى للكلام عن المعسكرات بهذا الخصوص . فاذا فقدت صحتك وعطف الرايخسفوهرر تفقد هويتك وان بقيت المانيا ، وتغدو شخصا يستحق الشفقة ، اى الابادة . طبعا لا تضيع كل الآمال ان لم تكن من الحمر . ومع ذلك ، يعتبر الجرحى ابطالا اذا كانوا المانا . يكتبون عن ذلك ويتحدثون . لكنهم لا يفصحون حتى النهاية . فالجريح يستثير الشفقة بأنينه ومظهره ، ويولد لدى الالمان الآخرين شعورا ضارا بصحة الامة . ان المؤاساة ، حتى بالنسبة لابناء جلدتنا ، شعور ممض يثبط العزيمة والارادة . وليس من الصدفة ان ينعت الذئاب بممرضى الغاب . الا ان الذئاب تعالج عشيرتها ايضا بنفس الاسلوب . فالذئب المكشر متألما والدم يشخب منه يثير هياج الذئاب الاخرى . تلك غريزة مجربة . ولو كان عددنا ٨٠٠ مليون وليس ٨٠ لكنا مستقيمين حتى النهاية ، فان كل من يدعو ولو مرة واحدة الى المؤاساة والاشفاق بالآخرين يجب ان يلقى نفسه بنفسه فى صندوق القمامة . ان هذا النوع من نقاوة الامة لا يزال حلما . ولكن ذلك لا يعنى ان هذا المبدأ لا يطبق الآن . انه يطبق ، ولكن بشكل مشوه معوج يلحق الضرر بالالمان المكتملين . المهم ان لا تسمح لاحد بان يدفعك الى تحت ، الى تحت الاقدام وان للحظة واحدة ، كيلا تدوسك الاقدام من جديد كالدودة ! . .

صاحبى فريدريك يغمز لى ، وهو يتحلى بحماسة شم

رقيقة . وطالما انه صمم على التحذير من الخطر ، لاسيما فى رسالة ، فان الخطر موجود فعلا . ان التلميح الى «الخطايا القديمة» المرتبطة بيهودية فى لوبلين يبين بانه هو ، وبالتالى الآخرين يعرفون بوجود ستاسيا وانهم سمعوا بها . ها هم الخنازير يحفرون تحتى . نعم ، يجب اعلان الخطوبة رأسا . انت جالس هنا يا معاونى تفكر فى شىء ما ، ولكنك لا تتوقع بان الخطيبة والخطوبة تنتظرانك فى موغيليف ! . . . (لم يلتفت موراقييف الى الوراء ، مع انه خيل اليه من جديد ان هتاف رئيسه وضحكته يعنيانه هو) . اما الرسالة فستصل وتفعل فعلها ، اذا سلموها بالطبع الى الرايخسفوهرر واذا لم يكن قد نسى «صاحب الصيد غير المشروع» . ومن ذلك يشعر المرء بالاسف . فكلما ارتقى فى سلم المراتب يشتد تضايقه من وجود وريقة شريرة حسود لا داعى لها تزحف وتتربص به ، وهى قادرة مع ذلك على ان تقذفه هو والسلم الى تحت . وكلما ارتقى وازداد وزنه كلما كان سقوطه اوطأ واكثر ايلاما .

الوريقات القديمة والجديدة تتململ بمزيد من الحسد عندما تسمع بنجاحات كتيبة اوسكار ديرليفانغير الخاصة . ولكن كلا ، يا زملائى الاعزاء ، فات الأوان ! أسأل الله ان تكون الرحلة الى برلين موفقة . . . وليتعلم اولئك الذين يقودون كتائب «المانية صرفا» وآرية خالصة كيف ينبغى العمل وكيف تطبق افكار الفوهرر عمليا . وبعد ذلك فليحتقروا «شلة ديرليفانغير» . سألمح فى الرسالة الى الغرض من سفرى الى برلين : الاسلحة الثقيلة ، الهاونات والمدافع . . . لن نتخلص من العصابات اذا كانت الكتيبة تمارس ما تمارسه دون ان

تعزز بالاسلحة . . . فالعصابات تداهمنا كاليعاسيب . الا ان الكتيبة ستتقدم الى الامام . اذا لم تعرقلنا بشدة طبعا تلك النفوس الورقية الحسودة . شكرا للبريغادينفوهرر الكونت فون بيوكلير . فان حاشيته على التقرير الاخير وتأييده للاسلحة الثقيلة جاءا فى الوقت المناسب . . . (فليعرفوا بان لدى ديرليفانغير صلات حتى بين الكونتات !) .

كل شيء فى هذا العالم يجرى بهذه الصورة دوما . فانت مشغول بقضية معقدة صعبة ، ويمكن القول ثورية تجديدية ، بينما يتعلق بيدك شخص ما ويتسلق عليك كجرذى يتسلق قائمة الطاولة . تفو ! ينبغى ان انهى الرسالة بعبارة مقززة ساخرة . كلا ، ينبغى انهاؤها بعبارة متعبة تأتى كأنما على مضض : شننت امس عملية كبيرة ضد العصابات . يمكنكم ان تشطبوا من الحساب الفين من اعداء المانيا ، او تسجلوهم ، ان شئتم ، على حساب كتيبة ديرليفانغير الهجومية . لم اتكبد بخسائر . . . ولكن ذلك لا يعنى ان الامور هينة علينا . ولا اعترض اذا اراد احد ان يستبدل ظروف الجبهة بظروفنا . فان البعض هناك يتصورون حتى الآن ان البيلوروسيين اكثر السلافيين وداعة . طيب ، تعالوا على الرحب والسعة ! وانا مستعد للحلول محلكم سواء فى الشمال او الجنوب . اعطونى المانا عاديين واعطيكم «الاممية الاشتراكية القومية» التى تحت امرتى . ولكن قبل ان توافقوا اسألوا عن صعوبات العمل — اما عن الاجهاد العصبى فحدث ولا حرج — عن الجهود البدنية الصرف التى نحن مضطرون على بذلها لكى نجعل قرية واحدة ترقد فى الحفر او تقنعها بدخول الكنيسة او المستودع . انتظروا قليلا وستدرسون

اساليبى وتقاريرى فى اكاديمياتكم مثلما تدرسون مؤلفات كلاوزيفيتش .

من الدراسات والبحوث المرتقبة فى تاريخ وسيكولوجيا الهبريرى .

«العلوم فى خدمة الهبريرى» . من مفكرة الهبريرى .

يحتوى جسم الانسان على ما يلى :
ماء يكفى لملء برميل من ١٠ غالونات ؛
دهون تكفى لاعداد ٧ قطع من الصابون ؛
كاربون يكفى لصنع ٩٠٠٠ قلم رصاص ؛
فسفور يكفى لصنع ٢٢٠٠ عود من الثقاب ؛
حديد يكفى لصنع مسمار متوسط الحجم ؛
كلس يكفى لطلاء قن دجاج . . . » .

سيشع البلور فى السماء ، فى ضوء الشمس ، وفى شعاع المصابيح الضخمة ليلا . وجه الفوهرر المحنط بشكل رائع سيراه الجميع جيدا من تحت ، من الارض ، مكبرا بعدسات هائلة ، ليتذكر اولئك الذين سيتركون على قيد الحياة من اجل الانسان ، ليتذكروا فى كل لحظة لمن هم مدينون بكل ما لديهم . فهؤلاء الدواب سينسون كل الذين ادوا العمل الرئيسى بدلا عنهم ومن اجلهم . البلورة تسبح فوق الارض ، والعدسات المكبرة الضخمة مثل عيون الفضاء الكونى ، اليست تلك فكرة مثيرة ؟ ولكن حالما اتفوه بكلمة عنها سيقولون : ديرليفانغير يدفن الفوهرر حيا . لكنه هو نفسه لا بد وان يقدر الشخص الذى جاءته العناية الالهية .

ولربما يستدعيني ويتم اخيرا ذلك الحوار الذى اجريته ذهنيا مرارا وتكرارا . ليس ذلك خيالا يسابق السحب فى تحليقها ، كلا ، انه فى المقام الاول مسائل عملية حان الوقت من زمان لطرحها وحلها على نطاق ثورى حقا . انهم يمكن ان يفقدوا اسنانهم وهم منهمكون فى حساب اسنان الآخرين . من الضرورى ان تشكل — على جناح السرعة — كتائب هجومية باكبر قدر ممكن ، فى كل دائرة . وقد عثرنا على نمط تلك الكتائب ، اذا كنا بالطبع نحكم على الامور بخواتيمها ، ولا نلعب بالالفاظ : «شلة ديرليفانغير» «مجرمو ديرليفانغير» ! ان عصابات الانصار تنمو كالفطر . موسكو ساهرة . والغلبة هنا للسابق . فاما ان يفيقوا ويستجمعوا قواهم واحقادهم ويوفروا احتياطى السلاح ويجرونا جميعا الى حرب لا ترحم خلف الجبهات — وعند ذاك يستحيل طردهم من المستنقعات والغابات — واما ان تتمكن الالوية الخاصة من تقليص السكان لدرجة لا يستطيع فيها البيلوروسى ان يسمع البيلوروسى من بعيد ولا يراه من خلف سحب الدخان ، حتى الذين ينجون بجلودهم ويظلون على قيد الحياة . انكم تستخدمون خبرة «شلة ديرليفانغير» بالكامل وتستنسخونها بعناية فى توجيهاتكم . ثم تبعثونها اليّ مرتدين قناع الجد . حسنا ، عندى من هذه الخبرة ما يكفى كل مكاتبكم . فان بوركى ، مثلا ، خلقها اله السلافيين من اجل تجربة واسعة ستعطيكم من النباهة والابداع فى وريقاتكم اكثر مما تمنحكم اياه الاكاديميات . ولكن هل تفهم موديلات عرض الازياء التى ترتدى بزات البريغاديفوهرر ما اكنه من مشاعر وما يملأ نفسى من احاسيس ، مشاعر واحاسيس السيد الالمانى ، عندما

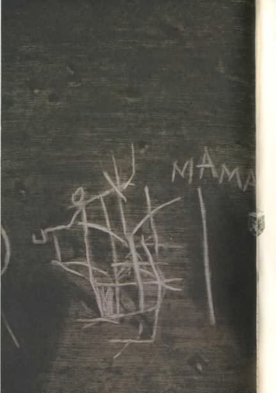
يقف الشخص امامى حيا ، قبل ان يتحول الى جثة ، وارغمه على الابتسام ، فيبتسم مترددا ويكشف عن الذهب العائد لنا ، او عندما اغفو واستيقظ جنب يهوديت ، وانا اعرف على وجه التحديد تقريبا انها ليست ستاسيا ، وان السكاكين مخبأة فى قلبها الطفولى وانها تحدها كل ليلة وتبللها بالدموع وترى فى المنام اختها التاريخية تحمل الرأس المقطوع على طبق ذهبى فى لمع مواقد الاعداء ؟ اغفو ولا ادرى هل سافتح عينى (اذا كنت سافتحهما) وانا على الكتف الطفولى ام على الصينية المدماة اللزجة . . . ان القضاء على الاسكافيين الخمسة وابنة اليهودى فى سردابى لا يحتاج الى رتبة الشتورمبانفوهرر ولا الى كونى من قدامى الحركة وقدامى اعضاء الحزب . نعم ، هذا العمل كثير فى القرى ، وهو هناك اكثر تعقيدا ، مع شعب العصابات هذا . واذا كنتم مهتمين لهذه الدرجة بتوازننا الروحى وبالاستجمام بعد عمل عصبى فاسمحوا لى ان ابحث بنفسى عن الوسائل الكفيلة «بالتخفيف من توتر النهار» . بول ، مثلا ، لا يحتاج الى اكثر من جرعة مزدوجة من العرق قبل العملية وبعدها . لكن الآخرين يحتاجون الى شىء آخر . اننا نتحدث ، نتحدث كثيرا عن الارستقراطية الجديدة ، فى حين انها تبدأ من هذا الواقع وليس غيره : البعض يكفيه العرق ، والبعض الآخر يحتاج الى شىء اكثر رهافة وسموا ! .

قبضوا على ستاسيا اثناء الغارة على البولونيين فى لوبلين . وهى طفلة نحيلة تعيسة بعينين متوحشتين وصدر ناهد . رقبتها رقيقة كالسنبلة ، يكفى اصبعان لتطويقها . وكان ذلك اول ما لاح فى منظرها ، مع انها ترتدى معطفا رجاليا

باليا . وبالمناسبة فالثياب الرجالية فضحت انوثتها الطفولية .
كان يمكن ان يلقى عليها ديرليفانغير نظرة ويواصل السير
صوب سيارته — كان يغادر مطعم الضباط عندما اقتادوا
البولونيين ودفعوهم فى الشارع — لكن نظرته وقعت على عينين
متقدتين لامعتين كأنما عرفتاه . وكان بوسعه ان يقسم بان
هذه البولونية المعتقلة تعرفه ، فقد نظرت اليه نظرة شخص
يعرفه . وبعد ذلك اكدت بان شيئا من ذلك لم يكن وانها
نظرت اليه مجرد نظرة ، ربما كانت بفعل اليأس والقنوط ،
وخيل اليه انها تعرفه . انه غير واثق مما اذا كانت تعرف
او لا تعرف بانه هو نفس ذلك الضابط الذى اشترى الاسكافيين
اليهود من الكونت فون غرابى عندما كان ذاك يستعد للانتقال
الى سموليشك . لقد اشترى من الكونت فون غرابى الجشع
اباها وستة اشخاص آخرين ودفع ثمنهم ذهبا . لم يشترهم
هم طبعا ، بل كمية من الجلود الصقيلة الممتازة ، وهم
معها كاشخاص يستطيعون ان يحولوا هذه المادة الى احذية
ممتازة . اما الآن فالجلود لم تنفد ومع ذلك يطلبون منه
ان يقتل آخر من تبقى فى السرداب . انه لا يأسف على
تلك الجلود باية حال ، لكن ذلك حماقة فيها شىء من
الاهانة . ولو قلت لفريدريك نفسه انى اشترى اليهودى
بالذهب كى اقتله لنعتنى بالمجنون . لا فرق اذا كانت ستاسيا
تعرف بذلك ام لا ، ولكن هل يعقل انها تأمل حتى الآن
فى ان يصدق ديرليفانغير ما تتظاهر به ؟ فما اشد اللامبالاة
اليائسة فى هاتين العينين الزرقاوين عندما اتطرق الى يهود
السرداب وكأنى اتكلم عنهم صدفة . وها هى اللعبة تستثير
مشاعرها منذ ستة شهور . ولا اهمية لتلك المشاعر ، حتى

وان كانت هى الحقد والرعب . المهم حدة المشاعر . اننى
اسحب وانتزع الواحد بعد الآخر من بين اصابعها المرتجفة ،
واتسلل خلسة الى لعازر ذى اللحية الكثة السوداء الذى اقدمت
وتقدم على كل شىء من اجله . فى حين اتظاهر بانى اعرض
عليها تأملاتى وافكارى المتعبة ، اعرضها كما فى العائلة . . .
وادعى بان الوقت حان لغلق السرداب . ففى موغيليف يتهامسون
ويقولون ان لدى ديرليفانغير سفينة نوح سرية غاصة باليهود .
كبار الضباط يتخطرون فى جزماتنا ، ومع ذلك يريدون لى
ان اكبو واتعثر . يكفينا اربعة ، بل حتى ثلاثة من الطفيليين .
فمن بقى منهم فى السرداب ؟ ذاك اليهودى الوسخ الضخم
يهوه — لعازر الملتحى ؟ ام هذا . . . الاخوان النحيلان ،
ما اسمهما ؟ وبيركا ، انه يستثير اعصاب حراسى بصلواته
وترتيله . نعم ، ما حاجتنا الى هذا الفتى الذى لا يجيد
شيئا ؟ ولربما هو ليس اسكافيا . ذاك هو ما يجعل هؤلاء
المحتالين يمدحونه طول الوقت . يجب ان نأخذه . . . ولعل
من اللازم ان نأخذ لعازر ايضا . فهو بلحيته الوقحة قد يصدق
فعلا بانه لا يمكن الاستغناء عنه . لقد استغنينا عن اناس
اهم منه . كلا ، كان اسطه ماهرا ، حتى انى اشفق عليه !
فالجزمات التى يصنعها لا تحس بها القدم ، ويمكن حتى
النوم فيها .

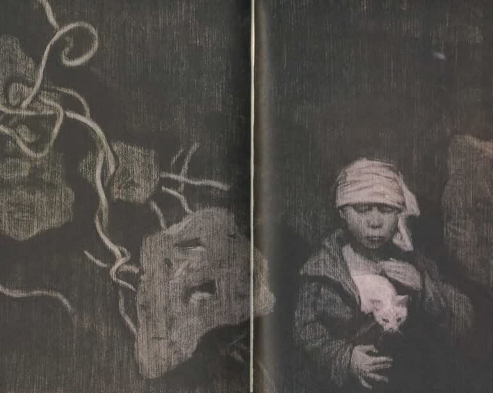
لقد دربت نفسها فلا يرتعش لها جفن او رمش ،
وكأن لسان حالها يقول : تلك قضية المالية تخصكم ، وانا
لا اهتم بسردابكم . ولكن . . . كلا ، فتلك تفاهة من
تغنج النساء ، فبأى حق اعرب انا ، الخادمة عن رغبتى ،
حتى وان كنت خادمة ديرليفانغير نفسه ؟ ثم اين انتعل هذا



الحذاء ، فانا لا اذهب الى اى مكان ، بل انا لا اريد الذهاب الى اى مكان . ولا اريد حذاء كالذى عند السيدة اولغا زوجة رئيس بلدية موغيليف . ولكنني كنت احلم بان يعملوا للسيد الشتورمبانفوهرر طماقا جلديا للجزمة . قد تضحك مما اقول ، لكني ذات مرة سرت فى ضواحى كراكوف ، وكنت صبية آنذاك ، وراء رجل يرتدى طماقا على الجزمة ورحت اتطلع طول الوقت الى قدميه اللتين تنطان فيها جميلتين . والبقع الشمسية تتراقص عليها كما على الاصداف البراقة . من يدرى ؟ ربما هذا الاسكافى الشاب مختص بصنعها . اما لعازر فقد اردت ان اكلفه بصنع حذاء لى . . . وقد اخذ قياساتى . اعذرنى رجاء ، لم يتسع الوقت لاخبرك . . .

فى البداية لم يكن يشتبه فى ستاسيا ، فهى بولونية كسائر البولونيات ، فما جريرتها ؟ ! وكاد يصدق تقريبا بانها بولونية فقدت والديها ولا تعرف اين هما . (وقالت بغيظ ساذج «رجالكم اخذوهما !») . ولم يكن يفكر كثيرا فى ذلك . فهو لن ينجب منها اطفالا ليعمدهم معها كما يقول السلافيون انفسهم . الى ان ابلغوه بان الحارس رأى وسمع كيف ركضت الى السرداب تحمل حذاء ، وكانت كعنزة مرحة ، لكنها اخذت تبكى هناك بصوت خافت فصاحوا بها ونهروها . واطل الحارس فرأى لعازر بلحيته السوداء يهم بضرب ستاسيا «براحته» الاسكافية الحديدية . وعندذاك اخذت تبتسم بشق الانفس وتوضح للالمانى الذى يوزع البصقات ان شيئا لم يحدث وانها ستبلغ الآمر بنفسها وستشكو اليه هذا «الشيخ الكريه» الذى رفض عملها . . .

كانوا آنذاك ستة . اقتادوا واحدا وتركوه فى غرفة ديرليفانغير



فاستجوبه بنفسه . وكان اصغرهم سنا وقد اخذه لانه يعرف الالمانية ويمكن التحدث معه بدون مترجم . وهذا شيء مهم ، لان ديرليفانغير اشتبه رأسا بوجود سر لا يجوز اطلاع الغرباء عليه . وبعد ساعة اخرجه شاحبا مشعث الشعر الى الباحة واعدمه رميا بالرصاص قرب المرئاب . وكانت كلماته الاخيرة : «لم اقل انها ابنته . لقد اخطأت فهمی . . .» .

كلا ، لقد فهم ديرليفانغير كل شيء بالشكل الصحيح . ويمكنه ان يقسم بان ستاسيا رأت كيف اخرجه وكيف اطلق النار عليه . لقد رأت كل شيء من النافذة ، لكنه عندما استدعاها الى غرفته جاءت كالعادة هادئة نشيطة بتواضع . وفي تلك اللحظة خطرت على باله : نعم ، هذه يهوديت حقيقية . لقد تحملت اللعنات وهی مستعدة لكل شيء . . . لكنه لم يقل لها شيئا مما كان يريد ان يقول . فلنلعب طالما تلك لعبة . وعدها وكأنه يخفف عليها : «سيكون عندنا قريبا اسكافيون من العاصمة . حالما نحتل موسكو . حان الوقت لاخلاء المكان لهم» .

واستولت عليه الرغبة فی النزول الى السرداب ليلقى نظرة على لعازر عن كثب . يا له من عجوز احمق ، يستحق ان تطلق عليه الكلاب . ودهش لغيظه على صاحبته «يهوديت» وفكر فی ان يسألها صراحة عندما يعقد قرانها مع مورافييف : هل كانت نظرتها تلك من بين الجموع صدفة ام ان يهوديت تحينت الفرصة لتتسلل الى خيمة القائد الآشوری الدموی ؟ كانت نظرتها اليائسة تستعطفه ليراها ويختصها من بين الجموع ويأخذها معه ، وقد اختصها واخذها (مع ثلاث بولونيات اخريات) للخدمة فی المطبخ (وكان قد بدأ بتشكيل كتيبته

18-304



الخاصة) . جاء بها الى الخيمة بنفسه وسلمها الصينية بنفسه . الخيمة مفترضة طبعا ، لكن الصينية حقيقية ، صينية فضية ممتازة : ستحملين القهوة لى فى السرير . وسيعتبرون ذلك هناك خرقا فظا «للقوانين العرقية» اذا لم يكن الرفيق فريدريك يبالغ عندما يقول بانهم على علم بذلك . سيعتبرون ذلك ليس منازلة بين ارادتين عرقيتين ، بل مجرد خرق للقانون . وهل يستطيع ان يدلل بان ذلك ليس خرقا ، بل هو اثبات رفيع من خلال المجازفة والسخرية ؟ فما اشد السخرية فى هذا الموقف من ستاسيا—يهوديت ، السخرية من كل التاريخ اليهودى والتقاليد اليهودية . فى اللحظات التى ينتزع فيها من يديها حياة يهودية بعد اخرى ، فى تلك اللحظات تتطلع اليه ليس ستاسيا ، تلك الفتاة اليهودية التى تثير الشفقة ، بل التاريخ اليهودى المسيحى كله يحطم يديه فى هياج عاجز مستميت !

كان العثمانيون يعرفون كيف يستخدمون العدو روحا وبدنا بشكل جميل . كانوا يقتلون الكبار ويربون الصغار ليكونوا انكشارية مسعورين لخدمة قصور السلاطين . يبدو ان السلطان بحاجة الى سيوف الاجانب المتصالبة فوق مخدعه ، والدماء المعادية تغلى فى عروقهم . ويمكننا ان نتصور كيف يستثير هذا الموقف دم السلطان الكسول اكثر من كل جهود المحظيات والاماء .

كلا ، حسنا فعل عندما لم يجبن ولم يستعجل ولم يأمر امس بابعادهم جميعا . فلا يجوز ان تعطى ظهرك للكلاب ، لانها ستنهش بنطالك مع اللحم . ولو حاولت ان تمحو الأثر بتضح رأسا انك مذنب . اما بهذه الصورة

فالامر يختلف : انتم مهتمون بالاسكافيين ؟ يمكنكم ان تأخذوهم وتأكلوهم مع العصيدة ، اذا كانت لديكم بالطبع جزمات جيدة ولا تريدون افضل منها . اما الخادمة ستاسيا ، او لا ادرى ما اسمها ، فاستفسروا عنها من معاونى الروسى مورافييف . فقد اعلنت خطوبتهما وتم الزفاف قبل ايام . اعتقد ان ذلك غير ممنوع على الضباط «الاجانب» ، أليس كذلك ؟ هناك ما يثير الشبهة فى عرق الخطيبة ودمها ، فهل من حاجة الى الاهتمام بنقاوتهما ؟ ما الفرق ؟ وما قيمة ان تكون ستاسيا هذه يهودية ؟ يا ليت همومى مثل همومكم فى مكافحة يهودية واحدة . وحتى ان كان ذلك كذلك بالفعل ، فان قرية بكاملها تنتظرنى ، بل عدة قرى ، يمكنكم ان تتأكدوا .

لو التفت مورافييف الى رئيسه لرأى نظرته المسلطة عليه . كانت نظرة مرحة جدا . فقد اخذ ديرليفانغير يمسد ساق جزمته الناعمة من الارتياح ونفاد الصبر . مرافقه المهذب تنحى عنه بحذر . فهو يعرف رئيسه جيدا ويفضل الا تقع نظرته عليه . مورافييف لا يلتفت ، فهو لا يريد ان يثقل على رئيسه . لكنه لم يتحمل فرد بنظرة على نظرة السائق ، وتبادل النظرات مع هانس فوهرر . ذلك لقب المانى محير . فالشخص الذى لا يسأله مجددا عن لقبه يتصور بان سمعه خانه وان محدثه برتبة «شارفوهرر» .

— نعم ، فوهرر لا اكثر — يؤكد بتواضع ومن كل بد ذلك الرجل ذو الرأس الصغير والشعر الفاحم . ويتطلع بنظرة كأنها الغمز . فوهرر هذا المانى بولونى او بولونى المانى من

سيليزيا . وكل شيء فيه غير محدد . فانت لا تعرف ما اذا كان داهية جدا او مجرد احمق ذى وجه متنوع التعابير بالفطرة . فهناك وجوه من هذا النوع . وها هو يجر مورافييف الى تبادل النظرات بشكل منفر كما يتبادل الخدم النظرات بشأن «سيدهم» . ولكن ماذا حدث لديرليفانغير فعلا اليوم ؟ ان شيئا ما يحدث له ، فهو يكاد يعوى من افكاره ومخططاته الخفية ككلب تلسعه البراغيث . . .

معاونى ايضا اخذ يتشمم ليعرف حقيقة الخادمة ستاسيا . ستتشممها بالحق والشرع . حذار ان ترفض ، كما رفضت المياه المعدنية آنذاك . حذار ان تكرر . الصدر ينشرح معهم ، مع الناس ، اذا عرفهم المرء ودرسهم كما درسهم وعرفهم ديرليفانغير . تأخذ قدحا من الماء ، من المياه المعدنية العادية التى يعدونها للالمان فى موغيليف نفسها ، وتقدمه الى ضابط شاب المانى او اجنبى . والمهم ان تكون نظرتك غير مركزة فى البداية ثم تشتد تركيزا وصلابة وقسوة . اخذ الضابط القدح الاول من يد الشتورمبانفوهرر واحتساه مرتبكا بغير حذر . افلا تريد قدحا آخر ؟ اعمل معروفا . طبعا ، اذا كان الشتورمبانفوهرر نفسه يخدمك ! شكرا — فيما بعد . لكنى صببت القدح . وليس صعبا على ان اصب من جديد . هل يجوز ان يظل الشتورمبانفوهرر حاملا القدح الملىء وينتظر حتى تتفضل وتأخذه منه ؟ . . اطلاق الكلاب على الناس عمل يجيده اى احمق ، ولكن حاول ان تعذبهم بالمياه المعدنية على هذه الطريقة . اتذكر ان مورافييف تخلص من هذا العذاب ، رفض رأسا بشطارة وبدون اهانة : «الماء

ليس عرقا ولن تشرب منه الكثير !» . هذه المرة ستشرب كل ما اقدمه لك !

من تقارير ضابط القومندانية الزراعية :

«افراد هذه الكتيبة تصرفوا تصرف قطاع الطرق .. لم يلتفتوا الى المجموعات المسؤولة عن مصادرة الماشية فراحوا يذبحون المواشى فى الاسطبلات ويتركونها هناك . ثم اخذت جماعات من شخصين او ثلاثة تذبح الخنازير ولا تأخذ منها الا افضل الاجزاء . . . ذلك تبذير لا معنى له . تلك خيانة لمصالح الوطن .

وقامت باعمال مماثلة السرية اللاثقية رقـــــــم ١٨/١ فى سفميجيفو حيث انتزعوا الخيول من الفلاحيـــــــن وباعوها» .

«فى هذه الايام شنت كتيبة ديرليفانغير فى منطقـــة راداشكوفيتشى عملية لجمع الايدى العاملة ، وهذا يحرمنى من امكانية جنى المحصول بنسبة ١٠٠ بالمائة . فقد اقتادت السرية الاولى من هذه الكتيبة كل اهالى قرى بوتنيكى وفولودكى واوليخانوفيتشى فى عمر يتراوح بين ١٥ و ٥٠ . وكان بين هؤلاء الاهالى مستخدمو ادارة الناحية وادارة قضائى ديكشيانى ودوبروفو ، وكذلك عمال السكة الحديدية . وعرض الاهالى هويات شخصية صادرة عن تلك الادارات ، لكن الوحدات العسكرية لم تعترف بها . وقد اكد رؤساء تلك الادارات هذه الافادات .

وبالاضافة الى ذلك دمرت قريتان بالكامل فى ناحية راكوفسكى ، فلا يصادف المرء فيها حتى ولا شيخا واحدا .

وبعد التفتيش تأكد ان هذه الكتيبة انتزعت من الفلاحين ٢٥٠ ــ ٣٠٠ حصان دون ان تعاد الى اصحابها . ولذا لا استطيع فى الواقع ان انظم جنى المحصول .

شميتس ، مسؤول الزراعة
فى الناحية» .

«. . . فى النصف الثانى من تموز (يوليو) العام الحالى قامت مفارز الاس اس الالمانية بتطهير اراضى منطقة فولوجينسكى من الانصار . علما بان مفارز آمر الكتيبة ديرليفانغير احرقت اهالى القرى التالية فى قضاء بيرشايسكى احياء مع مبانيها : دورى وميشانى ودوفغوليفشينا ولايبتسى وسريدنيه سيلو ، وومانوفتسى ونيلوبسى وبولوبوفتسى وموكريتشيفشينا .

لم تجر مفارز الاس اس اى تحقيقات ، بل اقتادت الاهالى واغلبهم من الشيوخ والنساء والاطفال الى مبان معينة واحرقتها .

وفى قرية دورى اقتيد الاهالى الى الكنيسة واحرقوا مع الكنيسة .

كوشيل ، مدير شعبة الدفاع الوطنى
الذاتى فى بيلوروسيا» .

«. . . تتشكل طوابير خاصة من اهالى القرى القريبة لجنى المحصول ، وهى تعمل تحت حراسة الشرطة . سيجرى توزيع الاهالى العاجزين عن العمل بالاتفاق مع مسؤولى الزراعة فى رادوشكوفيتشى على القرى غير المحروقة فى هذه الناحية .

جرى العمل المشترك مع اركان كرايكيسبوم بصورة جيدة كما اسلفنا ، ولم تجر اية عمليات مشتركة مع اركان ديرليفانغير كما هو معروف .

اخبرنى رئيس اركان جمع الايدى العاملة السيد زانديز عن اركان ديرليفانغير بما يلى :

فى مساء الاول من آب (اغسطس) ١٩٤٣ اخذت اركان ديرليفانغير الفتيات من اركان كرايكسبوم اللواتى كن يعملن فى المطبخ هناك (الفتيات من مدينة ايفينيتس) . واتهموا الفتيات بانهن يعاشرن الجندرمة . وتفيد الامهات اللواتى ذهبن الى مينسك لزيارة بناتهن ان الفتيات تعرضن لضرب مبرح نقلن على اثره فى اليوم التالى الى مستشفى مدينة مينسك . واعدمت احدى الفتيات رميا بالرصاص واعدمت فتاتان شنقا حتى الموت . ولذا لا داعى الآن حتى لمجرد الكلام عن امزجة اهالى مدينة ايفينيتس . وانا اعرف اغلبية تلك الفتيات من عملى الطويل فى ايفينيتس ، فهن فتيات نزيهات محتشمات .

روزى ، مسؤول الزراعة
فى الناحية» .

«فى الثانى والعشرين من الشهر الحالى اخبرنى الآمر فليتير من الكتيبة الثالثة لفوج مشاة الشرطة الحادى والثلاثين فى بيرشاى ان كتيبة ديرليفانغير شغلت قرية بيرشاى وكل منطقة بيرشاى ، وهو ينوى معالجة هذه المنطقة .

اخفقت كل المحاولات الرامية الى الغاء تلك الاجراءات .

وتفيد المعلومات التى وصلت لحد الآن انه تم حرق ١١ مركزا سكنيا بعد اقتياد السكان منها .

ولم تتخلص قرية بيرشاى من التدمير الا بتدخل الميجر قائد الكتيبة الثالثة لفوج مشاة الشرطة الحادى والثلاثين المرابط هناك

وقد ارسلت الى الامبراطورية من هذا المركز السكنى لممارسة الاعمال الصعبة الفئات التالية : كل العاملين فى استثمارة الدولة ، وكل المستخدمين فى ادارة المنطقة وكل عمال ومستخدمى معمل الالبان ، وكذلك كل السكان القادرين على العمل من اهالى القرية .

ولم يلبوا طلبى المتكرر لابقاء العدد اللازم من الاشخاص لمواصلة العمل فى استثمارات الدولة ومعمل الالبان وكذلك لادارة المنطقة . ولم يعفوا الا عن المحاسب ونائـــــب رئيس مجلس البلدية ، اما افراد عائلتيهما (النساء) فلم يطلق سراحهم . وتم اطلاق النار على كل المواشى فى مرابطها او احرقت او اقتيدت بمثابة غنائم من قبل كتيبة ديرليفانغير . . .

وقد ادت طريقة كتيبة ديرليفانغير فى اجراء العمليات الى امكان تعبئة الناس فقط ، فى حين صار الخطر يتهدد استثمار الاقتصاد فى عدد من القرى بسبب انعدام الناس والمبانى ، اما فى القرى واستثمارات الدولة التى لا تزال فيها المبانى سالمة فان العمل يواجه صعوبات كبيرة بسبب انعدام الايدى العاملة .

ولذا ينبغى ان يؤخذ بنظر الاعتبار ان ارساليات الحليب ستتقلص كثيرا . اما مواصلة تنفيذ خطة توزيع الارساليات فهى الآن لا اساس لها ، لانها تتطلب اعادة تسجيل المؤسسات المتبقية . وهذا يواجه صعوبات بسبب غياب جهاز ادارة المنطقة بكامله ، فى حين تستولى الحيرة التامة على السكان . . .

مسؤول الزراعة فى منطقة فولوجين» .

خلال سنوات طويلة كنتم تربون رجالى هؤلاء من اللصوص واللوطيين ، هؤلاء المتمردين والاشتراكيين ، لكننى فى غضون شهر او شهرين جعلتهم اناسا نافعين للرايخ . انهم يعملون ، ويمكن القول انه لا حاجة لارغامهم على العمل . وربما يعتبر الشهر مدة طويلة ، فانا اجعل ايا كان خلال ثلاثة ايام شخصا عمليا نافعا . وعلى اية حال فانا اخلصه من الرغبة والقدرة على الأضرار بنا . وطريقتى هى اخصاء الاشخاص الضارين اجتماعيا ، لكنه هذه المرة اخصاء غير بدنى . وليس فى هذا السر دهاء كبير ، فهو سر منسى تماما حتى عندنا ، فى بلاد قصور وقلاع القرون الوسطى . ففى هذه الاعشاش الحجرية كانوا فى زمن ما يجربون على نطاق واسع الاسلوب السرى «لاستعادة الشباب بدم الاطفال» : اصحـــاب القصور يجعلون ابدانهم المتهرئة تغوص فى طسوت حمراء ، فى دم الاطفال الساخن . تلك فكرة صائبة ، لكنهم فهموها بصورة حرفية مباشرة تماما . يمكن بلوغ التجديد فعلا ، ولكن بمعنى آخر . فى كتيبتى اناس من كل شاكلة وطراز ، ولكن ما من احد يأكل الخبز الالمانى عبثا . كل واحد من رجالى يصطبغ رأسا بالصبغة اللازمة مهما كان معدنه سابقا . وهو يغير ما فى نفسه من تلقاء ذاته حتى ان امه التى ولدته لن تعرفه ، بل وهو نفسه لا يعود يعرف نفسه . تلك هى قوة دم الاطفال . فليس الاقناع والترغيب طريقتى . وليس من عاداتى ان اقول للشخص : انبذ ، وتقبل رمز ايماننا . فهل يستحقون هذه المعاملة ؟ كلا . يجب ان تنظم الامور بحيث يضطر كل واحد منهم يوميا على افتداء حياته الشخصية ، حياته الوحيدة التى تفوق التقدير بالنسبة له . يجب ان نأخذها

بمثابة رهينة . وليس مهما اذا كان هو يسلمها لنا ام اننا ننتزعها منه قسرا . المهم ان يفتديها . والقسط الاول من الفدية هو الاهم . وافضل وسيلة لادائه هى دم الاطفال . او قتل امرأة على مرأى من الجميع . من هنا يبدأ الانسان الذى نريد ، وتبدأ الهيئة التى نريده بها من الآن فصاعدا . وكلما كان الانسان اقل استعدادا لهذه الخطوة ازداد اهتمامنا به . حبذا لو قرأنا دماغه : كيف يتملص وكيف يقطع عهدا على نفسه امام العالم كله بانه سيصحح كل شيء بافعال اخرى ، فهو لا يزال يصدق بان افعالا اخرى تنتظره . ويفكر بانه اذا لم يطلق النار على القفا المعروض امامه لن تكون هناك فى المستقبل افعال مجيدة منتظرة . لا داعى للتلميح له ، فسيجد المبررات بنفسه . ولا يبقى عليك الا ان تصوب المسدس الى قفاه ، وعند ذاك يفكر من خلال القفا وليس الجبهة . التفكير من خلال القفا اكثر امانا واسرع بكثير . فلا وقت عند الفوهرر للانتظار حتى تتموا اعادة تربيتهم جميعا . انهم عندى يتحولون الى اناس آخرين اناس جدد طيعين خلال اسبوع ليس وراء الاسلاك الشائكة ، بل فى العراء — فاهرب ان كنت تستطيع !

عندما استدعى غروبينفوهرر الاس اس الكونت فون غوتيبيرغ آمرى هذه التشكيلات لتبادل الآراء والخبرات واجتمع كل هؤلاء المتكابرين من الفرق التنكيلية «الالمانية الخالصة» فى ميشك استمعوا الى كلمة اوسكار ديرليفانغير بارتياب شديد . فان كثرة «الاجانب» ، — «شلة السفلة من كافة ارجاء اوربا» — فى كتيبته ووجود عدد منهم فيها يزيد عما فى الكتائب الاخرى قد اثارا لدى زملاء ديرليفانغير موقف الاشفاق الذى يقرب

من الوقاحة ، بدلا من الاهتمام وحب الاستطلاع والرغبة فى التعلم منه . طبطبوا على ظهره وسألوه : هل اليهود كثيرون فى كتيبتك «الاممية» ؟ طبعا ، انهم لا يريدون لكتائبهم وسراياهم ان تضم المزيد من السفلة غير الالمان . ولذا فان «تجربة» ديرليفانغير تستثيرهم ، وهم يعتبرونه انسانا وقحا . العمل مع الالمان وحدهم ابسط وأهون طبعا ، واكثر امانا ، اكثر امانا — تلك حقيقة . لا احد خلف ظهرك وحواليك من الغرباء المسلحين ، مع انهم مقيدون ومروضون ، لكنهم غرباء مع ذلك ! ولكن اين تحصل على «الالمان الخالصين» غدا والعصابات تتكاثر ؟ وامامنا اراض جديدة وبلدان جديدة . ام انكم تعيشون يومكم ولا تفكرون بالمستقبل ؟ من يعش ير . سوف تدرسون عمليات وخبرة «شلة ديرليفانغير» بدلا من مؤلفات كلاوزيفيتس . فانا استخدم فى العمل النافع كل الحثالات التى انتشلتها من صناديق القمامة فى معسكراتكم . بالامس كانوا يتصورون انفسهم مسيحيين او اشتراكيين اقحاحا ، اما الآن فهم يقشطون القشرة الحمراء من جلود هؤلاء البيلوروسيين والبولونيين والروس . ولا يبقى عليك الا ان توجههم . المهم ان تغطسهم فى الصبغ حتى فروة الرأس ، وبعد ذلك يمكنك ان تنفض نفسك . وهذا العمل يكفيك مدى الحياة . ما من احد تخلص من لطخات دم الاطفال . فما اشد تكابر هؤلاء !

ما الداعى للكلام عن الآخرين ، اذا كنت نفسك لا تزال تتذكر انك اشتراكيا تقريبا . فى ذلك الزمان كانوا يتحايلون فلا يرون على الراية والصليب المعقوف الا اللون الذى يعجبهم . البعض يرون عليها اللون الابيض ، والبعض

الآخر اللون الاسود وحتى الاحمر . كانت الالوان لكل الاذواق ، مثلما فى برنامج ١٩٢٥ السخى ، حيث وعدوا الجميع بكل شيء ، وعدوا ابن العامل جوزيف غوبلز وابن التاجر اوسكار ديرليفانغير ، بل وحتى كروب نفسه لم يظلموه . هل يتذكر جوزيف غوبلز ، يا ترى ، صداقته مع الاشتراكيين الشتراسيين ؟ ام انهم يتذكرون فقط ، ولا يريدون ان ينسوا ابدا ان ديرليفانغير كان مقربا الى الكابتن ريم المتمرد ؟ نعم ، الى ريم الحركى المعذب !

من الغريب ان يتذكر المرء ما كان عليه فى السابق وهو يعرف كيف سارت الامور فى الواقع والى اين صارت . كان يقرأ بشغف مختلف الكتب والبرامج والمجلات الاجنبية ، حتى السوفييتية . . . فان مجلة سوفييتية تطبع فى برلين على مطابع المانية وورق المانى نشرت وجها سعيدا لامرأة سعيدة مع طفل ، امرأة سوفييتية وطفل سوفييتى . وانت تنظر اليهما وتفرح لشيء ما . وتتذكر الآن ايضا ان هناك سعداء فى مكان ما ، وان كان فى غير المانيا الجائعة المسحوقة . كيف ابتلعت مثل هذه المخدرات ، وكيف داخ رأسك الى هذا الحد ؟ كادوا يبيعون الالمان عبيدا الى افريقيا ، فى حين يسمح ابن تاجر المانى اصابه الافلاس (اصابوه بالافلاس) لنفسه بنعمة الفرح لاناس يعيشون حياة افضل فى مكان ما ، فى حين ان كل هؤلاء «الاخوان الطبقيين» و «الحلفاء فى الصراع الطبقى» — من انجليز وفرنسيين — يمضغون الغرامات الالمانية على مائدة واحدة مع رأسمالييهم واصحاب البنوك عندهم ، ولا يبدو انهم يمتنعون عن ذلك لصالح الاطفال الالمان الجياع . حالما ظهر الفوهرر اخذ يطرح اسئلة فى

منتهى البساطة ويقدم اجوبة فى منتهى الوضوح . واستجاب له الالمان ببطون انهكها الجوع وعضلات تتوق الى الحركة بعد سكون طويل . نعيم الاشتراكية — اين ومتى سيكون ، اذا كان سيكون ؟ اما ما قاله وتنبأ به الفوهرر فقد لاح من وراء اول ركن . اذهب الى حانوت اليهودى ، الى مكتب اليهودى ، وخذ ما هو عائد لك حقا وشرعا . ادخل اقليم الراين او السوديت وخذ ما لك . وسيكون ذلك هو العدل . واذا كان قسم من الالمان لا يزال يرى ان السعادة فى الاشتراكية فتفضلوا وخذوها هى ايضا . خذوا الاشتراكية ، ولكن بكاملها ، ولتكن المانية خاصة وللالمان فقط . فالالمان فكروا طويلا واهتموا كثيرا بالآخرين ، بالجميع ، ولم يكونوا يعرفون حقيقة بسيطة هى ان سعادة البشرية فى سعادة الالمان . هناك عرق بشرى واحد ، وكل الآخرين انتحلوا اسم البشر بوقاحة وبدون حق . . .

نطق الفوهرر بكلمات المانية فى منتهى البساطة ، فعادت الامور الى نصابها وهى الآن ثابتة الى ابد الآبدين . اما فى السابق فكانت الكلمات والبشر ، كان كل شيء يجول ويتدحرج فى المانيا التعيسة كالحاجيات السائبة على ظهر سفينة فى الزوبعة . انقشع الضباب والدخان المخدر ، واتضح الآن ، كما فى وضح النهار ، ان الاشتراكية الماركسية و «النعيم للجميع» مكيدة الضعفاء ليصبحوا اقوياء بعد اضعاف الاجناس القوية . انها طموح اليهود الازلى ليصبحوا اقوى من الآخرين بتلاحمهم وسط شعوب مشتتة طبقيا .

ديرليفانغير الحالى ، آمر الكتيبة الخاصة ، واثق تماما من قوة الافكار الاشتراكية القومية ودم الاطفال . ولذا فهو

لا يخشى من اية مثلثات او مضلعات بنفسجية وحمراء وصفراء وسوداء . فقد اخذ من المعسكرات المجرمين الجنائيين والسجناء السياسيين . وهو مستعد لان يأخذ ايا كان ، فهو يعرف حق المعرفة انه يرغم كل شخص على خدمة المانيا والفوهرر حتى اذا كان يكره كلمة «الالمانى» نفسها ، مثلما يكرهها هؤلاء البولونيون . دم الاطفال يغسل الماضى ايا كان دون رجعة !

لقد تكهن الفوهرر بكل شيء وحسبه برؤية عبقرية . وقد تكهن بالانسان نفسه ، كما هو فى واقع الحال وليس بالشكل الذى يتصور به نفسه بعد ان يقرأ الكتب . اذا عرفت الانسان عرفت العدو واستطعت ان ترغم العدو ايضا على خدمة اهداف الرايخ .

عجيب ، الى اى حد امتلأت الادمغة بالاوساخ ، حتى فى عام ثمانية وثلاثين وعام تسعة وثلاثين عندما دخلنا تشيكوسلوفاكيا وبولونيا ، وحتى فى عام واحد واربعين . كنا نحتل ونقتحم بلدا بعد آخر ، وكان هناك انتعاش ، بل وخوف مما اذا كان السوفييت يعيشون فعلا مثلما فى تلك الصورة الفوتوغرافية . ومما اذا كان تيلمان واشياعه على حق ، فهل يعقل ذلك والاوساخ السلافية تغطيهم والقش فى سطوح منازلهم ؟ وحتى لو كانوا يعيشون على هذا النحو فعلا ، فماذا يهم الالمانى من حياتهم ؟ لماذا يتعين على الالمانى ان يفرح ؟ وانا اسأل الآن ولا افهم بانهم ارادوا ان يفرضوا علينا هذا القش وهذه الاوساخ عن طريق الخونة الحمر . وهم الآن ينتظرون ويريدون من ديرليفانغير ان «يرأف» بهم . لم يكتفوا بالتقارير عن اسنان اليهود وعن يهوديت هذه ،

فراح المسؤولون عن جمع البيض والصوف فى القومندانيات الزراعية يتشكون قائلين : لا شيء يبقى لهم بعد كتيبة ديرليفانغير . انها الطاعون بعينه . اعذرونا ، والحال هذه ، فاذا لم تكن شكاواكم افضل مديح لنشاط الكتيبة وقائدها فان ديرليفانغير فعلا لا يفهم شيئا فى الاشتراكية القومية . وفى هذه الحال سيصل فعلا الى الرايخسفوهرر نفسه . فليروا الى م يمكن ان تقود اللامبدئية وملاحقة المناضلين القدامى . فلنأخذ مثلا دعايتنا البدائية العتيقة الطراز . انهم يعيدون ويكررون القول بان مبعث الاجراءات المتشددة للسلطات الالمانية هو عمليات العصابات . فى حين يلزمنا ان يبقى هؤلاء السلافيون عاجزين عن فهم اسباب ودوافع اجراءاتنا . فالمجهول له على الارواح مفعول اقوى ، وهو يشل الارادة . وليس بالامكان تهدئتهم وكسب رضاهم بالتمتمة حول الشقاة السيئين ، اذا كان هؤلاء الشقاة هم آباؤهم وابناؤهم . انكم لا تجيدون العمل ، ومع ذلك تتشكون من الآخرين ، ممن يعمل ويحقق الانجازات . وستجعلكم شكاواكم فى القريب العاجل تتحسرون على الحليب واللحوم والبيض حتى وان كانت القرية على بعد كيلومترين عن الطريق العام . لن يبقى لكم محصول ولا ماشية . فالرعب هو الوسيلة الوحيدة للقمع والسحق . فلتخيم الحيرة والجهل بالاسباب والذنوب . والافضل لو انعدمت الصلة بين الجريمة والعقاب . فلذلك تأثير اقوى . مثلما حدث فى بوركى . وابل النيران يصب من السماء ، ولا احد يدرى لاى سبب وبأية جريرة . الناس يسألون السماء عن ذلك من الف عام . وكلما قل الجواب ازداد الايمان بالحكمة السامية والعدالة العليا للآلهة وبتفاهة الانسان .

عندما نسف الانصار واحرقوا سيارتين مع رجال البوليس بين لهم ديرليفانغير ان الثأر الالماني لا مفر منه ، فمسح قريتين من سطح الارض . لكنه لم يمس بوركي آنذاك . فعندما رأى هذه القرية السلافية الضخمة اختلج فؤاده : اذا تساهلت وتصرفت هنا تصرفا رخيصا فلن تسوى شروى نقير . فالمجال هنا ليس للثأر ، بل للفكرة — للفكرة الخالصة السامية . سيحين وقت تتفرغ فيه الجيوش من شؤون الجبهة وتعود الى الغرب من جديد ممهدة التربة للبذار الالماني العظيم . وعندذاك لن يوضح احد شيئا لاحد . لكل زمن تكتيكه طبعا ، ولكن اسمحوا للانسان ان ينظر الى المستقبل ، الى يوم غد ، الى هناك حيث تحوم وحيدة فكرة الفوهرر وحلمه . فبدون هذه النظرة يفقد المرء كل الذرى في المشاغل اليومية . اما هؤلاء الناس ، هذه الجموع ، فاذا اعدمتهم متجاوزا كل المعايير دون ان تفرق بين بريء ومذنب فانهم يبدأون بالبحث عن المبررات ويحاولون ان يجدوا مبررا لكل شيء . تلك هي طبيعتهم . وطالما انهم مشغولون بذلك التفسير : «الالمان بشر ونحن بشر فلماذا يذبح البشر البشر ؟» لا تغفل ، وحاول ان تغلق الباب في الوقت المناسب ، او اصعقهم بصلية . انهم لا يتصورون اهدافنا ، وهي اهداف كونية تقريبا ، وسيظلون يقيسوننا بالمقياس القديم . المهم ان نعرف بالضبط ما نريد ، ولا نتعثر بخطواتنا الواسعة النطاق . وعندذاك لا يبقى لنا وقت ولا رغبة في اختلاق المشاكل من صغائر الامور ، ولا في فتح ملفات وسخة لاولئك الذين يسيرون في الامام ويشقون طرقا جديدة . اما الاجانب ، من سلافيين وغيرهم ، فيجب الا يلاحظوا الترابط بين الاشياء ولا منطق

اوامرنا وتصرفاتنا . ويجب ان لا يشعر اي منهم بانه في امان تام ، حتى وان كان خاضعا بالكامل ويؤدي كل ما يطلب منه . الآلهة على حق دوما — هذا هو الشيء الوحيد الذي يجب ان يكون العبيد واثقين منه كل الثقة ، واثقين من «عدالة» معاملتنا لهم . وجه هذا الاجنبي ، معاوني الجالس في الامام ، هادئ بوقاحة دوما . ولكن حذار ! فانا اجيد تعكير هذا الهدوء . لم اكن التفت اليه في السابق ، لكن هذا دليل على التمرد . انه رغبة العبد في ان يفرض فهمه للاشياء على سيده : ضميري مطمئن ، ويمكنني ان اطمئن . هل ستغادر هذا المكان بنفس ذلك القدر من الاطمئنان يا ترى ؟ بعد العملية الختامية في القرية المركزية ؟ يجب ان نتشدد معهم ايضا ، مع المقربين الينا . هؤلاء الذين خضعوا بالكامل وصاروا «نافعين» يجب ان نلقي بهم فجأة تحت الاقدام . وبدلا من الشخص الطيع المجتهد نحصل على عشرة اشخاص مصعوقين لاننا نرى مكنون نفوسهم طالما استطعنا ان نكشف حقيقة شخص مستحق مثل هذا . فقد استحق هذا المعاون ان نزوجه . في البداية ، فليكن ، سنزوجه من ستاسيا ، وبعد ذلك ربما سنزوجه من «الارملة» . مثل هذه المفارقات ضرورية في الكتيبة ، لكي نحافظ دوما على المسافة الفاصلة بين الالمان وغير الالمان . وهي ضرورية على العموم . والا فمن يدري الى اين ستصل الامور ؟ والعبد سيملي علينا نوعية المعاملة التي نعامله بها . ولن يلاحظ الالماني كيف يبدأ بتقدير عبده ثم يشفق عليه ، وبعد ذلك سيخجل من اداء دور السيد . فقد حدث مثل ذلك في التاريخ ، ومنه ، منه بالذات ، بدأ انحطاط الاجناس .

والتاريخ يمكن ان يضحك منا اذا لم تتلقح فى الوقت المناسب بالمصل المضاد للشفقة .

ان العملية الختامية الحالية فى القرية المركزية التى سيجتمع فيها كل الالمان والاجانب فى تمام الرابعة بعد الظهر يجب ان تكون غير عادية ومفاجئة حتى للذين رأوا فى حياتهم ما رأوا . يجب ان تكون مثيرة تحتبس لها الانفاس . ليست هناك توجيهات تبين لنا مجال التمادى والايغال الممكن فى مثل هذه العمليات . ولا يمكننا من ذلك سوى الحدس ومعرفة الموقف ، والاهم معرفة الناس . . .

بوركى هذه كانت تعيش هى ايضا حتى آخر يوم من حياتها فى ثقة وقحة بان احدا لن يمسها طالما يوجد فيها شرطة سفلة وطالما يعتبرونها «قرية بوليسية تقريبا» . لكن ديرليفانغير متعطش الى هذه القرية وامثالها . فالقرى الاخرى يتمكن منها الضباط الآخرون ، لكنهم يمكن ان يفوتوا هذه القرية التى هى اكثر القرى وقاحة وتعنتا .

دخان الصباح يتصاعد هادئا من مداخن السطوح ، والدجاج يفر متذمرا من العجلات ، والبطات الكسولة تتخطر قرب الاسيجة . فكيف لم يختنق من الاستياء عندما دخل لاول مرة هذه القرية السلافية الهائلة الواثقة بوقاحة من انها ستظل قائمة ابد الآبدين . والاطفال يصادفونه فى كل خطوة . اصحاء وقذرون كالخنازير ! وعندما اتخذ قراره دفعه الفضول الى المجئ ليراقب الاهالى ، وهو العارف بما لا يعرفونه مما سيجرى لهم يوم غد ، وليوقف بصورة مباغتة امرأة مرتعبة بدهاء ومعها طفلها ، ليتحدث معها بسلام ، او ليتحدث مع شيخ عمره مائة عام لكنه لا يريد ان يموت . . .

فى عام ١٩٤٠ كانت القرى والمدن الانجليزية وراء المانش تعيش بنفس هذا القدر من الوقاحة والثقة المزعجة . فلم يكن الجنتلمانات يعرفون بان الوحدات التنكيلية اللجوجة تحشدت على الضفة الثانية بقيادة البريغادينفوهرر الاس اس الذكى شتريكينباخ . كان شتريكينباخ فى الامسيات يحتسى قدحا من البنش الانجليزى (بتأثير من الجزر البريطانية القريبة) ويحلم مرحا بالدهشة التى ستستولى على الانكلوساكسونيين عندما يعاملونهم بلا مجاملة معاملة الاجانب العاديين . الا تريدون يا سادة ان تتجولوا فى القارة الاوربية — كلكم بلا استثناء — فقد اعدت لكم هناك مساكن مرتبة . السيدات يمكن ان يبقين فى الجزر ، ولن يشعرن بالضجر ، فان رجال الفوهرر سيحرصون باتقان على تنقية الدم الانجليزى . ولمح شتريكينباخ الى وجود مشروع فعلى لأخذ كل الرجال من الجزر الى المعسكرات ، الى الشيطان . لم تكن الوحدات التنكيلية تمتلك بعد خبرة كالتى ستعود بها الى ضفاف المانش . ومن العدل ان يقود العملية كلها بريغادينفوهرر جديد بدلا من شتريكينباخ الذى اختفى وتبدل . وليكن هو ، مثلا ، ديرليفانغير . لديكم بهذا الخصوص ، طبعا ، رأيكم ومشحوكم . فما اكثر الاستراتيجيين الذين ملوا من تحبير التوجيهات فى هيئات الاركان . وهم فى اوقات الفراغ يعلكون لحم البط والبقر الذى نرسله اليهم مع ان القومندانات الزراعية تشتكى منا . كلا ، رجالى يتذكرون ان الاستراتيجيين ايضا يريدون طعاما . انظروا الى العربات ، ما اكثر ما فيها مما يصأصئ ويقوقئ ، وما اكبر قطيع الابقار الذى تقتاده . فاختر ، ايها الاستراتيجى ، اى بطة تريد ؟ خذنى انا .

انا ــ قالت بطة تحاول ان تنطلق من يدى الجندى والشرطى الضاحكين . وتعالت القهقهة والقوقأة ، ولوحت الايدى ورفرفت الاجنحة . . . .

وما عدا الالمان والشرطة الذين يرتدون بزات بمختلف الالوان من الازرق حتى الاسود كان هناك بعض المدنيين على الطرق وجنبها ، يلتصقون مرتعبين بالعربات وبكل ما يمكن الالتصاق به . انهم سواق العربات من الاهالى المحليين مثلما فى بوركى . كانوا قد اخذوهم من القرى الاخرى مع حصنهم وعرباتهم . وها هو سؤال آخر يتبادر الى الذهن : هل يجوز لهؤلاء السواق ان يروا ويعرفوا ما يجرى فى بوركى ، ومتى يسمح لهم بدخولها ، قبل او بعد العملية ، ليجمعوا الحبوب وكل الماشية والدواجن والادوات ؟ لا يزال تفكير برلين مقيدا كليا بمعسكرات الاعتقال ، مع اننا خرجنا بهذا العمل من زمان الى الفضاء غير المسيج ، وان هذا النوع من الانتقاء بالذات سيغدو اساسيا فيما بعد . يظنون ان بالامكان اخفاء شىء عن عيون الناس فى ظروفنا . ولا يزالون يتصورون انفسهم فى مايدانيك او داهاو . كلا ، فنحن هنا مضطرون للاجابة على الاسئلة الصعبة ليس بالاوراق بل بالحياة : فاما ان نواصل الاختفاء ونبدو فى انظار السكان مجرمين متقنعين جباء غير واثقين من انفسهم ، واما ان نعلن ونبين رأسا بصلابة اننا نعاملهم بالشكل الذى يحق لنا ان نعاملهم به . ولينقل سواق العربات هؤلاء رجفتهم ورعبهم الى قراهم والى سائر انحاء بيلوروسيا العصابات .

«مقتطفات من الدراسات والمواد المرتقبة فى تاريخ الهيربرى :

«لكى يكون المرء من الهيربرى ليس لزاما عليه ان يقيم فى اوربا او آسيا او اميركا . يكفيه ان يكون من الهيربرى» .

«. . . عدد الهيربرى فى مختلف الازمان يمكن ان يكثر او يقل هنا وهناك . فقد يلوح وكأن شعب الهيربرى غير موجود ، لكنه يعلن عن نفسه فجأة . الكل مذنبون يوما نحو الهيربرى ، لكن الهيربرى غير مذنبين ابدا بحق اى كان ! ! » .

سيارة آمر الكتيبة ، ووراءها ناقلة مدرعة مكتظة بجنود يرتدون خوذا مستديرة وذات قرون ، تشق الطريق الى مركز قرية بوركى عبر جموع من المسلحين الذين يفسحون المجال لها مرتعبين ، عبر قطيع الابقار التى لا تخشى السيارة ولا آمر الكتيبة ولا حتى السلاح . فلا يمكن حثها وتفريقهـــا الا بالعصى . ولذا تشهق وتهبط فى الامام عشرات العصـــى المتزلقة وكأنها تحيــى ديرليفانغير . وتتعالى الشتائم المقذعة بمختلف اللغات . ومن السماء يتناثر الرماد فيستقر كثيفا على خوذ الجنود واكتافهم وعلى مقدمة السيارة وظهور الابقار ، على الوجوه الملوثة بالسخام والتى يشع فيها بياض الاسنان والعيون . الدخان يتصاعد فى كل مكان ، فتغص به السماء على مسافة شاسعة ، دخان اسود كما فى المحارق ، لكن السماء وسط قرية بوركى تتساءل بعيون صافية زرقاء . حتى جنود الكتيبة المتمرسون ، ناهيك عن الاجانب ، ارتجفوا بعد العملية الختامية هنا فى القرية المركزية . فقد امر ديرليفانغير صباحا بجمع اهالى القرية (ما عدا الرجال) وبجمع شرطة بوركى وعوائلهم على انفراد ، وانتظار الاوامر اللاحقة . (الرجال

من غير الشرطة انهيت قضيتهم رأسا : فقد كدسوهم فى مقالع الرمل : فان ابقاء هذه المادة فترة طويلة ينطوى على خطر فى مثل هذا الموقف) .

فرملت سيارة آمر الكتيبة بشدة ازاء مبنى المدرسة الطويل ذى النوافذ المخلوعة . وتوقفت الناقلة المدرعة ايضا ومالت الى الامام بدفعة جعلت خوذ الجنود ترتطم ببعضها البعض وتجلجل كأن لقلقا زعق . وقهقه الجنود . وحزر احدهم فضرب خوذة جاره بالزمزمية المغلفة بالجوخ . تلقى دفعة على يده ، وتعالت قهقهة الشباب من جديد . وعندما رأوا المرافق يفتح باب السيارة وديرليقانغير ينزل من «الاوبل» نزلوا هم ايضا قافزين من تابوتهم الحديدى وراحوا ينفضون الغبار الابيض من اردانهم وركبهم . وهنا سمعوا زعيقا من عل . كان هناك لقلق حقيقى يقف بساق واحدة على قمة صنوبرة قديمة يابسة . على القمة المشطورة دولاب فوقه اعشاب واغصان مرتبة بمهارة فى عش فسيح . اما صاحب العش فقد وقف متجمدا ، كاطفائى يتطلع فى الانحاء ، وراح يهز ببطء طرف منقاره الاحمر . وامسك اثنان او ثلاثة من الجنود بنادقهم متأهبين كالعادة خشية ان يسبقهم احد . لكنهم لم يتجرأوا على اطلاق النار .

وعلى بعد عشر خطوات وقف آمر الكتيبة يتطلع هو الآخر الى اللقلق .

كان ديرليفانغير قد شاهد هذه المنطقة سابقا ، بل وقف فى هذا المكان بالذات عندما جاء الى بوركى لاستطلاع الموقف . وآنذاك ايضا كان سيد هذه البقاع ذو الساقين الحمراوين يطقطق من فوق بطرف منقاره ناشرا جناحيه الثقيلين

الاخرقين فى شبه تلويحة عندما تتعب رجله من حمله ويرفض مبدئيا استبدالها بالاخرى . يا له من احمق مغرور !

اين مدير شرطة بوركى ؟ «المدراء» فى المدرسة ينتظرون موعد نقلهم الى المدينة ، وهم فرحون لان شارات الشرطة على اذرعتهم . قبل عشرة ايام وقف فى نفس هذا المكان وراح ينقل بدنه من قدم الى اخرى فى كالوش احمر منزلى الصنع ويقول انه هو اليوم مدير الشرطة . واتضح انهم يعينون بعضهم البعض فى هذا المنصب حسب الدور . هؤلاء المحاربون المنحوسون لا يريدون منصب الرئاسة . فما اشد خوفهم . انهم يخافون العصابات ، فمن غيرها يا ترى ؟ ستتأكد اليوم ، وسترون من الافظع ومن يجب ان تخافوه . تلك المرة صب جام غضبه على بارتشكه . فهذا الغبى الكدود اصدر امرا ، دون ان يسأل من احد ، بان يتصيدوا الشباب لارسالهم الى المانيا . فى حين كان يجب ان تبقى بوركى غير مرتعبة وغير مشتتة . وكاد يدس مسدسه «الوالتر» فى خيشوم بارتشكه . اما اليوم فقد جاء دور الآخرين . اليوم بالذات . . . اخرج ديرليقانغير مسدسه الثقيل من الجراب والتفت الى مرافقه المكتنز فركض هذا اليه وقدم كتفه ليرتكز اليه . فبدون سند يصعب اطلاق النار من المسدس على هذا الهدف الصغير . طرراك . . . انكسرت الساق الحمراء فى منتصفها تماما ، ولوح الجناحان الاسودان-الابيضان تلويحة عنيدة واجلسا الاحمق على ساقه الاخرى . طرراك . . . على الساق الثانية . هوى على العش ككرة سقطت فى كيس البليارد ، لكن الرأس الصغير بمنقاره الكبير لا يزال قائما على العنق الطويل . طلقة اخرى ، وسقط الرأس المهشم على طريق القناصة وانغرز

طرف المنقار الاحمر فى اغصان الصنوبر الرمادية المخملية بفعل الرماد والسخام . . .

لقد بدا وكأن اللقلق حزر من برجه العالى خيالات الطفولة عند آمر الكتيبة ، فنشر دون اى تمهيد جناحيه الواسعين اللذين صارا ابيضين رأسا بعد سواد ، وكأن احدا نفض منهما السخام ، وطار يجرجر فوق السطوح ساقيه الحمراوين الثقيلتين وكأنهما مكسورتين بالفعل . انغرزت الرصاصات الكاشفة فى صفحة السماء ، ودوت اطلاقة ، واخرى . فقد رأوا كائنا حيا يحوم فوق القرية ، فكيف يتمالكون اعصابهم ؟ اخذ اللقلق يحوم دائرا فى محاولة للتحليق الى حيث السماء لا تزال صافية زرقاء . لكن الشمس تتقافز من الجانب ممزقة بالرصاص وكانها تحاول التخلص من سحب الدخان الاسود الخانق الذى يكاد يطبق على اعلى موضع فى قبة السماء . . . وكلما شهق الطير الذى غدا ابيض تماما ازداد عدد الاشخاص المسلحين بالبنادق والرشاشات والذين تسنى لهم ان يروه . ودوى رشاش بهدير غطى على رصاص البنادق الذى يلعلع متحمسا فى مختلف ارجاء القرية . وكان غريبا منظر اللقلق الذى لا يزال يعوم حيا ويشهق بتحليق دائرى الى عنان السماء الزرقاء ، وكأنه ليس طيرا بل روح بوركى المرعبة تحلق فى الفضاء .

جاء الى ديرليفانغير بخطى متسارعة متزنة آمر السرية الالمانية الوسيم المورد الخدين . وابلغه بان النساء والاطفال فى العنبر ، والشرطة فى المدرسة وعوائل الشرطة فى منزل منفرد مقابلها . آمر الكتيبة معجب بآمر السرية . فلا يجيد النظر وانتظار الاوامر بهذه الصورة الا الالمانى الجيد . انه لا يمارس الحدس

ولا يستبق الامور حتى بدافع من المثابرة ، لكنه لا يتردد لحظة فى التنفيذ مهما كانت الاوامر . واذا وقف لا يعبر وجهه الا عن شىء واحد : انا واقف . واذا أكل : انا آكل . واذا قتل : انا اعمل ، واذا شرب وانشد : انا استجم . . . على وجه الضابط الشاب وفى نظرته ثقة هادئة : «ما يعرفه الضابط الاقدم سيخبرنى به عندما يرى ذلك مناسبا ، وسأعرف كيف اتصرف وماذا افعل لاؤدى واجب الالمانى» .

«لم تكن هناك حامية . كان هناك شرطة . اجتمع شرطة محليون وغرباء ، واختبأوا فى بوركى خوفا من الانصار . وتوزعوا على المنازل كيفما اتفق .

اخذت الدلو ذات مرة وذهبت لاجلب الماء ، والبئر قريبة . رفعت الدلو وسمعت الرصاص يلعلع جنبى . يبدو انهم كانوا فى اطراف الغابة ورأونى بالمنظار فراحوا يطلقون النار علي . جلبت الماء وجئت الى منزلى

— هل تعرفون ؟ اطلقوا النار على مباشرة . كان الرصاص يلعلع جنبى . لقد حدث عندنا سابقا واخذوا الاهالى . وربما سيأخذونهم من جديد فالى اين سيقودوننا ؟

وتشاورنا ولا ندرى ماذا سيجرى .

ثم تناول رب الاسرة طعام الفطور وخرج الى الشارع وعاد : «جاء الشرطى — كان الشرطة فى بوركى ، وكان اثنان منهم فى محلتنا — جاء الشرطة الى بيوتهم وانا ذاهب لاعرف ما هناك» .

ذهب الى هناك فقال له احد الشرطة : «هل تعلم ؟ اما سيقتلونكم او سيقتلوننا . فقد اخذوا الاسلحة من الشرطة

وحبسونا في المدرسة» .

اطلقوا سراح بعض الشرطة ليحضروا عوائلهم وقالوا لهم : «اجلبوا عوائلكم» .

خدعهم الالمان بهذه الطريقة . فلذا جاءوا واجلبوا عوائلهم .

سؤال : ــ ماذا قال الالمان للشرطة ؟

ــ اذهبوا واجلبوا عوائلكم . . وهم لا يعرفون . اما ان يقتادونا او يقتلونا . لا حيلة في الامر . اخذ الشرطة عوائلهم الى هناك . . .

وكنا جالسين ورأينا اشخاصا يسيرون في الطريق من تلك المحلة كذلك . وقال صاحب البيت «احضر شرطة قرية دزيرجينسكي ايضا عوائلهم» (اناستاسيا كاميروفا) .

«ــ لم يكن عندنا ولا شرطي واحد . الشرطة كلهم من قرية دزيرجينسكي . كان احد الشرطة يسير في الشارع ، اراد اخي ان يسأله ماذا سيجرى ؟ ولماذا طوقونا ؟ وقال «ماذا يجرى يا كوستيك ؟» الا ان الشرطي ما كان يريد ان يجيب . لم يتحدث ، لكنه فكر في نفسه : «سيأخذوننا الى المانيا وسيقتلونكم فلماذا اتحدث معكم ؟» . وقالوا لهم «خذوا عوائلكم وسننقلكم الى المانيا» . فجمعوا كل عوائلهم وحبسوهم ، وحبسوا كل تلك العوائل في المستودع وفي المدرسة . . . » (آنّا سينيتسا) .

اوسكار ديرليفانغير غير مستعجل في اصدار الاوامر . فقد اكتفى بان تساءل : هل وصل الى هنا كل الضباط الالمان والاجانب مع وحداتهم ؟ كلا ، ليس كلهم ، سنبعث

المراسلين من اصحاب الدراجات النارية اذا اقتضى الامر . . . لا داعي لذلك . فهم ملزمون بالحضور في تمام الرابعة بعد الظهر ، احياء ام امواتا ! كم الساعة الآن ؟ الرابعة الا ثلثا . . .

رغب آمر الكتيبة في الذهاب الى المدرسة ليلقي نظرة على شرطة بوركي ، فتنحى آمر السرية فرحا وكأنه يوفر بوجوده وحده ، بهندامه ولياقته ، موكب تكريم يرافق آمر الكتيبة . سار الآمران في رواق المدرسة الذي تساقط طلاء جدرانه ، وتناغم وقع خطواتهما دون ان يشكل صوتا واحدا . فالآمر ذو الرتبة الاوطأ كان يتأخر عمدا في الطرق بكعبيه على الارضية ، وكان ذلك خرقا محسوبا بدقة ، فالتفاوت يؤكد ان السائرين اثنان وان مهمة الضابط الاصغر رتبة مهمة تكميلية لا غير .

لم تكن في داخل المبنى خفارة المانية ، فالخفراء موجودون فقط في المدخل وفي الاركان . وزع آمر السرية اوامره بالشكل المطلوب مع انه لا يعرف القرار النهائي ولا يعرف بالكامل فكرة رئيسه . على اية حال فالخدمة في وحدة المانية خالصة ليست مجرد خدمة ، بل هي مبعث للارتياح . وليس عبثا ان يتشبث الضباط الآخرون بذلك ولا يفرحون اطلاقا لاحتمال اكمال وحداتهم بالاجانب بقدر يبلغ حد كتيبة ديرليفانغير الخاصة . فالاجانب يرتدون البزات الالمانية ويخدمون بموجب الانظمة الالمانية ، الا ان معدتهم غير الآرى يفضح نفسه ، وذلك بالملل من الخضوع في المقام الاول . انهم يرغبون في القيادة واصدار الاوامر ، لكنهم يملون من الخضوع ، وتعوزهم فرحة الانصياع لمن هم اعلى مرتبة . لقد علم التاريخ الالمان وغرس في نفوسهم القدرة على الخضوع من اجل الحصول على حق القيادة بنفس القدر

من الحماس . فليبق ذلك فضيلة من فضائلهم وحدهم . وبذلك يمكن زحزحة الجبال . اما الاجانب فيجب توفير مرتكز مغاير تماما فى معاملتهم . ويجب البحث عنه والاستمرار فى البحث ، فلا يمكن العثور عليه بدون بحث .

خرج شرطى من الغرفة التى تجاوزها الآمران . وركض الى الامام ممسكا حزامه بيديه ، وقد اسقط بمرفقه طبقة عريضة من طلاء الجدار فهوت فى عاصفة من الغبار عند اقدام القائدين . وندت عن الشرطى آهة مرتعبة ، واختفى فى الغرفة الابعد . وفاحت رائحة براز طرى ، فضلا عن كل الروائح الاخرى التى ليست افضل من تلك . وعبس الآمر الاصغر : فهل يتعين عليه ان ينهال بالعقاب على رأس المذنب ؟ لكنه تذكر القرار الذى اتخذ بعدم الالتفات الى البراز والسير نحو الهدف .

فى الغرفة التى دخلها الشرطى ورائحة البراز تفوح منه اصطف رجال الشرطة فى حالة انتظار ببزاتهم المختلفة الالوان . وعدلوا بعناية شارات الشرطة على اذرعهم ، وهى شارات وسخة مدعوكة من طول ما خزنوها فى جيوبهم . واذا خلع الواحد منهم هذه الشارة فكيف تفرق بينه وبين الشقاة . فلديهم من البناطيل والقمصلات الالمانية الخضراء اكثر مما لدى الشرطة . ويضطر رجال ديرليفانغير ان يشدوا على الكتافية قماشا ابيض ليميزوا رفاقهم فى القتال .

هؤلاء الشرطة يصلحون تماما لعملية اليوم . فمن اسهل الامور اعتبارهم من افراد العصابات ، والتذكير بفرارهم بعد الطلقة الاولى عندما اشركهم شرطة بوبرويسك فى العملية ضد الانصار قبل شهر .

على رفوف النوافذ الوسخة قطع خبز واسمال ، وفى الاركان صرر واكياس . فقد استعدوا لطريق طويل ، فان مصير القرية ليس مصيرهم والحمد لله . فهم شرطة ، وسوف ينقلونهم الى المانيا ولن يقتلوا عوائلهم ولن يحرقوها . العيون المرتعبة جاحظة بلا قصد او بدهاء . يبذلون قصارى جهدهم للتظاهـــــــر «بالاستعداد» فى حين لا يزال البعض يمضغون الطعام ، وأحدهم منهمك فى شد الحزام . . . يمكن التذكير طبعا (تذكير الاجانب العاملين معنا) بان شرطة بوركى اطلقوا سيقانهم للريح مرتين عندما اشركوهم فى الحملة على الانصار . الا ان ذلك يبسط القضية . فهم ، اصلا ، يفهمون الكثير ، ويفهمونه جيدا . فالآلهة اذا كان البشر يعرفون سبلهم ودوافعهم وتصرفاتهم ليسوا آلهة ، بل مجرد رؤساء يمكن خدعهم والالتفاف عليهم . ان الشىء المستعصى على الفهم هو وحده الذى يؤثر بالشكل المطلوب . عندما فر من الكتيبة تسعة اشخاص ، حضيرة كاملة من حراس الجسر ، امر ديرليفانغير باعدام عدد مماثل . فحص بنفسه قوائم الكتيبة ووضع بنفسه علامة زائد مقابل اسماء اختارها كيفما اتفق . لم يسأل من الضباط عن احد ، بل اختار من وقع عليه القلم الرصاص . فهل يفهم جميع الالمان تصرفات الفوهرر ؟ وهل يضعف حبهم بسبب ذلك ؟ بدون هيمنة الروح لا هيمنة للقوة ، وكل ما يمكن بلوغه عندئذ هو التفوق المؤقت .

اوسكار ديرليفانغير يحب الذهاب الى الاشخاص الذين يتحرقون شوقا الى معرفة ما ينتظرهم . يحب الوقوف هناك والتطلع والاستماع الى الرعب الذى يزأر فى دخيلتهم وان كانوا صامتين . . .

الشارع مليء بروث الابقار . تقدم الضابط الاصغر الى

الامام بيسالة وهو يتلقى بغضب وينفض برفسات من رجله ما كان يمكن ان يدنس جزمة آمر الكتيبة . لكن الســـروث لا يريد ان ينفصل فيتطلع الضابط حانقا الى الجنود الذين يعدلون قاماتهم دون جدوى ، بدلا من ان يفعلوا شيئا ؛ ويتطلعون عفويا الى اقدام الآمرين وهى تنطح فضلات الابقار . شقا طريقهما متعرجا متموجا ، وهما يرقصان فى الشارع وبلغا مستودع حبوب كبيرا بجدران من جذوع غليظة . بوابة المستودع المغلقة تسندها اوتاد وعربة مليئة عن آخرها بالاكياس . لكن الحصان لا يزال مشدودا اليها ، وهو يقلب عارضتى العربة ويحاول ان يقضم الاعشاب النابتة قرب الجدار . السكون مخيم على المستودع ، ويصعب القول بان فيه مائتى او ثلاثمائة شخص . المستودعات والبيادر والعنابر والكنائس متباينة جدا . بعضها يهتز من العويل والصراخ ، اما هذا فحتى السنونوات لا تخشى الدخول اليه والخروج من تحت سقفه مزقزقة .

باشارة من آمر السرية اسرع اشخاص فى بزات الجندرمة الزرقاء ليبعدوا الحصان والعربة المحملة بالاكياس ويرفعوا الاوتاد ، بينما اصطف آخرون فى نصف دائرة مصوبين بنادقهم الرشاشة ليوقفوا ويزيحوا المحبوسين اذا حاولوا اثارة القلاقل . ماذا ؟ هل المستودع خال من الناس ؟ انهم عادة يضغطون على البوابة وينهالون عليها بثقلهم فتتأرجح وتتذبذب كخياشيم سمكة القيت على رمل ساخن . اما هنا . . . فالبوابة انفتحت بسهولة ، ورأى ديرليفانغير فى العتمة عيونا فى البداية ، عيونا كثيرة . ولكن لماذا انسحبت هؤلاء النسوة والاطفال الى اعماق المستودع ؟ وعندما رأى ديرليفانغير القذيفة فهم السبب . التفت الى الضابط الاصغر فقابل هذا نظرته باستعداد مماثل لتلقى

الاستحسان او الاستهجان . كلا . اعجب ديرليفانغير بذلك . فالجنود لا يزالون يتحلون بخيال فوار ولم تنفد لديهم الفكاهة — الفكاهة المبدعة على طريقة ديرليفانغير — وهو واثق من ان كل شىء يجرى على ما يرام . ذلك يعنى ان فرحة اداء الواجب العسكرى تغلى فى الصدور وليس على الورق . ولا جدال فى ان مثل هذا النجاح لا يتحقق رأسا فى عمل اى كان . واول دليل على ان الرجال لم يتكيفوا بعد هو الوجوه المتوترة والمظهر الجدى فى كل شىء . وبعد ذلك سيبحثون عن الاستجمام فى العمل نفسه وسيجدونه ، كما خطر على بال احدهم آنذاك . شتاء . فقد عالجوا القرية بدقة ، شارعا شارعا ومنزلا منزلا . فلم يبق احد على قيد الحياة ، ولكنهم عندما احرقوها وغادروها اتضح ان امرأة ظلت على قيد الحياة . لكن ذلك لم يجلب العار على الكتيبة ، بل حمل لها الامجاد . فعلى جانب الطريق ، حيث يبدأ الحقل الملفع بالثلوج ، رأوا سريرا حديديا ينتصب وحيدا ، وقربه طاولة ملتوية القوائم عليها مختلف القنانى والدوارق . فان بول ورجاله المرحون السكارى لم يبخلوا بالجهود فسحبوا عجوزا مريضة سوداء مع سريرها من المنزل وحملوها من القرية بعيدا وتركوها هنا على الطريق . تطلع الجنود الى العينين المخبولتين ، عينى المرأة الراقدة بلا حراك على سريرها ، ولم يغادر احد المكان بدون ابتسامة . كانت النصائح والارشادات تتناثر من فوق ، من السيارات :

— لا تستبردى يا عجوز ! . . اذا ولدت طفلا ادعينا لحفلة التعميد ! . . لا تطلق النار ، ستتركها للسوفييتات لاجل الانسال .

وها نحن نرى هذه القذيفة الصدئة النابهة وسط البيدر ،

امام جمهور اهالى بوركى المشدوهين — تلك هى ابتسامة رجال ديرليفانغير ممن لا تثقل عليهم الحياة ولا العمل . انها سخرية ليس فقط من ارتعاب النساء ، بل ومن الافراط فى الجدية فى اى عمل . كل شىء يجرى على ما يرام حسبما هو مكتوب ، ليس ما هو مكتوب فى المكاتب ، بل ما ستستنسخونه وتدرسونه !

غيرمان هيهتل الجندى الذى خطرت على باله الفكرة المسلية لجلب «هدية الانصار» الى المستودع (استخرجوا هذه القذيفة من تحت الجسر على طريق موغيليف) هو اصغر الجنود سنا فى السرية ، وقد لاحظ ابتسامات الرضا على وجوه الضباط حتى توردت وجنتاه من فرط السعادة . كان يتلفت كالاطفال ويتطلع من تحت الخوذة ليرى هل لاحظ الجميع ما فعل ، وهل ان اوتو دانكه ، تلك القرمة العجفاء ، موجود هنا . فلماذا لا ينظر ؟

دخل اوسكار ديرليفانغير مع حاشية من الالمان و«الاجانب» بوابة المستودع الفسيح . «انه يتسع لعدد مماثل آخر» — لاحظ آمر الكتيبة بعين تتحلى بحسن التدبير . اقترب من القذيفة وانحنى عليها وطرق باصبعه على الحديد الصدئ الاخرس . كان موراقييف الشخص الوحيد المعبس بين الضباط الباسمين . وبين جمع الاهالى برز ايضا وجه واحد ، وجه رجل يحاول ان يبتسم للالمان . تطلع ديرليفانغير الى آمر السرية مندهشا فاوضح له هذا ان الرجل يدعى بانه يعمل سرا لحساب دائرة الامن فى كيروفسك . وقد سمى بالشكل الصحيح رتب واسماء

الالمان العاملين فى القومندانية .

الرجل ذو الوجه المكتئز والشاحب جدا يحمل طفلا مرتعبا عارى العجيزة . وهناك طفلان آخران او ثلاثة عند امرأة قميئة متحشفة تنظر الى زوجها بعينين باكيتين واسعتين فيهما أمل . فهم الرجل بان الالمانيين يتحدثان عنه وراح يسعى بتقاطيع وجهه ونظراته للمشاركة المتحرقة فى حديثهما ليبين لهما انه يريد ان يخرج الى هناك ، الى ما وراء البوابة ويتنحى جانبا ويوضح لهما كل شىء فتتضح الامور وتعود الى نصابها . تبدل مزاج ديرليفانغير رأسا . فما قيمة خدمات هذا المهذار لدائرة الامن فى كيروفسك اذا كانت مبادئ الحساب ضده ؟ هذا الجاسوس نفسه ووجوده طبعا من صلاحيات السلطات الالمانية المحلية ، لكن الطفل الذى فى يده (والآخرين الذين فى اذياله — واحد اثنان ثلاثة ؟) شىء يمس المصالح العليا للدولة الالمانية . ديرليفانغير يمكن ان يحب الاطفال . ولكن ليس هنا ، وخصوصا اذا كان عددهم كبيرا فى مكان واحد . ما اكثر العيون المتململة البراقة ككتلة من بيوض الاسماك .

وهنا اشتاط ديرليفانغير غضبا ، وطرق على القذيفة من جديد ، ولم يرد عليه الحديد الثقيل هذه المرة ايضا .

— اشكر انصارك هؤلاء !

وخرج عن طوره تماما . فعلى من غضب ولمن يوضح ولماذا يوضح وكأنه يبرر نفسه ؟ زد على ذلك انه حاول ان يتكلم بلغتهم باحثا عن الكلمات الروسية بألم فى كل ارجاء الذاكرة . كل ذلك من اجل يهوذا ذى البوز المتفخ هذا ! ..

— سيدى الضابط ، سيد . . . — صاح الرجل عندما رأى ان الآمر الالمانى يهم بالانصراف . واجهش الطفل الذى

على يديه بالبكاء ، وحملق في الالماني بعينين مرتعبتين وزحف الى الكتف في محاولة للاختباء وراء ظهر ابيه ، فهرع الاب ، وعجيزة الطفل العارية امامه كالدرع ، صوب الضابط الالماني وهو يشق طريقه الى ديرليفانغير . فدفعوه الى الخلف .

— انا خطأ ! — صاح عميل امن كيروفسك بلغة ركيكة مقلدا الالمان .

مورافييف يرى ويسمع كل ما يجرى ، وكل ما يجرى مصطبغ على نحو ما بفكرته عن الافعال والتصرفات المرتقبة التـــى سيصحح بها كل شيء ويكفر عن كل الذنوب ! . ولكن لماذا المرتقبة فقط ؟ فهو الآن ايضا يستطيع ان يقوم بشيء ، يستطيع على الاقل ان يفضح هذا الجاسوس حتى النهاية امام الجميع ، لكى تسمع تلك المرأة الفارعة القامة التى لا تنظر الى احد وتعصر طفلة الى صدرها وتتكلم معها طول الوقت : «ماما معك ، ماما معك ، ماما ستبقى معك طول الوقت ، ماما معك ، معك ! . .» .

— تكلم هنا ! — امره مورافييف بانتقام حاقد .

— لا يجوز لي هنا . . . هناك ، ساتكلم هناك ! — حاول الرجل ان يشق طريقه .

— تكلم هنا. اقول لك هنا !

— عملت . . . كنت اتردد على دائرة . . . فـــى كيروفسك . . . عندى وثيقة مخبأة في البيت . لم يسمحوا لي ان آخذها . استطيع ان اريها . . . كل اسبوع اقـــدم تقريرى . . .

— يكذب ، يا عمانى ! — صاحت زوجته متلفتة — يكذب ، لا تصدقوه !

تقول ذلك وتقترب مع اطفالها من زوجها نحو البوابة ، نحو الخلاص ، بينما يدفعها الجنود الى الوراء باعقاب البنادق .

— ماما استعطفيهم انت ايضا ، انت ايضا — صاحت الطفلة التى في يد المرأة الفارعة — ماما سنحترق وتنفجـــر عيوننا ، سنسقط وتنفجر عيوننا ! . .

خيل لمورافييف ان قذيفة الهوتزر القديمة الموضوعة على الكرسى — كخنزير اسود من الاوحال — تتنفس وتمتلئ هواء ولن تتحمل فتنفجر وتقذف الجميع وكل شيء الى عنان السماء . فاسرع عفويا الى المخرج في اثر ديرليفانغير ، في حين انهمك الجنود بحمل القذيفة الى الخارج ، فرفعوها ووضعوها بطقطقة على الارض ودحرجوها بدفعات من جزماتهم .

وخلف ظهورهم وخلف ظهر مورافييف وفي داخله نفس ذاك الصوت النسائى الوحيد الذى لا يمكن اخماده وكأنما يرفع الى عنان السماء السوداء خليطا من عويل الموت وانينه :

— لا ترتعبى يا بنتى ، ماما معك . انا معك ، يا عينى ، معك . كل الناس هنا ، لا ترتعبى ، كل الناس هنا ، كلهم .

التفت ديرليفانغير فجأة الى مورافييف والقى عليه نظـــرة متفحصة وانفرج فمه العريض عن ابتسامة ساخرة وامر بان يأخذوا عميل الامن الى مكان عوائل الشرطة .

— اذا كان يفضل ان يحترق هناك .

تملص الرجل من البوابة الموارِبة ، فقد سمحوا له بالخروج مع الطفل الذى يحمله . وانهالت عشرات من ايدى الجنود القوية وابدانهم على دفتى البوابة فانغلقتا بتثر . وحـــاول عميل الامن ان يوضح بان زوجته واطفاله ظلوا هناك . وهرع الى مورافييف قائلا :

— سيدى الالمانى ، سيدى الالمانى ! عندى وثيقة ، استطيع ان اعرضها . . .

— اذهب يا وغد قبل ان يفوت الاوان خذوه الى هناك ، الى ذلك المنزل . هيا اسحبوه ! . .

دوى صوت بحضورك يا هبربرى ! دوى صوت الطفل وسيظل الى الابد : «سنسقط وستنفجر عيوننا» . ما قيمة كل الكلمات التى ستقولها بعد ذلك لنفسك وللآخرين ؟ ما قيمتها ؟ !

انهالت عشرات من ايدى الجنود على البوابة وراحوا يبحثون عن شىء يدعمونها به ، فى حين دخلت عربتان محملتان بالقش — فى وقت واحد من جانبين — الى الفسحة امام المستودع . وجلبوا علب البنزين من الناقلة المدرعة . وهنا حدث شىء ما . فقد هرع الجنود الى العربة التى وصلت من اليمين .

ديرليفانغير واقف قرب السيارة ، والسائق فوهرر ينظف بالفرشاة ردنى آمره وظهره من الرماد والسخام ، وتمتد فرشاته بحذر الى الطاقية . الا ان آمر الكتيبة دفع يد السائق غاضبا واخذ ينظر هو الآخر الى ما حدث هناك .

حادثة تافهة . حرن سائق العربة متذمرا فاطلقوا النار عليه . ها هم يلقون بالقش من العربة ويضعونه عند الجدران ، والقوا قربها جثة سائق العربة . وابلغ آمر السرية رئيسه عما حدث ، وهو يواصل قيادة العملية بنباهة وبدون استعجال .

ربما كانت تلك حادثة تافهة بالنسبة للجميع ، ولكنها بالنسبة للجندى والفلاح اوتو دانكه بمثابة الكارثة . فقد تشبث

هذا الشقى كالقرادة بسير بندقية اوتو وراح يصرخ بكلمة روسية واحدة لم يفهمها : لودى ، لودى ! * وكان الجميع شهود عيان على عجز اوتو ، فقد رأوا العجوز يترافس خائرا برجله اليمنى تارة واليسرى تارة اخرى فى محاولة لابعاد السائق المجنون وانتزاع بندقيته ، هو اوتو ، منه . وكان بوسع آمر الكتيبة نفسه ان يرى ذلك والعياذ بالله . ظل الشقى يضغط على اوتو جاحظ العينين ماسكا بالبندقية مكررا تلك الكلمة الى ان هرعوا اليه واطلقوا النار عليه . . . فى حين كانا معا طوال ساعتين ، ولم يلاحظ اوتو شيئا يثير الشبهة . جمعا معا وشحنا فى العربات كل ما يصلح للالمان فى شؤونهم الكثيرة . وكان اوتو يساعده حتى فى رفع كيس ثقيل او درع حديدى . وكان يسأل منه كيف يسمى هذا وكيف يسمى ذاك ؟ كان يشير باصبعه الى الاشياء ويسأل بنظراته ، وكان الفلاح السوفييتى يسمى تلك الاشياء بلغته الغريبة : «خليب» ، «فوروتا» ، «كوروفا» . . . فى حين ان الشىء الذى ذكره فى آخر لحظة : «لودى ، لودى» لم تقع عليه عين اوتو ، فهو يتذكر جيدا ان هذه الكلمة لم تصادفه فى الحديث بينهما . فلماذا حدثت هذه المصيبة لاوتو دانكه وليس لغيره ؟ ها هو غيرمان هيهتل يقف حاملا بندقيته الرشاشة ويبتسم متشفيا ويغمز من تحت خوذته . فهو لا تحدث له ابدا مثل هذه الحوادث ، مع انه نصاب من متسكعى المدن الذين ظهر الكثيرون منهم بين الالمان فى سنوات المجاعة بعد الحرب العالمية الاولى . عندما لا ينظر الضباط صوب الصبى الازعر غيرمان يخفض بندقيته ويرفع يديه فوق رأسه ، كيهودى يصلى ، مصورا الأسى والحـــزن

* يا ناس ، يا ناس .

الشديد . فهو بذلك يدفن اوتو دانكه وسمعته الطيبة كجندى وكألمانى . ولكن اية نفس سوداء تلك التى تحنث بالثقة وتسخر من الطيبة الالمانية . صحيح ما يقولون من ان الجميع هنا اشقياء قذرون ليس فيهم من النبالة شيء وليس فيهم من البشر الا الشبه . خذوا مثلا آمر المفرزة بيلى ، والآخر اعلى منه رتبة . انهما يرتديان البزة الالمانية ، وقد اطلقا النار على بعضهما البعض بسبب كلمة واحدة . انا اتوجس منهم طول الوقت . حبذا لو كانت المانيا ، المانيا الحقيقية وحدها فى كل مكان وباسرع ما يمكن . فقد عملت معه جيدا وتحدثت اليه وساعدته ، ومع ذلك جن رأسا وتشبث بى كالوحش : «لودى ، لودى» . اوتو دانكه يتذكر دوما ان المصير يعامله معاملة زوجة الاب ، معاملة جيران المانيا لها . انه مسجى الآن تحت القش قرب الجدار ، ولا شيء يعنيه . اما اوتو فهو مضطر للتفكير بما سيقولونه له عندما تعود الكتيبة الى الثكنات . سيفقد احترام آمر السرية نهائيا ، ويمكن ان يحرموه من ارسال الطرود التشجيعية الى المانيا . اما سخرية ذاك النصاب الازعر فهى شيء لا يطاق حقا . القى اوتو البندقية التى انتزعها من يدى الشقى على ظهره واخذ حزمة من القش قدر ما تحتويه يداه واسندها بذقنه وبطنه وركبتيه وحملها الى الجدار وفرشها على امتداده ورتبها بعناية . ففى هذا العمل جوانب منزلية يعرفها جيدا : خذ طبقة ملساء من القش المضغوط وضعها على الجدار كاللصقة . كان ذلك سهلا على الآخرين ، اما اوتو دانكه ، عندما صار يمتلك منشآت جيدة للماشية ، فقد اضطر الى العمل بهذه الصورة اثناء الشتاء القارس ، فى حين ان الله لم يحرم اوتو لا من الذكاء ولا من حب العمل ! لكن

الحظ لم يحالفه امدا طويلا الى ان حالف المانيا . والاذاعة هى التى ساعدت اوتو كى يفهم من المذنب فى كل مصائبه ومصائب المانيا . فى البداية لم يعجبه صوت الفوهرر كثيرا ، فهو يصيح بصوت عال جدا ، والاهم انه كان يذكر الجميع ويتألم من اجل الجميع ما عدا الفلاحين وكأنهم غير موجودين فى المانيا . العمال عنده «طبقة النبلاء الجدد» والطلبة «شباب المانيا» وحتى النساء لهن منزلة معينة . ولكن كيف تكون المانيا سليمة شبعانة بدون احترام الفلاحين . تذكروهم ولم يعودوا ينسونهم «فالدم» و«التربة» ونعت «النبلاء» كل ذلك يمنح الآن للفلاح ، فى الجرائد ومن الاذاعة وعن طريق الدعاة المختصين الذين يجوبون القرى على الدراجات حاملين الرايات وبمصاحبة الموسيقى . فى حين ان سبب كل المصائب والاهانات هو ان المانيا كانت تنقذ الجميع دوما وتمنحهم الثقافة والمكائن ، حتى انها منحت الروس قياصرة وقيصرات من ذوى الحكمة ، لكنها لا تتلقى مقابل ذلك دوما سوى الحسد والنفور ونكران الجميل . ولنأخذ على سبيل المثال البولونيين . الم تساعدهم المانيا فى تأسيس دولتهم ، فكيف جازوها ؟ اوتو نفسه مر ببولونيا عندما انسحبت القوات الالمانية من روسيا فى الحرب العالمية الاولى ، وهو يعرف حقيقة البولونيين . ولذا عاقبهم الفوهرر مع التشيكيين قبل غيرهم . او فلنأخذ هؤلاء الروس : انهم يولولون ويعولون الآن فى المستودع ، رؤيتهم وسماعهم شيء فظيع . ولكن ما كان سيحدث لو ان الفوهرر لم يسبقهم ولو انهم اجتاحوا المانيا ؟ فاذا كان الالمان يرتكبون ما يرتكبون — لان البلاشفة ارغموهم على نسيان طيبتهم — فما الذى يمكن ان ننتظره من الاسيويين ؟ من المرعب ان نتصور ما كان

ينتظر المانيا لولا الفوهرر !

فرش القش عند الجدار كحشية مستوية وعدّله ونفشه بعناية فى الاماكن اللازمة ، وخصوصا فى المكان الذى القوا فيه جثة ذاك الشقى . ولكن من سيلتفت الى ذلك ؟ ومن يقدر نزاهة الالمانى وحسن نيته ؟ اما اذا اخفقت فى شىء فانت المذنب ولو بلا جريرة ، ويلاحظ الجميع ذلك ، ثم يشيحون بوجوههم عنك فى اوقات اخرى . ولكن لماذا تلاحق المصائب والاخفاقات اوتو دانكه دوما ؟ لماذا يسهل العيش على المعدومى الضمائر من امثال غيرمان هيهتل ؟ انه خنزير يتغنج ، كلب يكشر عن انيابه . اما اوتو فهو فى شغل شاغل عن ذلك . ليته يتمالك نفسه ويسيطر على يديه المرتعشتين ، وقد تجلدت شفتاه ووجنتاه فغدت غريبة عليه . حبذا لو اسرعوا . لماذا يولولون ويصرخون ؟ حبذا لو انتهى كل شىء . الوجه يتخشب ويلتوى ، واليدان ترتعشان . سيلاحظون ذلك الآن . سيلتفتون الآن الى اوتو المسكين ، الى اوتو الخائب .

«من الدراسات والمواد المرتقبة عن الهبريرى :

«حججهم الدامغة المنحية» : «حذرناكم» . يعد ذلك يعتبر الهبريرى انفسهم محقين فى معاملة الآخرين بكل ما يمليه عليهم الحقد او الثأر او حب السلطة او الطمعية لكن الدافع الرئيسى عندهم هو الغيظ . فما اصعب ان يكونوا محقين دوما امام الجميع ! فى ذلك ألم لا يطاق . ولذا فهم دومـــا مغتاظون وزعلانون مسبقا على الذين يقتلونهم ويعذبونهــــم وينهبونهم . انهم لا يتذكرون دوما سوى خسائرهم ومن الحق بهم ضررا او اساء اليهم فى وقت ما . لكنهم ينسون فى الحال

والى الابد الصور اللتى يلحقونه بالآخرين . انهم يشعون بعدالتهم واحقيتهم امام الجميع والى ابد الآبدين .

«لقد حذرنا المعارضة !...» «وحذرنا الفيتناميين ... فلا يلوموا الا انفسهم !...»

«كيف استطاعوا ان يفعلوا تلك الفعلة ؟ هل يعقل ان ما تقوله عن خاتين حقيقة وواقع ؟ — كلا هذا السؤال لا يطرحه المانى متشكك ، بل صحفى تركى . ففى تلك اللحظة نسى حقا المذبحة المماثلة التى جرت فى القرى الارمنية عام ١٩١٥ . كيف نفسر قابلية الناس والشعوب على تذكر شىء ونسيان شىء آخر ؟ وامكانية الظهور فى لبوس الانسان والجلاد الهبريرى فى وقت معا ؟ او الظهور اليوم فى لبوس الانسان والبشر وغدا فى لبوس الجلادين والهبريرى ؟ !»

كف آخر رشاش عن اطلاق النار ، وهدأ المستودع ، وساده سكون مطبق . وتناهت تموجات اللهيب الشرهة الدسمة والطقطقة السوداء فى سحب الدخان الاصفر الغامق . وفى تلك الاثناء اخذت البوابة تنفرج وتنفتح على مهل كما فى الاحلام . يبدو ان الرصاص المسعور حطم كل المغالق والمساند ، فان احدا لم يعد من زمان يتحرك ويضغط عليها من الداخل ، ولم يخرج او يفر منها احد . فى البداية تأهب السفاحـــون حذرين ، لكنهم عندما فهموا تلك الحقيقة وتأكدوا من الهدوء التام وراء البوابة والجدران اخذوا يتراجعون بالتدريج بعيدا عن الحريق وصاروا يقتربون من المدرسة . الدخان الاصفر الغامق يتشبع بسواد لزج ، والروائح الساخنة المقززة تضيق على الضباط وتدفعهم بعيدا الى المدرسة .

وفى تلك الاثناء تقدم «اجنبى» فارع القامة فى معطف قاتم اذياله مرفوعة الى الخصر ، على طريقة النساء ، ومشدودة الى الحزام ، تقدم الى الامام ووقف قبالة البوابة المشرعة . ضغط اذنه على كتفه وصوب الرشاش المستقر على كتفه واطلق صلية مدوية طويلة على اللهيب المتصاعد . جاءت الصلية متأخرة ، بلا موجب ، لكنها تعبير عن فيض المشاعر . واذا اخذنا بعين الاعتبار وجود آمر الكتيبة فقد جاءت تلك الصلية تحديا وخرقا للاصول . أطلق النار واخذ يتفحص رشاشه باهتمام وبلا استعجال وكأنه لوحده هنا وانه وحده يعرف ما العمل وكيف ينبغى التصرف . كان الجميع ينقلون نظراتهم عفويا بينه وبين آمر الكتيبة — فان شيئا سيحدث الآن — وبتلك النظرات ربطوا بينهما ، بين توبيغا وديرليفانغير . واخيرا التفت الشرطى توبيغا الى الجميع وخيل اليه ، فى اغلب الظن ، ان امرا صدر لكنه لم يسمعه . كانت كل العيون تومئ الى آمر الكتيبة ، فخطا توبيغا صوب ديرليفانغير رأسا . اقترب منه ووقف امامه وحاول ان يرفع اذنه عن كتفه ويعدل رقبته المعوجة ، فاستطال وغدا اطول من آمر الكتيبة : «حاضر طالما استدعيتنى . اذا كنت تريد ان تشكرنى تفضل . ولكن هل ينتظر ذلـــــك منكم ؟» .

حدق اوسكار ديرليفانغير فى «الاجنبى» الطويل المعروق برشاشه الروسى المتدلى مائلا على صدره . فلماذا مثل امامه ؟ ألاجل المكافأة ؟ انه لا يلتمس ، بل كأنه يطالب بشىء ما . وهذا ما تفصح عنه عيناه . ماذا دهاه ؟ هل عافت نفسه الحياة حقا ؟

توبيغا هادئ مطمئن ، فلا حاجة به لاخفاء شىء عن

دوليفان . ها هو بقضّه وقضيضه ! ورشاشه على صـــــدره . فليتنح الطفيليون خائفين من هذا الالمانى ، اما توبيغا فهو لا يلتمس شيئا ولا يخاف من احد . واذا كان هناك شخص ليس من الطفيليين والنصابين المتسكعين ، بل من الاساطين فى معرفة الامور فهو هذا وذاك ، ولا احد غيرهما . دوليفان ملزم بفهم هذه الحقيقة اذا لم يكن احمق . وهو يفهمها . ولذا يبتسم ساخرا حتى لكأنه يغمز لتوبيغا . ولو تلفظ بكلمة او لمح الى شىء لحصد توبيغا بارتياح — بصلية واحدة وبانعطافة واحدة — هؤلاء الرعناء والطفيليين المتحلقين حول دوليفان ولربطهم فى حزم مطروحة على الارض . وبالمناسبة فان هذا الالمانى نفسه مخبول بعض الشىء ويجب ان تعد له عصا ، فهو يصطحب يهودية اينما حل وارتحل .

تشنج اوسكار ديرليفانغير حتى اصطفقت ركبتاه الناتئتان الحادتان ببعضهما البعض وكاد ينبعث منهما رنين ! وتطلع منفعلا الى مورافييف ولسان حاله يقول : «ما الذى يجرى هنا ؟» . ولوح مورافييف بيده كأنه ينش ذبابة :

— اغرب ، يا غبى !

هز توبيغا كتفيه ومضى مبتعدا على مهل عن الكائن الذى لم يتمكن اطلاقا من محو لوحة عالقة فى ذهنه : وضع يده على الجراب ببطء وتماهل ، وسحب مسدس «الوالتر» الثقيل ورفعه الى مستوى وجه وعينى «الاجنبى» وانتظر حتى اختفت الثقة والاطمئنان وظهرت بدلهما الدهشة والرعب وضغط على الزناد . . .

وهنا ، الآن فقط ، عزم مورافييف على ابلاغ آمر الكتيبة

بتلك الحادثة المزعجة غير المفهومة عندما اطلق آمر المفرزة «الاجنبي» بيلي النار على آمر السرية ميلنيتشينكو فاصابه بجرح ثخين بينما قتل آمر المفرزة بيلي . الا ان ديرليفانغير ، ويا لدهشة موراقيف ، استمع الى هذا النبأ بمنتهى البرود .

— في موغيليف ، كل شيء في موغيليف .

قال ذلك وامر بالاصطفاف في صفين لتكوين رواق من المدرسة حتى المستودع الملتهب . كان المستودع الجامد يزأر من ادناه الى اقصاه ، والاعصار الاسود يلتهمه من الداخل ومن فوق ويتصاعد متسعا فيجتاح بقية السماء التي لا تزال مكشوفة . اسرعت الكائنات التي ترتدي بزات المانية ملوثة بالسخام والرماد للاصطفاف في صفين الواحد مقابل الآخر . ولا احد يعرف الغرض من هذا الاصطفاف ولا ما سيحدث وما ينبغي القيام به . اما ديرليفانغير فقد وقف عابسا صامتا قرب سيارته . الانفعال الذي استولى عليه عندما جاءه ذاك «الاجنبي» ووقف امامه بغباء ووقاحة قد خف ، الا ان دوائر التفكير اتسعت وذهبت بعيدا حتى شملت كالعادة لوبلين والرفيق فريدريت وبرلين . . . حبذا لو كان موقفهم هناك من ديرليفانغير مثل موقفهم من سائر آمري الوحدات المماثلة . فهو قد يكون اسوأ من موقفهم من الآخرين . وحدات الآخرين «خالصة» ، بينما كتيبته «شلة حثالات» ! ويعتقد بعض المتظاهريـــن بالذكاء ان وظائف مثل هذه التشكيلات عموما وظائف وقتية حتى تتم تهدئة المؤخرة . ولا يفهمون بان العمل الحقيقي يبدأ آنذاك بالذات ، وسنحتاج الى مثل هذه الوحدات بالمئات . اذا كنتم بالطبع لا تنوون تحويل الجيش الالماني كله الى «وحدات تنكيلية» . وواضح ان الاستهانة بكل انواع الوحدات

الخاصة نابعة من المنافسة والغيرة من جانب المحارق الثابتة . فالمشرفون عليها يخشون من ان «المحارق المتنقلة» ، من نوع محرقة ديرليفانغير ، يمكن ان تتميز بقلة التكاليف وكثـــرة الاستجابة لاهداف ومخططات التسوية النهائية ، ويمكن ان تتحول من محارق مساعدة الى محارق اساسية . (فمن مكاتب معسكرات الاعتقال بالذات تنطلق الاوراق الاكثر تكاليا وتتقفى اثر ديرليفانغير وتلاحقه على الدوام) . بديهي انهم يستشهدون على نحو ديماغوجي بتحذيرات وتوجيهات الفوهرر نفسه : من الآن فصاعدا والى ابد الآبدين لن يحمل السلاح في هذه الاراضي الا الالمان ! ولكي تغدو القاعدة واحدا من الاصول يجب في البداية انتزاع هذا السلاح — مع الدماء — من جميع الروس والبيلوروسيين والاوكرانيين وغيرهم ، وتسليمه الى البعض منهم . وهذا ما نفعله . فاين المفر في مثل هذا الموقف ؟ من الاسهل والاربح طبعا تكرار الصيغ العامة بدلا من استحصال معلومات جديدة لاجل الفوهرر — اليس هذا واجب التطبيقيين ؟ واذا كررت تلك الصيغ ستكون محقا دوما وسيذيع صيتك كاشتراكي قومي امين . هل تتخوفون من ان هذه التشكيلات ستتمرد على الالمان ؟ قد يحدث ذلك ولكن ليس عند ديرليفانغير . كل القضية في القيادة وفي القادة . لن يفلتوا من يد اوسكار ديرليفانغير . انه على ثقة راسخة ، وبوسعه ان يعرض ذلك عند الاقتضاء . . .

الا ان عمليات الكتيبة الدقيقة تعرضت لخلل واضح . فالاوامر اللازمة لم تصدر ولم تنقل امدا طويلا . ديرليفانغير معبس صامت ، والضباط من المراتب الاوطأ صامتون ايضا في انتظار . والصفان اللذان شكلا رواقا من مبنى المدرسة حتى

المستودع الذى تلتهمه النيران قد ضجرا وملا من الحر ومن الروائح الكريهة . هوى سقف المستودع وجدرانه والنار تجهز عليها ، لكن اللهيب لم يخفت ، بل على العكس يتصاعد باهتياج لافظا سحب الدخان السوداء والروائح الخانقة من خلال فرقعة تصم الآذان . ويتلوى من الغثيان اولئك الذين قدر لهم ان يقفوا على مقربة من المستودع . وتقيأ بعض الالمان «الاجانب» ، وكلهم تقريبا يمسحون افواههم وشفاههم ويبصقون . فان هذه الوليمة لا تطاق بالنسبة لمعدهم واحشائهم ، ان لم تكن لهم شخصيا .

هرع احد شرطة بوركى من المدرسة متعثرا ، وعلى اثره ظهر حارس المانى متحمس . يعنى ان احدا اصدر امرا . الا ان ذاك الذى اصدر الامر لم يتجرأ فى الغالب على اصدار اوامر اخرى بحضور آمر الكتيبة . ولم يكن الحارس والشرطى يعرفان ماذا يتعين عليهما ان يفعلا ، فى حين تركز انتباه الجميع عليهما . تطلع الشرطى برعب دون ان يفهم شيئا الى الصفين اللذين ينتظران ، والى الحريق الفظيع الذى يطقطق فى آخر الرواق الحى .

بدا ديرليفانغير وكأنه لا يلاحظ ان الجميع ينتظرون كلمة منه . نعم ، كل القضية فى القادة والقيادة . كل النظام فى كتيبته التى بشكل الاجانب نصفها يستهدف ارغامهم بصلابة وثقة على القيام بما قد لا ينوون القيام به ابدا ، ولم يكونوا ينوون القيام به قبل ساعة ، قبل دقيقة . وهؤلاء ، ستقتلهم ام انك مستعد للموت فى الحفرة ؟ كم مرة رفضت الموت ، لكنك الآن مستعد لتدفع حياتك ثمنا لحياة الآخرين . ان دفع الثمن بحياة الآخرين اسهل ، وقد تعودت عليه ، اليس

كذلك ؟ ومنزلك ؟ هل تحرقه لو امرك ديرليفانغير ؟ واذا كان فى المنزل اشخاص ؟ يتطلعون ملتصقين بالنوافذ ويرون اباهم — زوجهم يحمل علبة البنزين ، قدماه تتأرجحان متخاذلتين ، لكنه يسير ، زوجهم يسير ، ابوهم يسير . ام ان ذلك مغالاة وخيال مستحيل فى الواقع ؟ لم يحدث مثل ذلك فى ممارسات الكتيبة بعد . لكنه لا يعنى اطلاقا انه مستحيل وان هذا الحادث الممتع المليء بالعبر لن يحدث . فلماذا تنعت الكتيبة اذن بانها تجريبية ؟ نعم ، انه يحدث ، كل شيء يحدث . عند هؤلاء الشقاة انفسهم حينما يدفعون الثمن بحياة اطفالهم . مثلما حدث آنذاك فى منزل حارس الغابة . . . . اوقفوا سبعة اطفال عند الجدار ، صفوهم حسب الطول : هيا يا اب ويا ام ، تكلما . من هو دليل الانصار من ابناء القرية ، من الذى يوصلهم الى السكة الحديدية عبر مخافر الالمان ؟ كم مرة اوصلتهم انت بنفسك ؟ ظلت الزوجة ايضا صامتة حتى الطلقة الثالثة . تند عنها صرخة رفيعة بعد كل طلقة . وبعد ذلك لم تتحمل فتشبثت بركبتى زوجها وقدميه واستعطفته بان يفعل شيئا كيلا يقتلوا اصغر الاطفال على الاقل . اما هو فقد ظل واقفا كالحجر يختنق بشهيقه . . . وعند ذاك خطرت على بالى فكرة : وانتم ، انتم ، هل ستطلقون النار على ابنائكم ؟ وهل استطيع انا ، ديرليفانغير ، ان ارغمكم على ذلك ؟ مثلما ارغموا حارس الغابة . واذا لم يكن قد ارغمه احد ، فان شيئا ما ارغمه . فما هو اقوى واكثر اقناعا من خوف المرء على حياته ، وليس الخوف عموما ؟ ولكن ماذا لو جعلناك محروما من كل شيء ، لا اصدقاء ولا اقرباء ولا وطن . ما عدا الحياة ؟ تلك هى طبيعة البشر . انهم

يقدرون الحياة خصوصا عندما لا تبقى لها قيمة ، وعندما ينتزع منهم كل ما عداها الى الابد . لم يعد هناك شيء يتشبثون به ، فيتشبثون بالحياة على الاقل . العمل مع هؤلاء يثير الضجر والملل . ولكن هل يؤثر فيهم شرطة بوركى ؟ نحن هنا بحاجة الى وسيلة اخرى . ولكن تمهلوا وسأجد لكم وسيلة لن تنسوها طويلا !

ديرليفانغير لا يزال صامتا ، اما الجندى الذى اخرج الشرطى من المدرسة فقد بدا وكأنه انصاع لدعوة الرواق الحى الذى طال انتظاره فأخذ يدفع الشرطى برفق صوب الموقد المشتعل فى ثلثمائة جسم بشرى على الطرف الثانى من الرواق . وظهر توبيغا من مكان ما وهرع الى الشرطى وانتزع منه عصابة اليد ، ودفعه فى نفس ذلك الاتجاه . وانطبع الرعب والعجز على الوجه المدور كوجه امرأة ، واثارا لدى الصفين الالمانى و«الاجنبى» شعورا قاسيا ومرحا بالعداء والاحتقار لهذا الشخص الذى كان شرطيا قبل قليل . فى حين راح هو يتساءل بصوت مرتفع اخرق :

— الى اين ؟ تقودنى انا الى هناك ؟ كيف ؟ ماذا تفعلون يا ناس ؟

— نعم ، من هنا الى هناك ! — عاكسه بارتشكه الذى يكره الدنيا وما فيها بسبب تورم وجهه ، ويكره شرطته خصوصا ، وهم بان يسدد ضربة بقبضته الى رقبة شرطى بوركى هذا ، لكنه لم يوفق ولم يبلغ الرقبة تماما بسبب قصر قامته وتملص الشرطى الجبان . لكن هذا التصرف استحث الآخرين لينهالوا على الضحية . هرع الحارس الالمانى ليبعد الشرطـــــــة بمرفقيه فانتزع منهم شرطى بوركى المحسوب عليه واخذ يدفعه

الى الرواق الحى . لم تصدر حتى الآن اوامر بما ينبغى فعله لهذا الشخص الذى ركض كالارنب ليس الى الجهة التى يريد ، لكن البعض اخذوا يفعلون به شيئا مرحا وفظيعا ، اخذوا يدفعونه الى جهة تخشى عيناه المفعمتان بالرعب وعدم الفهم ان تنظرا اليها . وارتسمت على وجه الشرطى الانثوى ابتسامة معتذرة مندهشة : «انظروا ، انهم يدفعوننى الى هنا وانا برىء !» . اما الاشخاص المصطفون فى صفين فقد ادركوا اخيرا ، على ما يبدو ، لماذا صفوهم هنا ولاى غرض . وكما تبدأ الامعاء تلقائيا بدفع الطعام منقبضة متشجنة حالما يقع شىء ما فى داخلها ، كذلك الصفان تحركا وشرعا بالعمل متشنجين . كل المانى او غير المانى يدفع الرجل حسب الدور او فى آن معا ويضربه بغضب او بتساهل بعد ان دفعه الآخرون اليه وانتزعوا شارة الشرطة من ذراعه ، وطالما انتزعوها فذلك هو المطلوب . تلقفوه وراحوا يضربونه بماسورات الغدارات والبنادق الرشاشة ويدفعونه الى غيرهم ليجربوا جميعا وليكفيهم جميعا !

— لماذا ؟ ما ذنبى ؟ انا لا اعرف شيئا ! . .

هذا الصراخ الاحمق الاهوج يثير غضب الجميع ويبعث المرح فى نفوسهم . ومن جديد يضربون الشخص بماسورات الغدارات والبنادق الرشاشة ويدفعونه اقرب فاقرب الى الحريق الهادر . وعندها سقط وانكمش وثنى قدميه تحته وغطا قفاه بيديه وجمد تحت رفسات الجزمات واعقاب البنادق ، ولم يعد يسمع غيـــــر انين مندهـــــش منبعـــــث من الارض . امسك به اربعة اشخاص من يديه ورجليه وسحبوه الى النار . فى البداية كان يتدلى بعجز وفتور وهو يتطلع من تحت ومسحة من الاعتذار فى نظرته : فهو ثقيل وهم يحملونه بشق الانفس

لغرض لا يعرفه . لكنه كأنما ادرك الآن لماذا يحملونه والى أين ، فعدل قامته بنتر وتطاير اثنان منهم ، لكنهما لم يفلتا قدميه فامسكا به وضغطا عليه فتحول من جديد الى كومة لينة ، لكنه عدل قامته مرة اخرى كالنابض وخلص قدميه . هرع اليه آخرون ليقدموا المساعدة ، ليس له ، بل لاولئك الاربعة ، وكان اللهيب قاب قوسين او ادنى ، يلفح الوجه ويعرقل العمل . فتمكن ان يتملص وزحف ، زحف ، لكنهم امسكوا بقدميه وسحبوه كالضفدعة الى هناك حيث اللهيب يفرقع والجمر يستعر . وضربه احدهم بعقب البندقية على رأسه ، فلم تعد اصابعه تتشبث بالعشب . . .

وفى تلك الاثناء اقتادوا شرطيا آخر من المدرسة . وصار كل شىء يجرى بشكل آخر ، بمزيد من الصلابة والثقة .

— توبيغا ! اين توبيغا ! — صاح بارتشكه . فهو من وراء خديه المتورمين الصقيلين لا يرى توبيغا الواقف جنبه . اقترب توبيغا من الشرطى وحاول ان ينتزع عصابته بصورة استعراضية حسب المراسيم هذه المرة . لكنها تمددت وظلت على ردنه . وراح كلاهما ينتزعان العصابة ، شرطى بوركى يساعد توبيغا .

— اخلع بزته — زعق بارتشكه . وخلعوا قمصلته الالمانية .

— وقعت فى الفخ يا ارعن — قال توبيغا — هيا ، خذوه .

امسك بماسورة رشاشه ودفع شرطى بوركى فى الرواق بالعقب الصقيل اللماع كأنما يحمل كومة قش بالمذراة . وساعدهما كلا الصفين على الركض ، وامامهما اللهيب الساخن والروائح اللزجة التى تستثير الغثيان لحد مرعب . وتوقف الاثنان ، شرطى بوركى وشرطى موغيليف فى المكان الذى فر الصفان من حره ولا احد

يساعد احدا . الرشاش يعيق شرطى موغيليف ، والرعب يعين شرطى بوركى فتمكن هذا الاخير من توبيغا وغلبه ، واطلق ساقيه للريح فى محاولة للفرار . قبل ذلك بدا ان الجميع هنا ، بمن فيهم شرطى بوركى ، كانوا مشغولين بعمل واحد ويؤدون واجبا واحدا . لكنه اتضح ان الواحد يريد حرق الآخر ، والآخر لا يريد ذلك لانهم ينوون حرقه هو بالذات . لاحقه عدد آخر من السفاحين ولحقوا به وقبضوا عليه . كانوا من الالمان . وربما كان بينهم نمساوى . ولعله كان سلوفاكيا او مجريا او لاتفيا او فرنسيا او شرطيا بيلوروسيا من كليتشيف . طوق خمسة من الفاشيين ، خمسة من الهبربرى ، هذا الرجل الذى يتشبث بهم كالغريق ويحاول خائرا ان يذب عن نفسه الضربات والرفسات التى تنهال عليه من كل صوب . لووا احدى يديه الى الخلف ، ولووا الاخرى وقادوه بسهولة وبسرعة حانين ظهره حتى الركبتين . ودفعوه ، طيعا مرتخيا من شدة الالم الفظيع ، الى الامام ، الى الحريق الهادر الذى لا يتطاير منه الشرر لكثافة دخانه ولزوجته .

والتفتت الوجوه الساخنة الى المدرسة من جديد . على وجوه الصف الالمانى فكرة لا تزايلها : «يجرى الآن ما يجب ان يجرى ، لانه لا يمكن ان يجرى على نحو آخر بحضور آمر الكتيبة والضباط الاوطأ رتبة» .

وعلى وجوه «الاجانب» المحليين وغير المحليين تتألق وتخبو ثم تظهر من جديد فكرة تقول : «ماذا يجرى ولماذا ؟ واضح ان شرطة بوركى هؤلاء لهم علاقة بالعصابات . وهم على العموم . . . لا داعى للتفكير ، انهم طبعا من العصابات ! فهذا لا يمكن ان يحدث لنا — لى — ولكن بسببهم ، بسبب

هؤلاء يجب ان اخاف انا ايضا . امض يا حيوان . انه يعاند فوق كل ذلك . كان يجب ان تعاقب من زمان ، فانت من العصابات الستالينية» .

— امض يا ارعن . الى متى ننتظرك ؟— توجه توبيغا نحو شرطى آخر دفعوه من المدرسة — هل تنتظر دعوة خاصة ؟

امسك به ولوى يده وراء ظهره ، بينما امسك المانى ذو نظارات كبيرة على وجه صغير يده الاخرى ولواها الى الخلف ايضا وجعلها قائمة كالعتلة . وركضوا . رأس الشرطى (لم يخلعوا منه عصابة اليد) محنى حتى الركبتين ، وهو لا يرى غير قدميه اللتين تحملانه ، تسرعان به الى مكان ما ، بينما يشعر باقتراب النار من خلال رقبته وشعره وجلد رأسه . وما ان سمع شعر رأسه يفرقع بفظاعة واحس بالالم الرهيب فى اليدين ولوحى الكتفين يخفت للحظة ، حتى صعقه ألم آخر فى كل خلية من خلايا جسمه . فقد قذف توبيغا والالمانى ضحيتهما راكضين الى اتون اللهب رأسا ، وارتطما ببعضهما البعض ، حتى ان الالمانى سقط ، فى حين بين له توبيغا وللجميع فى الحال : سقط بنفسه ، ولا ذنب لى فى ذلك . لم يزعل الالمانى ، فهو يبتسم ، وعلت القهقهة فى الرواق . التقط توبيغا نظارات الالمانى من العشب وسلمها له . وفى تلك اللحظة لاح الشبح البشرى فى اللهب الهائل مرة اخرى وقد نما بشكل غريب ، بيدين مرفوعتين . وغطى على القهقهة واختفى . لكن القهقهة عادت من جديد عنيدة متعمدة . فالمرح السكران الذى لا يتلاشى قد صبغ بنفس القدر صفين من العيون والافواه والذقون .

عندما سحبوا الشرطى العاشر من شرطة بوركى مرحين كأنهم يسحبون خنزيرا والقوا به الى النار مع انه مانع وقاوم وجأر وعض

اكثر من الجميع ، طلب اوسكار ديرليفانغير ان يستدعوا له ذلك الشرطى الذى يرتدى معطفا ويحمل رشاشا ويبذل جهدا اكثر من الآخرين .

— توبيغا ، توبيغا — قال مورافييف بحزم مخاطبا بارتشكه ، ونقل هذا الاخير باهتمام كبير قوله الى الصفين . الا ان توبيغا كان الشخص الوحيد الذى لم يبد اهتماما كبيرا . توجه الى ديرليفانغير وهو يأخذ قسطا من الراحة ماشيا ويمسح السخام من الرشاش ويمسده كما يمسد الصياد عنق كلب ذكـــى محظوظ . توبيغا على العموم لا يهتم بما يظنه به الآن هؤلاء الالمان وحتى الذين يرتدون منهم طاقيات الضباط . فهو يبذل قصارى جهده ليس من اجلهم ، بل لانه لا يحب الرعناء الطفيليين فى اى عمل من الاعمال . وما اكثرهم الآن .

وقفا من جديد احدهما قبالة الآخر ، كلاهما نحيل الوجه طويل الساقين ، حتى السخام جعلهما متساويين فاستقر متعادلا على السدارة السوداء المدعوكة والطاقية السوداء المائلة الى الوراء ، على جزمة الشرطة ذات الساقين العريضتين وجزمة الضباط الصقيلة ، على مشمع الاس اس الذى طرحه المرافق على كتفى ديرليفانغير ومعطف توبيغا الخارق للعادة فى قيظ يونيو .

تفحص آمر الكتيبة العبد بانتباه مركز بل وباهتمام ، بينما راح توبيغا برأسه المائل يحدق فى عينى رئيسه «دوليفان» كما تحدق الدجاجة فى فنجان ماء يعوم فيه ويقرفص شىء حى غير مفهوم . ومع ذلك دلل توبيغا على الاحترام حابسا انفاسه الثقيلة الغاضبة والمرحة بسبب الجهد الذى بذله مؤخرا مع طفيليى بوركى الرعناء . نعم ، فلير الجميع كيف اختص دوليفان توبيغا من بين الجميع . فاية مكافأة ينوى ان يمنحه يا ترى ؟

طيب ، خذ الثواب وانجُ من العقاب ! ولكن رد الصـــــاع صاعين !

تفحص اوسكار ديرليفانغير «الاجنبي» الواقف امامه والرشاش يتدلى على صدره . كلا ، القضية ليست فى الرشاش . فاذا كان العبد عبدا لا يعدو الرشاش ان يكون اداة كسائر الادوات . ما لم يعجب ديرليفانغير ليس الرشاش ، بل عينا العبد وثقته المتجاسرة بان الضابط الالمانى معجب به وانه يستحق التشجيع والمكافأة . هذا هو نموذج العبد الذى لم ينتزعوا منه الثقة بانه يستطيع ان يستشف افكار سيده ويحزر تصرفاته . نعم ، انه اسوأ واخطر من اولئك الذين احترقوا ! . سأشهر المسدس على مستوى هذين العينين وانتظر لحظة ، ثم اطلق . . .

رأى توبيغا يد الالمانى تستقر على الجراب : هل يعقل انه لن يبخل بمسدس «الوالتر» ؟ اذا دعت الحاجة فان توبيغا يستطيع ان يتلفظ بصوت عال لا اسوأ من هؤلاء الحثالات البنديريين : «شكرا يا سيدى الشتورمبانفوهرر . يحيا هتلر !» . هل سيهديه المسدس مع الجراب ام بدونه ؟ طبعا ، فكيف يحمله ؟ فى الجيب ؟ . .

كلا ، هذا اليوم بالنسبة لديرليفانغير يختلف عن سائر الايام ، ففيه ولدت باولينا هيرلينغير ، اطيب النساء ، امه . كانت ورعة تقية للغاية ، فلتنعم بالا ولتطمئن : لن يقتل ابنها بيده فى هذا اليوم حتى ذبابة ، حتى هذا المتمرد !

— هيا — صاح ميرافيف عندما ابتعد ديرليفانغير صامتا وامسك بمقبض باب السيارة — هل تريدون لهؤلاء ان يظلوا يعوون حتى المساء ؟

واوماً الى المنزل الذى يتناهى منه صراخ مكبوت ونحيب ،

نساء وامهات واطفال شرطة بوركى يراقبون ما يجرى قرب المدرسة من مسافة لا تزيد عن مائة خطوة . . .

القرية الاولى

الساعة الحادية عشرة والدقيقة ٥٦

سمع اليتيم طقطقة صلية بندقية رشاشة جافة ضعيفـــة كأغصان ابرية تحترق . التفت . توقف دوبروسكوك وتوبيغا وراحا ينظران الى الالمانى الضخم لانه الذى وقف على حافة الحفرة وهو يدير ماسورة بندقيته الرشاشة .

— يصحح عملك — صاح اليتيم متشفيا وكان لا يزال غاضبا على توبيغا . ورأوا كاتسو يقترب من الحفرة ويشير اليها بيده والمسدس .

يا الهى ، يعنى انى لست فى المنام وانى هنا حقا ، فى هذه الحفرة القطيعة . قتلونا ، لا يزالون يقتلوننا ، تلك حقيقة يا الهى .

الشمس تسيل على صفحة السماء بغير انتظام ، كصفار بيضة مسحوق على مقلاة مسودة ، وتتألم العينان من شعاعها . لكن شيئا ما حجب النور ، فرأتهما ، رأت قاتليها ، ابا الشوارب السوداء ، والآخر ذا البطن المسودة من الشعر الكثيف . وقفا مائلين الى السماء يتطلعان ويبصان : هل بقى احد حيا فى الحفرة ؟ وامتدت اليد عفويا ، بغريزة النساء ، لتغطى بطرف الفستان ركبتيها اللتين سخنتهما الشمس .

انكمشت الحياة التى لم تتجاوز الستة شهور ، انكمشت بقلق واستبراد . فان اصواتا غريبة حادة اخترقت الجدران من مكان ما لتخنق وتيرة الكون المعتادة . الا ان قلـــــــب الام ، قلب الكون ، ظل ينبض بعناد وبمثابرة عبر الهدير الغريب المتسرب من الخارج والمتكرر الى حد منفر مزعج . وظل كل شيء كما كان . وفجأة حدث شيء فظيع غير مفهوم . فالصوت الابدى الهابط من فوق حلق وابتعد ولم يظهر صوت غيره ، لم يولد ولم يهبط . فى ذلك السكون الفظيع الذى لم يسبقه مثيل صرخ الجنين بلا صوت ، صرخ من الرعب والوحدة . فالقبة اخذت تهوى بسرعة ، وانكمش الكون بلمح البصر فصار كومة هامدة سقط فيها وجذبته معها الى العدم . . .

من الدراسات والمواد المرتقبة فى تاريخ الهيربرى :

«انتزعوا من ايدى الفيزياويين والكيمياويين بفهم معادلات التفجيرات الاكثر خطورة ، بينما انتزعوا من ايـــــــدى الفلاسفة وحتى من ايدى الشعراء السكاكين والخناجر اللماعة للمفارقات المشهورة التى يسهل بها شق بطون كل الاوهام مثل : الضمير والمؤاساة وحب البشر ! . . وهل كان نيتشه هو الوحيد الذى ابدع ما لم يتوقعه ؟ وما كان يدرى بنهايات الامور ! . . » .

عندما اخذنا حرابهم

وجدناها ملطخة بالدم . . .

ايفان اناتيش (من معمل الخث «غوتنشا» فى محافظة موغيليف) :

«. . . ذهبنا الى طريق موغيليف — بوبرويسك لنصب كمين للالمان . انبطحنا وراء الشجيرات فى حوالى الثانية عشرة . كان الرتل قادما من جهة موغيليف . وكنا ثلاث مفارز — سرية كاملة .

الرتل مكون من الطيارين العائدين من المستشفى الى المطار فى بوبرويسك .

كانت المعركة قصيرة وسريعة . اطلقنا النار عليهم . اعتقد ان عددهم ثمانية واربعون شخصا بالضبط . واتذكر انهم كانوا يستقلون اربع سيارات . الرجال فى سيارتين ، والاطعمة فى سيارتين ، احداهما محملة بالذبائح . واستولينا على كمية كبيرة جدا من الشكولاته .

قضينا عليهم وانسحبنا . لم تكن قيادتنا تعرف انهم طيارون . فقد توجهنا لنصب كمين كالعادة .

ثم ذهبنا لنصب كمين جديد . وارسلنى الآمر مع مجموعة من الرجال الى قرية سكاتشكى لاجمع الاغذية . عندما وصلنا كانت الابقار عائدة من المرج . وحينما دخلنا القريـــــــة اخذ سكانها يبكون وينتحبون . فما السبب ؟ ما كانوا يعرفون هل نحن انصار ام لا . سألناهم : لماذا تبكون ؟ فاخبرونا بان بوركى احرقت اليوم واعدم كل سكانها والآبار مليئة بالجثث .

المسافة بين سكاتشكى وبوركى زهاء خمسة عشر كيلومترا .

اعطانا الاهالى اطعمة كثيرة ، زودونا بعربة حملناها بالزبدة والحليب والقمح .

وعندما عدنا ابلغنا الآمر بما حدث . فقال : «غدا سيجيئون الى هنا . فان حملة تنكيلية تشن فى هذه المنطقة . ولا يمكن ان تأتى من موغيليف فقط . ففى اغلب الظن تشارك فيها

وحدات من بوبرويسك . وقد اختبأوا فى حامية للبوليس فى مكان ما . وسيظهرون غدا من كل بد» .

التزمنا موقعنا من جديد مع بزوغ الفجر . وحتى الآن عندما امر بهذا الموقع ارى المكان الذى انبطحت فيه ومكان السيارة الاولى . طريق السيارات يمر عبر الغابة اخترنا مرتفعا ، والطريق هناك يهبط نازلا ، وذاك افضل مكان لضربهم . وانبطحنا بشكل سلسلة .

انتظرنا طويلا .

وفى الساعة الثانية او الثالثة سمعنا زئير السيارات من جهة موغيليف . كانت مفرزة من فصيل كيروفسكى منبطحة فى ذلك الجانب . وقد التحقت المفرزة بنا للمشاركة . وكان عددنا مائة وعشرين شخصا . وآمرنا هو اركادى انتيوخ .

لم تتحمل اعصاب احد الانصار . . . كانت السيارات على مسافة خمسمائة متر . وبدأ البعض بتعبئة البنادق . فاطلق احد الانصار رصاصة بالصدفة .

سمع الالمان الطلقة . فنزلوا من السيارات . فتح السائق الباب وتحركت السيارة بهدوء . اما الالمان فكانوا يسيرون فى الساقية . وربما بقى من المسافة اربعمائة متر . . .

قيم آمر سريتنا الموقف واصدر امرا بشن معركة جبهوية حقيقية . كانت الذخيرة عندنا كافية فقررنا الدخول فى معركة . ولهذا الغرض وزعنا المقاوو بشكل ضلعى المستطيل . وامر الآمر مفرزة الجناح الايمن بان تعبر الطريق حالما ينشب القتال وتحتويهم بشكل سلسلة ، لتسهل علينا المعركة .

اما الالمان فتقدموا دون ان يعرفوا ما ينتظرهم وكم عددنا هنا .

كنت منبطحا على مسافة عشرين مترا عن المنعطف ، وحالما اقتربت السيارة الاولى اطلقنا النار بكثافة . . . كان السائق جالسا وقد رأيته بوضوح ، فاطلقت عليه من بندقية توكاريف ذات التعبئة التلقائية . كان الرفاق اشداء ، والسرية نشيطة جدا . ونشب القتال . وهرع الشباب من تلك الجهة ليطوقوا الالمان ، لكن رشاشا الماتيا كان يطلق النار من هناك .

ركضت الى الساقية التى فيها الالمان وقتلت رامى الرشاش الالمانى ثم قتلت مساعده عندما كان رفاقنا يركضون قادمين . وفى تلك اللحظة اصبت بجرح فى ساقى . فى هذا الموضع .

— حولتم بندقية توكاريف الى رشاش ؟

— نعم . على العموم اطلقت انا ثلاثة مخازن . ثم جرحت . جلست حتى ضمدونى ، ومضت خمس دقائق تقريبا ، وانتهى القتال . فقد هرع شبابنا واجهزوا عليهم ، فى خمس دقائق لا اكثر قتلناهم جميعا . وكانوا خمسين شخصا تقريبا ، من الاس اس . . . ولاحظنا اننا عندمـــــــــــا اخذنا حرابهم وجدناها ملطخة بالدم . . . » .

الكسى انانيتش (بلدة كليتشيف فى محافظة موغيليف) :

«ابلغونا بان السفاحين توجهوا لاحراق بوركى . وعندما وصلنا وجدناها تحترق . رأينا من اطراف الغابة انهم يستعدون للرحيل . فتوجهنا بخط مستقيم لنصب كمين عاجل . انتظرنا زهاء نصف ساعة ، وسمعنا السيارات قادمة . كنا اكثر من السرية بقليل . عندما لاحت السيارات صدر الامر بالتهيؤ . واطلق احد الانصار النار صدفة . فسمعوا . وعلى مسافـــة سبعمائة متر توقفوا ونزلوا من السيارات وساروا فى الساقية .

جعلناهم يقتربون اكثر ثم اطلقنا النار وهجمنا عليهم . ودمرناهم واحرقنا السيارات .

— كم كان عددهم ؟

— يقال حوالى الستين .

— قتلتموهم جميعا ؟

— نعم . وعندما اخذنا اكياسهم وجدنا فيها ثياب اطفال . وعندما اخذنا سكاكينهم وجدناها ملطخة بالدم . كانوا يذبحون الاهالى ويلقون بهم الى النار .

— يبدو انهم لم يعودوا جميعا على هذا الطريق . فان بوركى كبيرة جدا وعدد الالمان كان كبيرا . اليس كذلك ؟

— ربما توجه قسم منهم صوب موغيليف . اما نحن فكنا ننتظرهم من جهة بوبرويسك . . .»

١٩٤٣/١٢/٥ . بناء على توصية من المدير العام للأس اس والشرطة فى بيلوروسيا فون غوتبيرغ وقائد وحدات مكافحة الانصار فون باخ — زيليفسكى منح هتلر اوسكار ديرليفانغير وسام الصليب الذهبى الالمانى وتحولت كتيبته الخاصة الى «لواء هجوم» . وفى تلك الاثناء كانت تعمل فى بيلوروسيا عدة الوية وكتائب من هذا النوع بقيادة كوخ وميولر وهولينغ وبيلس وزيغلينغ وغيرهم . . .

وبعد اقل من عام تحول «لواء» اوسكار باول ديرليفانغير الى فرقة دمرت وابادت وارشو الثائرة واحرقت القرى السلوفاكية . وصار السفاحون يزحفون هذه المرة من الشرق الى الغــــرب . جابوا المانيا كلها وهم يشنقون على الاشجار واعمدة الكهرباء

الالمان انفسهم من «الفارين» و«الخونة» و«المذعورين» . ثم اختفوا ، ذابوا فى جموع العسكريين الذين خاضوا المعارك بغية الوقوع فى الاسر عند الغربيين . وفى الفترة الاخيرة نقل الى المانيا الغربية بكل عناية رفات اوسكار باول ديرليفانغير الذى توفى بسلام فى اميركا اللاتينية ، ووراوه التراب فــــى فيورتسبورغ .

كلما تسلق القرد اعالى الشجر تكشفت عجيزته *

ادولف شيكلهروبر—هتلر ، طوله ١٧٢ سم ، وزنه ٨٢ كغم ، التحصيل العلمى — الدراسة المتوسطة . العلامــــات الفارقة : اسنان مسوسة .

. . . ربما كان ذلك حلما بالفعل ، مجرد حلم ، حلما يتكرر كل مرة مثلما تستيقظ وانت مريض مرات ومرات . وعندما تستيقظ نهائيا يتضح لك ان الفوهرر العظيم والرايخ الثالث لا وجود لهما . لا شيء على الاطلاق ! ينبغى ان انهض من الفراش واجلس . اشعر بارتعاشة فى البطن . صوف السجادة البارد الناعم كعشب ذاو تحت راحتى القدمين وبين الاصابع . الجدران الخشبية تلمع كاللك ، وطيات الستائر الثقيلة — كل ذلك موجود ، موجود فعلا . خطوط الصلبان المعقوفة البيضاء منقوشة على السجادة الخضراء علــــى

* من الامثال الانجليزية .

اصفرار . وعينا الكلب المنتبه تتطلعان بحذر واخلاص . . . وراء النوافذ دوما ، حتى فى النهار المشمس ، تنتصب اشجار الشوح القاتمة ويخيم سكون موات لا يعكره شىء . ولولا هذا السكون . . . ماذا لو عم هذا السكون كل الارجاء ، فلا تدوى المعركة الكبرى تنفيذا لاوامرك ؟ حسبك هنا مجرمون بلهاء يضحكون على ذقنك ويمرحون . يقهقهون ويهللون كلمـــا تجاوزت العتبة . انهم يتربصون بك هناك . ويد كورت ، كورت الاشقر البليد ، تمتد بين ساقيك من الخلف ولا تسمع وقع قدميه عندما يتسلل اليك ! «هيا يا سيدى الفوهرر ! . . .» . الاصابع الحديدية البغيضة تطبق على خصيتك (الوحيدة) وترغمك على ان تشرئب وتنهض على اطراف أصابعك وتتشبث متأخرا باليد المكسوة بالشعر ، وتثير سخرية الجنود . يلهون ويتسلون بك على هذه الصورة ، ولا احد يعرف ، ولم يسمع مطلقا بانك انت الفوهرر . فانت بالنسبة لهم مراسل فوج بخيط واحد على الردن ، انك نكرة واسمك شيكلهروبر . زحفت وركضت اليهم وهم يسألونك فى الفترات بين الانفجارات : «ماذا ؟ الا يعجبك هذا يا عثة الاركان ؟» . ومع ذلك فهذا هو بيتك ، فوجك السادس عشر الذى ليس لديك ما هو اعز منه . فافرح لانك على قيد الحياة ولانك وصلت راكضا ولان القدر بين مرة اخرى كيف يرأف بحال المختارين — فقد جربك وبين لهؤلاء الحمقى كى يقتنعوا هم ايضا . — نسيت كورت ، لكنه هو لا ينسى . دخل هذا القرد الطويل اليدين ، دخل من الخلف وامسك بك رأسا بيده الحديدية حتى ارتجفت ركبتاك : «هيا ايها السيد الجندى الاول» .

ماذا لو كان كل شىء مجرد احلام ؟ مجرد استمرار للاحلام

والآمال اثناء المجاعة فى فيينا . على هذا النحو تصور قاعات المتاحف العالية او بدل مخططات شوارع لينتس واحياء فيينا واطرافها حسب تصاميمه الخاصة . تلك هى الجموع ، جموع الرعاع المتزلفة التى توجه انظارها صوب الرسام العظيم ، لكنه يحتقر الامجاد المتأخرة والاعتراف المتأخر . اللوحات خالية من البشر ، لا احد فيها من اولئك الذين لم يرغبوا سابقا فى الاعتراف بالعبقرى . ليس فيها سوى الدور والشوارع والقصور ، سوى الجدران والاحجار . وفى احدى النوافذ المعتمة وجه بشرى كالبصيص . وجه تلك التى احبته باخلاص ، احبت ابنها وليس الفوهرر ، احبته حتى اذا لم يصبح عظيما . اما الباقون فقد طردوه من مصاطب الحدائق قائلين : لا يجوز النوم هنا . وانزلوه من عربة الترام : يجب اقتناء تذكرة . (اين الآن ذاك القرد المشورب ، ذاك الجابى ؟) هددوه بالسوط وارادوا ان يطردوه من المانيا . اين غرج . . . ؟ لعنة الله على لغـــة البولونيين ، لغة الكلاب . اختبأ فى مكان ما ، وهو على قيد الحياة . اما هملر فقد بحث عنه عشوائيا ثم عاد اليه هدوءه . فتحت امامه ابواب اوربا ونصف العالم : ابحث عن كل الذين يتصورون بانهم اختبأوا وبأني نسيت . لا عدالة فى كون الموت ينتزع منك الى الابد المجرمين والاعداء واولئك الذين اهانوك . انهم كثيرون ، ولا بد من التطهير المتواصل . يرسمون الفوهرر بابتذال فى تروس الفرسان ويتطلعون الى عينيه بابتهال ويتوقعون كلمة استحسان — هى اسمى مكافأة — وقد نسوا كيف كانوا يلقون عليه نظرة متعالية عندما كان يتردد على اكاديمية الشباب العفنة وهو يكاد يموت جوعا «بمنحة اليتامى» . كانوا يرفسونه مرة واخرى ، ويتصورون ان كل شىء قد نسى .

لوثوا سمعته تحريريا وشفويا . الهارب النمساوى ، ومدير البريد ، والديماغوجى ، والقاتل . كم كان ذلك مضحكا : انا ارسم وازين بطاقات البريد ، والخادم العاطل رينهولد يبيعها ، وكنا نعتاش على ذلك . نعم ، لم اكن امتلك ضيعة بالميراث ، لا شىء غير سياط موظف الجمارك العربيد — والدى . بهاتين اليدين عملت ، خلطت الطين وحملت الطابوق ، وفى الليل كنت اتجمد من البرد على مصاطب المتنزهات . طبعا ، كيف يجوز ان يعهد مستقبل الدولة الالمانية الى شخص من هذا النوع ؟ «فليلحس الطوابع التى عليها صورتى !» ، يا لك من ثور عجوز ! ما قيمة اسمائكم الارستقراطية ، انها تنتهى بنهايتكم ، وتكتب اسماء جديدة لالف عام . لا اشعر بالارتياح الا مع عامة الناس من الالمان ، عندما امر على كتبة الطابعة او اتذكر على مائدة الطعام واسمع بسطاء الناس الطيبين وليس «الارقام» الذين يرتدون البزات العسكرية . عيون الخدم تلمع بدموع تفوق الوصف عندما يسمعون كيف كنت جائعا اعانى من البرد فى فيينا وكيف توفيت والدتى وكيف تنكر لى الجميع ولم يعترف بى احد . . . ان قلب الالمانى البسيط عاجز عن التصديق بالحقيقة القاسية التى تقول ان ذلك كله حدث لزعيمهم الفوهرر .

ان كلمتى ليست كلمتى وحدى . وقد فهمت ذلك وادركته من زمان . فى البداية دهشت اشد الدهشة . وخصوصا فى المحكمة ، وبعد ذلك فى لاندسبيرغ ، فى غياهب السجن الذى حاولوا ان يزجوا فيه بمستقبل المانيا . وسمعوا صوتى ، سمعوا كلمة الفوهرر ، وبعد اسبوع رفع حتى الحراس راية السجين ذات الصليب المعقوف . فماذا فعل صاحبى الاعرج

جوزيف غوبلز ؟ كرر اقوال الآخرين متحمسا وشوه سمعة ادولف هتلر : «هذا البرجوازى الصغير الضئيل ! . .» . ما اسخف ما هرف به فى مؤتمر هانوفر . لكنه عندما سمع صوتى ركع امامى راْسا . ونسى ايضا ذلك المتكابر شتراسير واشتراكيته . لن يغفر التاريخ للغبى روبينتروب بسبب اخفاق لقائى مع شرشل . انا واثق من انه ما كان سيتخلص من كلمتى ولغدا ، وانا واثق من ذلك ، صديقا لالمانيا مثلما هو عدو لها الآن !

ومع ذلك يدهشنى ويؤذينى ان كلمتى لم تؤثر اطلاقا على كورت ورفاقه فى الخنادق فى فلانديا العفنة . وحالما يدور الكلام عن امور جدية يضحكون لسبب ما او يشتاطون غضبا كالكلاب . اشاعوا نكتة تقول ان الجندى الاول هتلر ارسل «جاسوسا» الى الفرنسيين هو ابنه من فلاحة فرنسية ولدت طفلا فى البيت الذى اقام فيه اسبوعين مراسلو الفوج السادس عشر . انهم يتشبثون بكل شىء . فقد قضت مضجعهم شوارب الجندى الاول الطويلة كشوارب «غليوم» ، وكذلك ميلان راْسه ، وكان اكثر ما يثير غضبهم وسرورهم انه لا يشرب الخمر ولا يدخن ولا يستحسن علنا تصرفات الخنازير . ركضت وزحفت تحت وابل النار حتى وصلت ورأيت الوجوه المتذمرة الوسخة لكننى احس دوما بالسعادة لان كل شىء يسير افضل مما فى اى وقت مضى . المانيا تنتظر المنتصرين . سندخل باريس حالما نبذل جهدا آخر . انت تنطق بالكلمات الملتهبة ، بينما يدخل عليك هذا الابله الاشقر ويقترب من الخارج ويدس يده الحديدية الى اعلى من الركبتين ويرفعك . وتشعر بالالم فتتشبث بجدارى الخندق ! «فلنصعد الى المعراج يا ادولف القديس» . ما ابشع هذه الوجوه الضاحكة القاسية . وصاح بهم آنذاك :

22-304

«سيبلغكم خبرى وستعرفون من هو الجندى الاول هتلر . . .» .

الى آسيا ، فآسيا هى ارض الميعاد للمختارين من اجل السيادة . اوربا تربة جفت من زمان وانهكتها الفولتيرية وتشاؤم المثقفين . اقوم لاتكلم واخشى ان ابدأ كل مرة : يخيل الى انى تبدلت وتغيرت عندما كنت اسير واقوم ، وانهم تبدلوا وتغيروا ، وهم الآن يقهقهون ويهللون . سامسح ابتساماتكم الساخرة واخلع اقنعة المثقفين من وجوهكم . ولن يفلت احد منى . ما اكثر ما كتبوا وثرثروا ، وكل ما قالوه وكتبوه ضدى ، كله ضدى . كوموا اكداسا من الكتب — فى كل منها سخرية — على طريقى . ويجب ان تمسحها وتعلو عليها فكرة واحدة ، ارادة واحدة ، وكتاب واحد . لمَ لا ؟ فالانجيل والقرآن والتلمود كل منها كتاب واحد لا يعترف بغيره . والكتب الوحيدة كثيرة جدا . سيبقى هناك كتاب واحد لا غير .

الى آسيا ، الى آسيا تقود حاسة الفوهرر السادسة جيشه السادس . فهناك محور الزمن ، هناك ! . . .

سنعود من الشرق بالخبرة الضرورية هنا ، فى الديار . ولكن حان الوقت لنطور جديا تكنولوجيا اخلاء الاراضى الشاسعة من البشر . لم يدرس احد هذه القضية بجد . فبالاضافة الى القضايا التكنيكية هناك قضايا سيكولوجية ، انسانية صرف . اشباه فاوست من رجالى يبذرون الاموال على «العلوم الخالصة» فيكبّون دوما على قياس جماجم الغجر واليهود ، ولا يهتم احد او يفكر بالشكل اللازم باولئك الذين يتعين عليهم ان يحطموا تلك الجماجم ويبقوا مع ذلك ألمانا طيبين . وبالنتيجة يحصل ان واحدا من كل ثلاثة او خمسة المان غير مؤهل بعد للمهمات

التى ستواجهنا غدا بكامل ابعادها . فعند كل رب عائلة تقريبا يوجد يهودى — اما بولونى واما روسى — يشفق عليه . انه لا يهتم بسائر اليهود ، لكنه يريد ان يبقى على «يهوديه» . واذا جمعنا كل الذين يجب ان «نشفق» عليهم ونتركهم فكم سيكون العدد ؟ وبعد ٥٠ — ١٠٠ عام نجد انفسنا مطوقين باشباه الحشرات النهمة . هملر سخر على نحو لا بأس به مـــن «يهوديه» . . . ولكن تمهلوا . انه يعرف قصة ادوارد بلوخ ذاك اليهودى من مدينة لينتس الذى نقل من النمسا ، بعد الحاقها بالمانيا ، هدية الفوهرر — اللوحة — ونقل معها عائلته كلها . فقد كلف رجال هملر بمساعدة بلوخ . وعندما تكلم هملر عن «يهوديه» هل كان يتذكر ذلك ؟ ثم ان ريم كان يتسلى كثيرا بماضى الفوهرر . اين كان يخدم ادولف هتلر ومن خدم حينما عين «ضابطا حزبيا» فى الرايخسفير وممن استلم النقود ولقاء ماذا ؟ كم كان رقمه وما اسمه المستعار ؟ ريم ، من ريم بدأت تلك الاقاويل . كيف لا ؟ فقد كان جنديا اول يعمل مراسلا بماركين فى اليوم . كان يعمل عنده ؟ عند الكابتن ريم ، مخبرا بماركين . وقد تجرأ هو على معرفة تلك الحقيقة وتذكرها . كان يعرفها ويتذكرها ومع ذلك كان يعيش . اما هملر فربما يقض مضجعه حرف الدال الذى سقط من اسم الفوهرر واستبدل بحرف التاء ! وهو يتذكر ذلك بالطبع . فهو الذى اخبرنى عندما ابلغت «الارقام» ريم بان رجال وحدات الهجوم السكارى فى الثكنات انكبوا على «علم اللغة» . كلا ، لن اترككم تقررون : من منا المانى قح وليس يهوديا ؟ وربما لم يعد يعجبكم اننى نمساوى من براوناو ، من لينتس وكأنى لست انا الذى ارغمتكم — وقد بح صوتى من الصياح — على ان

تتذكروا بانكم المان . لقد اعدت الى الالمانى احترام النفس . وتتقارب عفويا مصائر جميع الذين اختاروا خدمة شعب غريب . حتى نابليون لم يكن فرنسيا . لقد جئت لارفعهم واخلصهم من الاقذار والخمول ، لكنهم كلما ارتقوا اعلى انكروا الجميل . وانا فى حصار ابدى . فانا ، على ما يبدو ، لم اعد ضروريا ، وهم ، على ما يبدو ، قادرون على النهوض بدونى . كان محقا ذاك الرجل من اهالى فلورنسة عندما قال : اذا اغتصبت «العرش» ولم ترثه عجل واستبدل الجميع وحطمهم ، وبالدرجة الاولى من يسمون «بالاشياع» ، اى الذين يعرفونك من «قبل» ويتذكرون على العموم الكثير جدا مما لا ينبغى تذكره . واذا استطعت — وهذا اكثر امانا — اصنع لنفسك من الغرباء شعبا على هيئتك وشكلك كما يقال ، كيلا تكون انت غريبا ، بل يمكنك ان تنبذ ايا منهم وتتنصل عنه فيكون هو الغريب ولا اهمية للمخطط الذى تبدل كل شىء بموجبه . فالمهم ان تبدل كل شىء وتعيد بناءه اطلاقا من جديد ، بحيث لا يمكن حتى التفكير بوجود الشعب بدونك ، بغيابك ، بدون ارادتك . ولهذا الغرض ينبغى ان يتحسس كل جيل ثقل يدك وقساوتها بجلده وعظمه ، وخصوصا فى زمن السلم . وعلى العموم يجب ان لا يكون هناك زمن للسلم حتى اذا لم تكن الحرب قائمة .

ومع ذلك ساشعر بالضجر بدون «الارقام» الذين تعودت عليهم وبدون لعبة الفوهرر المسلية فى الانعام والانتقام . فانا اشعر بفراغ عندما يخرج من اللعبة الى الابد اشخاص تعودت عليهم مثل ريم . يجب ان اجيد تكوين حاشية من الارقام الثانويين بالفطرة الذين لا يتمكنون اصلا من اداء الادوار

الرئيسية . ربما كان ريم ايضا من هؤلاء ، مع انه بدأ يتحدث عن «الثورة الجديدة» . اتذكر كيف دهش وارتعب للفكرة ذاتها عندما صحت به : «ربما تريد فوهررا جديدا ايضا ؟ اتريد ان تكون ، يا خنزير ، فوهررا جديدا ؟ لن يكون هناك فوهرر جديد . ولن تقوم فى المانيا ثورة اخرى ابد الدهر» . اكثر ما يخافونه هو ان يظلوا بدونى وجها لوجه مع الشعب الالمانى ، مع اوربا ، مع العالم ! لا احد يستغنى عنى ، وهم يعرفون ذلك . انا نفسى ارتعب عندما افكر بانه تكفى ضربة ، حتى وليس اطلاقة ، هنا فى الرأس او هنا ، لينحنى محور الزمن بشكل لا علاج له او حتى ليتحطم . كلا . لن يحدث ذلك : انا متأكد من ان اهدافى تمتد الى الفضاء الكونى . واتحسس ذلك مثلما اتحسس وجود يدى ورجلى . وهناك لن يسمحوا بتقطيع كل شىء بالصدفة وعلى هذا النحو من الغباء . لقد ارتبطت الى الابد مع شعب اختارنى واخترته . كالصياد والغنيمة . ولكن من الصياد ومن الغنيمة ؟ الكل يحاولون ان يكونوا صيادين . ربما كنتم تؤملون بان «هذا النمساوى» الذى اهداكم الجيش والرايخ سيتذكر بانه ليس المانياً قحا ، بل مجرد شخص «برتبة واطئة» يخطو مرتعبا الى الوراء ويقف فى الصف ، بينما يأخذ زمام القيادة آخرون ؟ كلا ، لم يحدث ذلك ، لحسن حظكم يا رعاياى المطيعين للقانون وغير المخلصين . انكم فى الواقع «غنيمة» حتى بالنسبة لانفسكم . فما اشد تكاليكم عندما دستم واحرقتم بعضكم بعضا ، وكلكم المان ، الى ان جمعكم بسمارك الحديدى فى وحدة متكاملة . وما اسهل تفكك تلك الوحدة من جديد (ويا لفرحة الجيران) وتحولها الى «دويلات» متناحرة ، لو لم تعدكم الى رشدكم

الرصاصتان اللتان اطلقتهما فى السقف ، مجرد رصاصتين لا غير . ما اشد هياج وطنى «بافاريا المستقلة العظمى» عندما رأونى فجأة على المائدة والمسدس بيدى والساعة باليد الاخرى . كان ذلك رمزا للتاريخ نفسه : المسدس يطلق النار والساعة معه . وبدلة السموكن الطويلة . تلك المناسبة تتطلب زيا مهيبا رصينا . الى ميونيخ ، الى برلين ! الثورة الوطنية بدأت . جبناء ، جبناء سفلة . . . فيما بعد حاولوا ان يروا فى ذلك شيئا مضحكا : «الجرسون صعد على المائدة . . .» . الويل لكم يا ناكرى الجميل . لو لم اظهر انا فى الوقت المناسب لبدأتم تذبحون بعضكم بعضا من جديد ، وكلكم المان . بنفس القدر من الحماس تمجيدا «لولى العهد» الذى تفوح منه رائحة النفتالين او «للاحمر» الذى تفوح منه رائحة السمك . الانجليز بصراحتهم محقون مائة مرة : اذا كنت لا تريد حربا اهلية ابحث عن الاعداء فى الخارج وانشر الاستعمـــــار . فمن هو اكثر منى سخاء بالنسبة لكم ؟ لقد منحت المانيا ليس عدوا او عدوين ، بل عالما كاملا من الاعداء . وبذلك اخلص الالمان من الالمان انفسهم . فتذكروا ذلك حتى وان كنتم بحاجة ماسة الى التصديق بان كل ما كان ما هو الا حلم . ففى كل الاحوال ستبتدعوننى من جديد !

فالافضل لكم الآن ان تسيروا حتى النهاية طالما حالفكم الحظ .

فليس معروفا اذا كان سيحالفكم مع غيرى ! . .

. . . تحت السجادة الخضراء على اصفرار بصليبها المعقوف الابيض المكسر الاطراف ، تحت الارضية الخشبية خرسانة

مسلحة ، صخرة باردة . الفصل صيف ، لكن البرد ينتاب العظام والبطن . ذلك هو البدن البشرى ، مهما ارتقى من ذرى يبقى حتى نهاية ايامه بنفس الـ١٧٢ سنتمترا ونفس هذه اليد الذاوية من اصل الكتف . . . (بخصية واحدة ، يا للسخرية والاهانة ، يسعى كورت الى تصيدها بيده الحديديـــة) . ابشع غجرى يمتلك ما لم تمنحه الطبيعة لك عندما يفور الدم فى دماغه . ولذا تحاول يفا مرارا وتكـــــرارا ان تقنعك وتقنع نفسها قائلة : «انا مرتاحة معك ، سيدى الفوهرر ، حتى بدون ذلك» . يا للعنة ! يمكنك ان تنتزع كل شىء : الارض والمدن والمناجم والحياة ، بل وحتى لغة شعب بمائة مليون ، لكنك لا تستطيع ان تنتزع ذلك من احقر يهودى او غجرى . ما اكثر شهوانية هؤلاء الساميين ! فى حين انى اشعر بألم فى معدتى . بم اتخمنا الرايخسمارشال ؟ انه لا يهتم بشىء ، يأكل ويأكل كالخنزير . كانت هناك مائدة صغيرة خاصة للاطعمة النباتية وعليها كعك ، فلم اتمالك نفسى . «بيت الصيادين» هذا يشبه بيت الدعارة . لو جاء هوفمان الى هنا مع آلة التصوير ، او ادولف سيغلير بفرشاته الكلاسيكية لدهشا اشد الدهشة ، ولهرعت الفتيات العاريات المكتنزات يلعقن حتى اصباغه . تفو ، ما ابشع هذا التهوّع . كيف عزم غورنغ على اصطحابى الى سدوم هذه ؟ ام انهم قرروا ان يعرضوا قدرا اكبر من النماذج الانثوية ليبينوا بانهم ليسوا لوطيين ، وانهم لا يقترفون الخطايا على طريقة الجنرالات . فالرأى السائد ان الفوهرر لا يطيق ذلك . من الذى نصح غورنغ باقتناء اقنعة التنكر هذه ؟ اختار لنفسه قناع اله افريقى . جبل من اللحم الابيض وقناع ببوز اسود هائج وشفتان واظافر مصبوغة . صورة

جاهزة لا يبقى الا ان ترسل الى جريدة انجليزية . اما الاعرج القمئ فقد اكد ليس على اصله العمالى ، بل على منصبه الاكاديمى : قرد عار بوجه منكر وخطيب يونانى وسط حوريات زاعقات . حبذا لو فاجأته ماجدة لتقصر رجله الثانية ان لم اقل اكثر . يا ويلكم يا خنازير . كنتم تأملون ، ولا شك ، بان تغووا الفوهرر بهذا المجون ، وتهبطوا به الى مستواكم ، وتقربوه وتقتربوا منه . الكل يبحثون عن نقطة ضعف ويتلمسون بحذر ودناءة . فهم يعرفون اننى مطلع على حقيقتهم من زمان ، وانى على علم بكل احابيلهم . كيف كان منظرى سيبدو بهذه الطيات الشحمية على البطن وبهاتين القدمين القصيرتيـــــن المكسوتين بالشعر ؟ . لقد اعدوا القناع ، كان موضوعا على مائدة الاطعمة النباتية . بوز ملتح يشبه زيوس ، لكنه يشبه كذلك يهوه ويشبه بيرون السلافى اله الرعد . هل يلمح القناع الى شيء ؟ ماذا لو ارتديته وهدرت بلغة اليهود او الروس ؟ ! هملر تعلم الروسية وصار يقرأ بها . وبوسعه ان يشرع بتعلم الايديش اليهودية . ماذا لو جعلناهما لغتى المتفوقين ؟ فليبذلوا الجهود فى تعلمهما طالما يجرى تصيد آخر يهودى وآخـــر سلافى . سيتعلمونهما صاغرين كى يكونوا من العشريـــــن المختارين ، كى يكونوا اقرب الى قدمى . ثم ان بخلائى الاثرياء الآريين يزحفون ايضا الى قدمى ، فى حين ما اكثر طموحاتهم السابقة وثقتهم بالنفس . كادوا ينبشون باصابعهم فم الفوهرر المرتقب — أليست هناك مجازفة فى توظيف الملايين ؟ وقالوا عنى : «ثورى» «مصباح» يثير الشبهات ! وكم سخروا منى آنذاك فى دوسيلدورف : عجيب ، هتلر فى السموكن ! من اى ممثل استعاره ؟ هل تظنون بانى لم اقرأ ابتساماتكم ؟

وبعد ذلك دوت كلمتى ، فصفقوا لى ، بل نهضوا ، لكنهم مع ذلك (رأيت بنفسى) حملقوا فىّ وكأنى نصاب فى ثياب الغير : سيستولى على نقودهم ويفر الى اميركا او اوستراليا . نعم ، مدوا يد المساعدة ، ولكن بعد ان جعلونى اختنق بالماء واحس بانى اغوص الى القاع . وظنوا انى سابقى مراسلا الى الابد . اما الآن فانتم ترتعبون وترتعشون باعتذار عندما تدوس قدمى عليكم . طبيعى ان الاقتصاد عندنا ملكية خاصة ، ولكن من يمنع الدولة الاشتراكية القومية من مصادرة الاموال من البعض واحالتها الى البعض الآخر ، الى الذين يعملون بهمة اكبر واخلاص اكثر ، بل بمجرد موهبة اكبر كمدراء ؟ ما من احد يستطيع ان يمنعنا اليوم . وانتم تعرفون ذلـــــك . وترتجفون . نعم ، لقد قلت واكرر ان قضية الامة هى العليا ، وليس مصالح اسياد معينين . وانتم تعرفون ما اقصد . انتم الآن تكرهون الحمر اكثر لانهم ، فوق كل شيء ، دفعوكم الى احضانى . ولكننى انا ايضا اتذكر بعض الامور . اتذكر كيف كنت بلا مأوى اسير امام قصوركم وسياراتكم ولا احد بحاجة الى . ويمكن ، بالطبع ، ان انسى بعض الامور : فليكن ذلك قربانا منى لوجه الوحدة الالمانية . ما حاجتى الى تأميم مصانعكم ؟ يكفينى تأميم اصحابها ، تأميمكم . ولكن عليكم انتم ايضا ان تتخلصوا نهائيا مما كنتم تؤملون وتحلمون فيه خفية . الموجود الذى سيبقى هو ادولف هتلر ، فوهرر الامة الالمانية ، اما هتلر الشرطى الذى كنتم تريدون ان تتسلطوا عليه فلا وجود له لا الآن ولا فيمـــا بعـــد . اللوحة لا بأس بها ، أليس كذلك ؟ الشرطى هتلر يتمشى امام باب مصنعكم وانتم تفكرون : هل نزيد راتبه لقاء همته ام

لا ؟ هناك الكثيرون ممن يراقبون النظام عند بوابات المصانع بدون الشرطى هتلر . وليس هناك ما يجعلكم تتشكون بهذا الخصوص . ولكن معذرة : مكان الفوهرر واحد لا اكثر . . . لماذا لا يبحث اليهود والمسلمون عمن اطعم موساهم ومحمدهم ؟ فى حين لا يغمض لرعاياى جفن الا بعد ان يتأكدوا مائة بالمائة : من الذى خلق فوهررهم ومن اية عجينة ؟ وكأنه سجق المانى لا اكثر . وما اكثر الذين دسوا فى ذلك السجق مخهم ونقودهم وطيّباتهم ؟ ايكارد وروزينبيرغ وشاخت وهاوسخوفر وكروب . وهم لا ينسون القس برنارد شتيمفلى ابدا . كيف لا والفوهرر عاجز بدونه عن النطق بكلمتين ؟ ويتذكرون حتى رودولف هيس كاتب الطابعة الذى كان يلازمنى فى لاندسبيرغ كظلى ! كيف حال الرهينة المسكين هناك عند شرشل ؟ ومن الغريب انه كان يميل دوما الى السجن مثلما يميل ذلك الاعرج الى دور الدعارة . وقد تطوع لمرافقتى فى لاندسبيرغ وبريطانيا . . . وهو ، على الاقل ، مخلص كالمرأة . يتطلع الى والدموع تكاد تترقرق فى عينيه من فرط الاخلاص . انه اقل «الارقام» لمعانا ، ولذا كان مناسبا تماما وغير خطر فى دور «البديل» الحزبى . ولكنه هو ايضا لم يسلم من الهمسات — هملر يضع على طاولتى بارتياح كل ما يتعلق «بالارقام» الآخرين . — فالاشاعات تقول ان رودولف طلب ان يلتحق بى فى السجن لكى يهمس فى اذنى محتويات كتابى .

ذاك الرجل من فلورنسة محق تماما عندما قال : احمق هو الحاكم الذى يصبر طويلا على الذين استلموا السلطة معه ! . .

ديتريخ هو الصديق والنصير الحقيقى . كان يسير جنبى عندما كنت فى حاجة اليه ، وفارق الحياة فى الوقت المناسب

دون ان يثقل على او يحدق فى عينى . اما هؤلاء الخنازير فـيطول بهم العمر اكثر من اى كان . كان ديتريخ ايكارد شاعرا عظيما من حيث روحيته . وهو الوحيد الذى فهمنى كرسام وفنان . لقد توقع صديقى الحميم ديتريخ بانه سيحين زمان فنانى الفعل . وذلك فن من طراز رفيع لنحت جمال وبشاعة المستقبل ليس من الطين ، بل من مادة بشرية . عندما حاول بيكاسو القاسد بفرشاته المتعثرة ان يتبارى معى (الفرشاة تتبارى مع القنابل) دللت لوحته بالذات على العجز المتناهى الذى يميز بيـــن المستنسخ والاصل . ان القدر نفسه ، وليس تنابلة اكاديمية ميونيخ ، هو الذى سد فى وجهى الطريق الى الفن الميت ليسلمنى ازميلا آخر وفرشاة اخرى . ما قيمة نسخهم المزرية بالمقارنة مع ارتعاشات وارشو وانتفيربن وسانت-بطرسبورغ ؟ على الكوكب ، كما على رقعة اصباغ الرسام ، يجب ان نمسح الاصباغ-الاجناس ، الاصباغ-الشعوب ، ونرسم هلاكهـــا ونهايتها ومجىء الناس الجدد ! ويجب ان نعيد الى اوربا مرة فى العام اولئك الذين مسحت الوانهم واسماؤهم المنسية من الخرائط الجغرافية . وننظم رحلات لوفود اشباه القرغيزيين الذين كانوا فى زمن ما يسمون انفسهم بالفرنسيين والهولنديين والانجليز والتشيكيين عبر برلين المبنية من جديد ، عبر العاصمة الجليلة للعالم الجديد . يجب تطهير عرق المستقبل من كل المخاليط وبلوغ النقاء الامثل لصبغة واحدة ، وكل ما عداها مما هو محكوم عليه بالفناء يجب ان نمسحه ونخلطه ونرى ونعرض ما كان سيصير اليه الانسان لو لم نهبّ نحن فى الوقـــت المناسب . ذلك هو الفن ، ذلك هو نطاق العلم الآرى . اننا ننجز ونكمل عمل الآلهة ! ما اشد بدائية وزيف تصورات

وطرائق كل مجددى العالم ، وخصوصا المحدثين منهم . لم يقطع احد منهم شوطا ابعد من الجراحة الاجتماعية . ولم يصل الى الجراحة العرقية الا النظريون الصرف او الشعراء من امثال نيتشه او اثنين من الانجليز . اما الآخرون فقد خيل اليهم انه يكفى تخليص الشعب والامة من هذه الجماعة او الفئة او الشريحة من نصف هؤلاء وربع اولئك حتى يتبقى ما هو اصيل ونقى وقيم وضرورى ، ومن هؤلاء يولد الاناس الجدد ويظهر الانسان الجديد . ذلك موقف كمى بدائى يشبه كيمياء حجر الفلاسفة . كلا يجب ان يكون هناك طريق آخر ونطاق آخر : من كل الحثالات والقمامة يجب اختيار العرق الوحيد الصاعد وبدء دورة جديدة باعادة الانسان-الاله والساحر الجبار الى «الكوكب» . اما قمامة البناء فيجب ان تحرق وتستخدم سمادا .

من الذى استطاع ان يوحى لى بذلك من بين الاشخاص التافهين الحاليين ؟ فما اكثر الذين يعتبرون انفسهم ويعتبرهم الآخرون اساتذة روحيين لى . كيف لا ؟ فقد كان هاوسخوفر وروزنبيرغ وحتى هيس يغذون عبقريتى سرا فى سجن لاندسبيرغ . يجب البدء بهم ، بهؤلاء «المحاربين القدامى» ، «بالحركيين القدامى» ، بهؤلاء النساء العصبيات ، حالما تحين الفرصة . ولن يضيع او يفلت احد منهم . فقد اتخذوا لانفسهم ارقاما بانفسهم . انصارى المخلصون هؤلاء يظنون ان الفوهرر لا يعرف عنهم شيئا . ولا علم له بحساباتهم المخبأة فى البنوك فى نيويورك وسويسرا وبريطانيا . اكتأب المسكين غورنغ عندما عرف ان الاميركان وضعوا اليد على «نقود زوجته» . «هل انت متوعك يا غورنغ ؟ هل تعانى من حرقة المعدة ؟» . «آه ، يا سيدى

الفوهرر ، انت لا تتصور ذلك ، فانت قديس» . «اننى ، ايها الخنزير القذر ، اتصوره اكثر مما تريدون . الاعرج عنده حساب فى البنك السويسرى ، وعند ريبينتروب تأمين بخمسة ملايين . حبذا لو سألناه ما معنى «التأمين» : اذا علقته بحبل المشنقة يدفعون له المبلغ ، أليس كذلك ؟ انا واثق من ان هملر الذى يقدم لى بارتياح معلومات عن «الارقام» الآخرين يمتلك هو نفسه حسابا وتأمينا فى بنك شيكاغو او بنك لندن . كيف لا وهو يشرف على مثل هذه المعسكرات ؟ ثم انه يأخذ من البخلاء الآريين ايضا . الم ينظم لهذا الغرض «حلقة اصدقاء الرايخسفوهرر» ؟ كل ذلك يخبأ فى الجحور تحوطا للطوارئ ! لاية طوارئ يا ترى ونحن منتصرون ؟ ماذا لو كنا مغلوبين ؟ لو كنا مغلوبين لما رأيت غير ظهورهم كما فى حلبة السباق . عجيب ، ما اشد وقاحته : دخل ونظارة الصيادلة تلمع على عينيه وابلغنى بلهجة جادة ان ٧٠ الف دولار اودعت باسمى فى بنك نيويورك ، مقابل اعادة طبع «كفاحى» . فهل تأمر بشىء ؟

ها هو يقدم لى تبليغا عنى انا !

. . . اريد ان اقرص نفسى من جديد لاتأكد من ان ذلك كله حقيقة وليس حلما : الفوهرر والجيش السادس والهجوم المظفر فى جنوب روسيا وفى افريقيا . يجب ان اقرص واضرب واضرب ، واحرق بالنار لاشعر ، ليشعروا بان ذلك حقيقة ، وبانى موجود وكل شىء موجود وسيبقى . هذه الغابات البولونية وهذا العرين العميق مكان مناسب لنضوج المخططات وتركيز الطاقات . لكنه من ناحية اخرى غير مناسب لانه يقاوم الشعور الجديد ، الرغبة فى الاندماج روحيا مع الجيش الذى تنبسط

امامه السهوب الآسيوية المترامية الاطراف . يجب ان ننقل المقرات الى هناك ، الى الجنوب حيث يتقرر مصير الهجوم الصيفى والحرب . يجب ان نكون هناك . فالجنرالات مرتعبون هذه المرة ايضا من الرحاب الممتدة حتى الفولغا وفيما وراء الفولغا . انهم يصدقون الخرائط والعيون ولا يعرفون ان الامور من هناك ، من وراء الجليد ، ترى بشكل مغاير تماما . ان الجبابرة ، الغائبين الكبار ، الذين يعودون ويتكشفون امامى ، يعتبرون فضاءنا مجرد فقاعة هوائية صغيرة فى صخرة الجليد الكونى . وقد حزر هانس هربيهر وبيتلر بما تكشف امامى كواقع موجود . انتى لا اريد ان اعرف بوجود اية رحاب ، وهى غير موجودة بالنسبة لى . ولذا لم اكن احب ولا احب سراب الرحلات والتجوال : تكفينى المانيا ، ثم انه لا يوجد شيء — بالمفهوم الاعلى — غير النقطة التى اتواجد فيها فى اللحظة الحاضرة . واذا انتقلت الى الجنوب او الى آسيا ينتقل العالم كله الى هناك . يا للفظاعة ، انى اخشى التحرك والانتقال من مكان الى آخر عندما ارى كيف يتحرك كل شيء ويصيب الخلل توازن الكون غير المستقر . . . لا يوجد فى الواقـــع الا ما هو معلق بالنسبة للاغلبية . ولكن هل ان تلك «الاغلبية» نفسها موجودة ؟ واذا طرحنا السؤال بشكل صحيح سيكون على النحو التالى : من هم «المليارات» ؟ كان الجميع يخوفوننى بان عددهم ملياران والالمان ثمانون مليونا فقط . فهل يمكن لهذا العدد ان يغلب ذاك ؟ اذا فكرنا بان المليارين هم بشر فالسؤال طبعا لا يحتاج الى جواب . ولكن ماذا لو اعتبرناهم مجرد حشرات ، كتلة متكسرة تحت جنازير دباباتى ؟

دواليب السيارة يمكن ان تتلكأ حتى بالجراد ، ثم ماذا ؟

العناية الالهية تحمينى خصيصا من المعلومات الزائدة الكاذبة التى تضعف ارادة العمل ، كما اخفت على جحافل ستالين . لكن ما اعرفه هو المعرفة الاسمى . اننى ارى ما اعرفه . فى مكان ما هناك ، وراء الفولغا ، تنتظرنا بقاع خالية منبسطة حتى الاورال سنخصصها للمعسكرات الرئيسية . اما بيلوروسيا التى اشار بها علىّ روزينبيرغ ووزارته الشرقية فلم تبتلع الاوربيين النافلين . ولم نتمكن بعد من التخلص من البيلوروسيين انفسهم ، فهم متوزعون على الغابات . موسكو تبعث اليهم الاسلحة وحتى الجنرالات ، كل ذلك بسبب تماهلنا . وقد وصلت الامور الى حد ان بعض الآمرين الذين لا يفهمون الى اين جاءوا واية حرب تدور قد عاقبوا الجنود على «الجرائم بحق السكان المسالمين» الى ان ارغمتهم جميعا على التعهد بانهم سيحالون الى المحاكم اذا تجرأوا على الالتفات الى مثل هذه الامور . لا حدود للحماقات الالمانية ولحذلقة الالمان فى كل خطوة وفى كل شيء . اما بيلوروسيا هذه فلم اغفر لها ولن اغفر لها غاباتها ومستنقعاتها التى فرقت ومزقت مجموعتى جيوشى «الوسط» و«الجنوب» فى الشهور الاولى للحرب ، الشهور الاهم . ان غابات بوليسييه المطعمة بالفرق العسكرية قد هددت كلتا مجموعتى الجيوش وحرفتنا عن مخططنا . . . كلا ، ما قيمة موسكو ؟ ستسقط بنفسها عند قدمى مثل الكمثرى الناضجة ، عندما نسدد الضربة الى الفولغا ، الى جذع الشجرة . وسيرى اهالى الجزر البريطانية المتكابرون واللاتينيون الضعيفو الاعصاب كيف يعمل الجنس الفتاك . طوال اربعمائة عام لم يقتلوا سوى مائة مليون افريقى بالاضافة الى خمسين مليونا من الهنود . ذلك هو اقصى ما يستطيعونه . اما نحن فيجدر بنا خلال عشر او عشرين سنة

بعد الحرب ان نطهر اوربا من كل مزابل الدول والشعوب الصغيرة ، الصغيرة وغير الصغيرة ، ناهيك عن السلافيين وروسيا . وسننقل كل مزابل الاجناس الى الشرق . فالخط العريض من معسكرات الاعتقال بين الفولغا والاورال سيستقبل البعض في البداية في دور المفتشين ، والبعض الآخر حسبما نقدر ونرسم لهم . ولن نستغني عن صناعة الابادة المنظمة بالكامل . كل ما يتبجح به اليوم هملر وباخ—زيليفسكي رئيس اركانه في مكافحة الانصار مجرد عمل ارتجالي . ونحن مقيدون تماما بعمليات العصابات ونفوذها . وعند ذاك سيحلق الخيال حرا طليقا . وسنزج بالجيش الالماني كله ليس لدحر جيوش العدو بل لقمع الشعوب الواحد تلو الآخر . وقبل ذلك سيشق كل شعب دربه الى الشرق بطرق جيدة معبدة . اعمدة وموسيقى واعمال شق الطرق . وعزلة كاملة لمناطق السكن الواحدة عن الاخرى ، وحتى في داخل الواحدة منها . ولا يسمح لاحد من الاجانب بدخول المدن والبلدات الالمانية الجديدة التي ستقوم على امتداد الطرق كسراب شفاف . وستحل مكبرات الصوت محل السحرة . واذا حدث عصيان وتمرد تنهال القنابل من السماء ، وفي ذلك الكفاية . وسينقلون بالتدريج الى ما وراء الفولغا . الحكماء في وزارة الشرق حريصون جدا على ضمير الالمان . لكن ما يلزمنا بالذات هو ان نحمّل ضمائرهم كيلا تستحوذ عليهم غواية الاستدارة الى المنعطف ، الى الجانب . لا احد معصوم من الاخفاقات الوقتية . ونحن ايضا . لكنني لا اعرف شيئا غير النصر ، وكل ما عداه هلاكنا جميعا . لكنكم يا رعاياي المتمسكين بالقانون وغير المخلصين تريدون ان تتخلصوا من ذلك مهما كلف الثمن ، حتى بخيانتكم للفوهرر ،

من اجل ان يطول امد الركود الذي لا لزوم له ، حتى وان كان هزيمة جديدة ، هزيمة لا تقوم لنا بعدها قائمة . اجل ، الالماني يجب ان يتجاوز نفسه . وانا لا اقول لكم كل شيء ، فانتم لستم مستعدين بعد لسماع كل شيء . والا لفهمتم بانني لا استعمل فكرة الامة — فكرة الامة الالمانية — الا لاعتبارات الآونة الراهنة . وانا اعرف القيمة الوقتية لهذه الفكرة . . . نعم ، يتعين عليكم ان ترتقوا الى مستوى الجرمان من خلال كفاحي . فانتم لا تزالون بعيدين عن الجرمان . وحتى ذلك ليس هو الحد الاقصى . فقيما بعد ، فيما بعد تهيمن على العالم الى الابد اسرة الاسياد الكلية ، وكثرة من الطوائف المتدرجة الهابطة الى تحت . فأية لغة ساختارها للمتفوقين ؟ من الغريب ان هذه الفكرة لم تخطر على بالي الا اليوم . ولا يجوز افلاتها . قد يكون مفيدا ان اصفع رعاياي السذج غير المخلصين على كبريائهم الالمانية باللغة العبرية . عند ذاك سيتحيرون ويتساءلون متطلعين في عيني : كيف ولماذا ؟ ماذا سنفعل بمشاعرنا الآرية ؟ سادفع لهم ثمن كل شيء ، ثمن نكران الجميل ، ثمن الجشع الالماني والرغبة في انتزاع كل ما لدى زعيمهم الفوهرر حتى لا يتركوا له سوى الهموم الالمانية والافواه الالمانية ! ان المتفوقين غير ملزمين بمشاطرتكم مشاعركم واوهامكم حتى وان كنا قد غرسناها بانفسنا لاعتبارات تكتيكية . من المؤسف ان الايديش تتضمن كلمات كثيرة جدا مفهومة للرعاع الالمان . وهذا عيب لا علاج له . فلنأخذ اذن لغة سلافية ، احدى اللغات السلافية . وفي ذلك سخرية لا اروع منها ، مع ان لغات السلافيين معروفة ايضا للعديد من الالمان . فلا شيء خالص في هذا العالم . هذا الكوكب

ام الكبائر . المتفوقون بحاجة الى لغة تحجبهم مثل سور الصين . لم لا تختبئ وراء الخطوط الهيروغليفية ؟ لكن نصف المليار . . . ما قيمة ذلك ؟ لقد تلفظت بكلمة المليار . انا اول من تجرأ على القول بان «الكوكب» سيطهر من مليارات من اشباه الحشرات . حان الوقت لاعداد تجويف يليق بالبشر-الجبابرة وتضيق به بلاعيم سائر البشر . الفكرة التى تكلف مثل هذا الثمن خالدة من الآن فصاعدا . . . .

سنواجه مشاكل مع الالمان ، مع الجرمان ، معهم بعد الجميع . فهؤلاء السذج المتكابرون على استعداد للتصديق بان فكرتى كلها فى بطونهم . وسيشعرون بغيظ شديد عندما يعرفون بان ذلك ليس كذلك تماما ، بل انه ليس كذلك اطلاقا . وساضطر للشروع بمعالجتهم عندما تحين الساعة وتستدعى الحاجة سحق وتفتيت صخور القومية والانانية الجرمانية ، لاحظوا : الجرمانية . كل شيء اليوم يعتمد على الالمان ، وغدا سيصبحون هم بالذات حجر عثرة على طريق حركتنا . سيضطر الالمان ، وان بعد الآخرين ، سيضطرون بانفسهم الى سحق عظام اجدادهم الكبار . عظام فريدريك وبسمارك وامثالهما وتحويلها الى رفات وغبار . اما باول فون بينيكيندورف اوند هيندينبورغ فسألقى بعظامه الجليلة الى الحفرة قبل غيره . ابتكر احد الملوك الآشوريين المنتصرين بدعة جيدة عندما كان يلقى الى المغلوبين فى الحفرة بعظام الملوك من اجدادهم ليفتتوها بالصخر ويسحنوها فتتحول الى مساحيق والى كثبان من الرمل والتراب ولا شيء فوقها سوى الشمس . ان ميزة الالمان الوحيدة هى ان يكونوا آخر الجميع . وسيؤدون بانفسهم العمل اللازم عندما تحين الساعة . سيؤدون ذلك العمل ، فهم بشر وهذا ما

قدر للبشر . سيهتم كل منهم بشيء واحد : اين يتعين عليه ان يقف او يجلس وما الذى وعدوه به ؟ هل هو اصدار الاوامر ام سحن العظام فى الحفرة ؟ اما ان العظام المانية ، جرمانية فهذا امر سيتعودون على عدم الالتفات اليه . قد يخيل اليهم اليوم انهم ما كانوا ينتظرون ذلك ، وما كانوا يؤملون فيه ، وليس هذا هو ما كانوا يسعون اليه بقيادة الفوهرر . وغدا سيصدقون بان هذا بالذات ما كانوا يريدون ولا شيء غيره . عندما اتكلم معهم واخاطبهم من المنصة او من الاذاعة تختلط فى صوتى عدة اصوات . ولم اكتشف انا نفسى ذلك فى الحال . كل واحد منهم يستمع الى الصوت الموجه اليه وحده ، ويسمع وعدا بانه سيكلف هو بالذات ، وليس غيره ، باصدار الاوامر . لذا يجب ان تعد كلا منهم باكثر مما تعـــد الجمهـــور كله . وسيسمع كل منهم مهما كان — رأسماليا ام طالبا ، امرأة ام عاملا ، فلاحا ام مستخدما حكوميا — ان كل شيء يتحقق ويجرى من اجله . وهذا هو ما يجعل لكلمتى هذا التأثير الشديد على الجمهور . ان صوت الانانية الابدية هو الذى يزحزح الجبال ويسحقها ويحولها الى رمال . يا ليت كورت لم يكن بين اولئك الذين تحت . هذا الجهول ، هذا الفولتيرى الوقح . فانا لا ادرى باية كلمات اخاطبه ، اخاطبهم ومن اية جهة اقترب منهم . وهو نفسه يقترب منى من جهة الخلف ويجعلنى اتلفت طول الوقت واحس دوما بفراغ خاو خطر خلف ظهرى ، وهذا يحول دون الانطلاق فى مخاطبة الجمهور . فاليد الحديدية يمكن ان تمسكنى من تحت بألم : «فلنذهب يا ادولف القديس ، يا سيدى الفوهرر ، فلنذهب يا عزيزى ادولف شيكلهروبر» . لكن الجميع لا يعرفون ولا يفهمون السبب

الذى يجعل وجه القوهرر متوترا ويجعل يديه تلوحان برعب . فى حين ان «الارقام» يتزاحمون ليقفوا قربى كى يراهم الآخرون من تحت ولا يفكر احد بمهاجمتهم من الخلف . ولا ادرى ربما هو ذلك الشخص الذى ينبغى ان آخذ حذرى منه . اننى اراه حتى فى الاحلام ، فحتى فى المنام لا ارى الهدوء بسبب كورت : انه يأتى الى من الخلف طول الوقت ، ذلك الفولتيرى الوقح الذى لم تصله يد الابادة ولا يعترف باية مقدسات . ذلك المتفسخ اخلاقيا من النوع البشرى كله . لقد جاء من هناك ، من الزمن الذى تقوضت فيه الجبهة فى الغرب وفى روسيا البلشفية . اما المانيا التى لم تصدق بان تلك هى الحقيقة وان ذلك ممكن فقد اخذت تستعطف الهدنة بصوت الخونة من حركة نوفمبر . هرعوا من الخنادق يبحثون عن المذنب فى كل مصائبهم . بينما اوما الحمر انتقاما الى الوطنيين . وفى المستشفى كان الجندى الاول الذى لا يراه احد والذى فقد بصره فى الجبهة يتشبث بالجدران الباردة والمخدشة كجلد مصاب بالسفلس ، وكأنه يسير من جديد عبر سحابة سامة ، باحثا عن ردهته ، سريره ، جحره دون ان يعثر عليه ، وكان مكبر الصوت يتعقبه : «المانيا تطلب الهدنة . . .» . تطلب الهدنة . كان احد ما ملزما بان يوقف السقوط ويمسك بخناق كورت الاشقر ويضعه فى الطابور من جديد . فوجدتك العناية الالهية ، انت الضرير المريض ، مثل نيتشه العظيم ، انت الضرير الذى رأيت رسالتك السامية لسنين مرتقبة ، لعشرات السنين ، لمئات السنين . عددهم كبير للغاية اولئك الذين اختارتك العناية الالهية من بينهم لتخلص الكوكب-التجويف . خلع كورت بزته وضاع بين الجموع ، ثم ارتداها وضاع من

جديد — بين الطوابير السائرة . عددهم كبير جدا اولئك المستعدون لان يهللوا ويقهقهوا هناك ، تحت . وفى كل منهم نفس القدر من الاستعداد الالمانى لعدم العمل وعدم التنفيذ وعدم الموافقة . عددهم كبير للغاية لان تلك هى طبيعة الانسان ، هذا الكائن غير الكامل .

يجب ان نسحقهم ، نسحنهم ، نحولهم الى رمال ، الى كثبان طيعة للشمس والريح . يجب ان نحرقهم ونجففهم . فالى الامام على الرمال ، على الكثبان ، على القبور !

ولكن هل يعقل اننى انا ايضا يمكن ان اموت ولا يبقى لى وجود ؟ كم مرة كان يمكن ان اموت ؟ مات لامى طفلان حالما ولدا . وغرقت وانا صبى وحلت اللامبالاة الباهتة ، بل وحتى الارتياح . وانفجرت قنبلة يدوية فى الخندق ، وها هو الخدش الذى خلفته فى عجيزتى . وفى حادثة ريزيدنتشتراسى التاريخية تتذكر اليد المصابة الملتوية كيف تشبث بها ماكس ريختر ، الارستقراطى المغرور فون شوينبر-ريختر ، بالم فظيع وضغط عليها كالكماشة ولم يفلتها حتى بعد ان قلبته صلية البوليس . عند ذاك ادركت ان يد الموت حديدية ساخرة مثل يد كورت الاشقر . انا لست جبانا ، كلا ، حتى كورت لا يستطيع ان يقول بانى جبان . فقد رأوا انى لم ارتعب من الانفجارات القريبة فى الجبهة ، لكننى ارتبكت هنا كما لم ارتبك فى اى وقت آخر . كلا ، انا لم ارتعب ، بل ارتعب الجبابرة وخافوا على عندما زحفت فى الدماء بين الجثث وسحبت جثة ماكس الساخر . العالم نفسه ، الكون نفسه ارتعب لانه كان يمكن ان يفقدنى بهذه الصورة الحمقاء والى الابد .

لا يجوز لهم ، لا يحق لهم ان يرفضونى ، ان يهجرونى .

لن اسمح لهم بان يفعلوا بى ذلك . ان وجودى اهم عامل ، فلا يجوز لهم ، لا يحق لهم ان يرفضونى ، ان يهجرونى . . .

هارى مينغيسهاوزين (من الحرس الشخصى للفوهرر) :

«لم اصدق ما قاله باوير عن مقتل هتلر وزوجته فواصلت الحفارة فى قطاعى .

وبعد ما لا يزيد عن الساعة على اللقاء مع باوير خرجت الى الشرفة التى تبعد عن المخبأ بـ٦٠ ـــ ٨٠ مترا ورأيت فجأة المرافق الشخصى لهتلر الشتورمبانفوهرر غونشه وخادم هتلـــر الشتورمبانفوهرر لينغه يحملان جثة هتلر من الباب الاحتياطى ويضعانها على بعد مترين عن الباب . ثم عادا ، وبعد بضع دقائق خرجا حاملين جثة يفا براون ووضعاها فى نفس المكان . وعلى مقربة من الجثتين كانت هناك قنينتان من البنزين بعشرين لترا للواحدة . واخذ غونشه ولينغه يرشان البنزين على الجثتين واشعلا النار فيهما» .

راتينهوبر مدير الحرس الشخصى لهتلر :

«جثتا هتلر ويفا براون احترقتا ببطء فنزلت واصدرت امرا باحضار وقود . وعندما صعدت الى مكانى كان شىء من التراب قد اهيل عليهما ، واخبرنى الحارس مينغيسهاوزين بانه لم يتمكن من البقاء فى مخفره بسبب الرائحة التى لا تطاق . ولـــذا دفعهما ، هو وشخص آخر من الاس اس بامر من غونشه ، الى الحفرة التى كان فيها كلـــب هتلـــر المسمـــم . . .

وادهشتنى شطارة مينغيسهاوزين الذى دخل مكتب هتلر وانتزع من سترته الموضوعة على الكرسى الشارة الذهبية على امل

«الحصول على ثمن باهض فى اميركا لقاء هذه التحفة النادرة» .

من تقرير الطب العدلى :

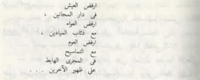
«القطعة التشريحية الرئيسية التى يمكن ان تستخدم لاثبات شخصيته هى الفك الذى يحتوى على كمية كبيرة من القناطر والاسنان والتيجان والحشوات الاصطناعية» .

كيتى هويزيرمان معاونة البروفسور بلاشكه طبيب الاسنان الشخصى لهتلر :

«اخذت بيدى قنطرة الاسنان . بحثت عن العلامة التى لا جدال فيها . فعثرت عليها فى الحال والتقطت انفاسى وقلت بكلمات متلاحقة : «هذه اسنان ادولف هتلر» .

(من مواد يلينا رجيفسكايا مؤلفة كتاب «برلين . مايو ١٩٤٥») .

مواد فى تاريخ الهيبريرى المعاصر



ارفض العيش
فى دار المجانين ،
ارفض العواء
مع ذئاب الميادين ،
ارفض العوم
مع التماسيح
فى المجرى الهابط
على ظهور الآخرين . . .

مارينا تسفيتايفا

ايم سوت رونتشيت فى السادسة عشرة من العمر قال انهم ارسلوه مع باقى اهالى سيمرياب ، بعد استيلاء بول بوت على

السلطة ، الى الاشغال الشاقة . ذات مرة اقتادوا عائلتــــه الى مكان فيه ١٢ شخصا بينهم رجل واحد وشيخ واحد ، والباقون من النساء والاطفال . «ورأيت جثثا كثيرة بينها جثــة والدى . وصوب الجنود بنادقهم الينا وقالوا : «سنقتلكم» . بعد ذلك امرونا بالجلوس على الارض واخذ الجنود يضربوننا بالعصى والرفوش . قتلوا خمسة اشخاص او ستة بهذه الطريقة قبل ان يصلوا الى . ضربونى على رقبتى وعلى ظهرى ، حتى اغمى على فظنوا ، على ما يبدو ، انى مت» .

قال سين كاندى النازح من كمبوتشيا : «فى بداية عام ١٩٧٨ اعدمت رميا بالرصاص ثلاثون عائلة خلف القرية . ورأيت اخدودا طوله ١٥ مترا وعرضه متران تنقعت فيه جثث القتلى مخلوطة بالعشب الذى يستخدم كسماد وبروث الابقار . وكانوا يرشون هذا الخليط فيما بعد على الحقول» .

من حديث احد جلاوزة بول بوت ، وهو فى الثالثة عشرة من العمر :

— نعم ، قتلت ثلثمائة شخص . حسبتهم بنفسى . انا اجيد القراءة والكتابة . تعلمت فى المدرسة . . .

— كيف صرت جنديا وانت فى هذا العمر ؟

— دخل الجنود القرية وتوزعوا على المنازل وطردوا الاهالى منها وضربوهم وارسلوهم الى الكومونات . ورآنى احد الضباط وسألنى : هل عندك سلاح ؟ هل تريد ان تطلق النار ؟ وبعد ذلك اخذنى معه جنديا مع ان والدى رفضا . وفى المساء كانت عند هذا الضابط حفلة سكر . ودعونى انا ايضا واعطونى

خمرا ولحما لا اعرف نوعه . وامرونى بان اشرب وآكل . ثم قالوا لى ان هذا اللحم كبد اعدائنا ويجب ان نأكل منه الكثير . وبعد ذلك امر الضابط باخراج عشرة اشخاص وسلمنى بندقية رشاشة وامرنى بان اطلق النار عليهم . وقتلتهم جميعا . تلك كانت البداية . كان يأخذنى معه الى القرى . ويحسب الضحايا . وكنت اختار الاسمن من بينهم وانتزع اكبادهم واشويها فى الموقد وآكلها . والكبد يمنح حقدا شديدا على اعدائنا .

— هل تنام هادئا الآن ؟ الا ترى كوابيس ؟

— كلا . نومى هادئ . فى النهار افكر احيانا بانهم يمكن ان يفعلوا بى مثلما فعلت . لكن السلطة الجديدة طيبة . . .

«لماذا تقتلون الاطفال ؟» — وجه هذا السؤال الى اوا ترانغ آمر المفرزة ٣٢٣ من السرية ٢٣٢ من الكتيبة ٢٩٠ لفرقة كمبوتشية . وهو فى السابعة والعشرين من العمر وقد وقع فى الاسر فى اراضى الفيتنام . وكان جوابه : «يأمروننا بابادة الاطفال ايضا . يقولون انهم عندما يكبرون سيصبحون اعداء ايضا . . . وكنت ابقر البطون بسفود خشبى ، ثم اخلع جزمتى وادوس على الجسم حافيا . واسير عليه ببطء شديد . وعندما يموت الاسير انتقل الى غيره . . .» .

فى العاشر من ايار (مايو) ١٩٧٨ اذاع راديو بنوم بينوغ ما يلى :

«واصلنا ضرب القوات الفيتنامية حتى نهاية يناير . وفى فبراير انتقلنا الى هجوم متزايد القوة . كانت الضربات تسددها فرق

كاملة . وبعد دحر العدو كانت وحداتنا تتقدم فورا الى اراضيه . . .
وهكذا بلغنا هدفنا : ٣٠ قتيلا فيتناميا مقابل كل قتيل او جريح من الكمبوتشيين . واذا كنا سنضحى بمليونى كمبوتشى من اجل ابادة ٥٠ مليون فيتنامى فسيبقى منا ٦ ملايين لنبنى الاشتراكية» .

بول بوت : «نحن بحاجة الى مليون كمبوتشى من ثمانية ملايين لبناء المجتمع الجديد المنقطع النظير» .

«. . . قال بجيزينسكى فى حديث صحفى فى العـــام الماضى ان التفكير بان الحرب النووية تبيد البشرية «تفكير غير دقيق» . وحتى اذا ابيد شعبا الولايات المتحدة والاتحـــاد السوفييتى ، على حد تعبير بجيزينسكى ، فستبقى على الارض شعوب البلدان الاخرى . ويقول هذا الابله النووى اننا يجب ان لا نبدى «انانية» ونبالغ فى اهمية ابادة الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتى» . (من بيان للحزب الشيوعى الاميركى .)

فى احد الاجتماعات نوقشت آفاق الثمانينات واعلن الممثل المسؤول عن القوات البحرية الاميركية «ان البعض فى الولايات المتحدة الاميركية واوربا قلقون جدا من عواقب الحرب النووية ويتصورون بان الحرب النووية تعنى نهاية العالم ، مع ان الواقع هو موت ٥٠٠ مليون شخص فقط» .

«ان توجيهنا بخصوص التهجير اهم توجيه بعد ١٧ ابريل ١٩٧٥ . ان تهجير اكثر من مليونى شخص من بنوم بينغ انجاز

منقطع النظير على النطاق العالمى . وبعد انهائه تمكنا من ابادة كل قوى المعارضة ، وصرنا اسياد البلاد بلا منازع . ان اهالى المدينة الموزعين على الارياف ستقمعهم الفئـــــات الاجتماعية الاساسية و«الساهاكو» وسيتحولون جميعا الى فلاحين . وتنتقل سياسة «القرية تطوق المدينة» الى سياسة «القرية تبتلع المدينة»» .

«يوم ١٧ ابريل ١٩٧٥ التاريخى يعنى ان الثورة الاشتراكية انجزت مائة بالمائة . ولم تعد فى كمبوتشيا لا طبقة الاستغلاليين ولا الملكية الخاصة» .

«كان سكان كمبوتشيا الديمقراطية مقسمين الى ثلاث فئات . تضم الاولى قسما من السكان الذين كانوا قبل النصر فى عام ١٩٧٥ يقيمون فى المنطقة المحررة . وتضم الثانية السكان الذين كانوا فى المدن والمناطق التى سقطت فيها سلطة لون نول العميلة بعد تحرير بنوم بينغ . وتضم الثالثة عوائل عسكريى لون نول وعوائل موظفى الادارة القديمة والكهنة البوذيين والقساوسة الكاثوليكيين وتلاميذ الصفوف المنتهية والطلبة والمثقفين . وكانت الوثائق الرسمية لا تسمى افراد الفئتين الثانية والثالثة الا «بالطفيليين» و«المزيفين» . ان «البؤساء» الذين تشملهم الفئتان الثانية والثالثة كانوا يشكلون على وجه التقريب ٤ ملايين نسمة . وكانت الوثائق تسميهم «المواطنين الجدد» ، وبعد ١٧ ابريل ١٩٧٥ تقرر تهجيرهم من المدن الى الارياف . وطوال النصف الثانى من صيف ١٩٧٥ شهدت طرق كمبوتشيا طوابير لا نهاية لها من الناس الذين تركوا على جوانب الطرق المحتضرين من التعب والجوع والامراض والضرب . ان هذه «المسيرة» التى

دبرها نظام بول بوت قد اسفرت عن ضحايا بشرية بمئات الآلاف . وتفيد التقديرات الحالية ان ٨٠٠ الف شخص قتلوا فى هذا البلد حتى منتصف عام ١٩٧٦ . وبعد ذلك كان يقتل مثل هذا العدد كل عام . فقد ابيد اكثر من ٣ ملايين شخص من الكمبوتشيين البالغ عددهم ٨ ملايين» .

سو بو ، ممثل اللجنة العسكرية الثورية فى بنوم بينغ :
— كان رجال بول بوت يخشون مذعورين من اى مظهر للابداع . وكان الملل والجهالة والغباء فى كل مكان . لكن اكثر ما كانوا يخشونه هو الاتصالات بين الناس الخارجة عن رقابتهم . فى حين ان الرياضة والمسرح وفرق الهواة وحتى المعابد البوذية تعنى توفير الامكانية لمثل هذه الاتصالات . ولذا فان «الفئتين الواطئتين» من السكان والمحكوم عليهما بالفناء كانتا تعملان من الفجر حتى المساء . اما افراد «الفئة الاولى» فقد كانوا يقضون اوقات الفراغ فى اجتماعات لا نهاية لها ولا آخر ، فتتحجر ادمغتهم من مسيلات الديماغوجية الجارفة الجامدة وشبه الامية .

جاء فى قرار الاتهام فى المحكمة الشعبية الثورية التى نظرت فى جرائم حكومة بول بوت — يانغ سارى ان رجال بول بوت «استخدموا طرائق للقتل تسمح بتصفية مئات بل وآلاف الناس دفعة واحدة . وكانت تلك الطرائق اقسى بكثير مما استخدمه هتلر :
— كانوا يضربون الضحايا على رؤوسهم بالرفوش والفؤوس والهراوات والسفافيد الحديدية .

— كانوا ينحرون الضحايا بالسكاكين وباوراق قصب السكر الحادة ويبقرون بطونهم ويستخلصون اكبادهم ويأكلونهـــــا ويستخرجون المرارة التى يستخدمونها فى صنع «الادوية» .
— كانوا يسحقون الناس بالبولدوزرات ، كما استخدموا المتفجرات ليقتلوا اكبر عدد ممكن دفعة واحدة .
— كانوا يدفنون الناس احياء ويحرقون الذين يشتبهون بهم كمعارضين للنظام . كانوا يقطعون لحومهم بالتدريج حتى يموتوا ببطء .
— كانوا يقذفون الاطفال فى الهواء ثم يتلقونهم بالحراب ، ويقطعون ايديهم وارجلهم ويهشمون رؤوسهم على جذوع الاشجار.
— كانوا يرمون الناس الى برك التماسيح .
— كانوا يعلقون الناس على الاشجار من ايديهم او ارجلهم ليظلوا متأرجحين فى الهواء وقتا اطول . . .» .

من اقوال الصحف :
«اكثر من ٧٠ بلدا اكدت بنتيجة التصويت انها تعتبر ممثلية بول بوت فى هيئة الامم المتحدة كالسابق الممثلية «الشرعية الوحيدة» . . . .

١٩٧١ — ١٩٧٩

من اقوال الصحف — خريف ١٩٨٢ :
«كتب مراسل «التايمس» اللندنية يقول ان طائرات النقل العسكرية الاسرائيلية الاميركية الصنع «هرقل س — ١٣٠» نقلت فى صباح السادس عشر من ايلول — سبتمبر الى مطار بيروت الدولى من معسكر «انصار» الاسرائيلى فريقا كبيرا من الكوماندوس

وهم من القتلة المحترفين . وفى اليوم ذاته بدأت المذبحة فى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين .

واخبر شاهد عيان مراسل «التايمس» ان السفاحين اقتحموا مخيم شاتيلا بثلاثين سيارة فى صباح الخميس ، واستخدموا الحراب واعقاب البنادق فى البداية ، وقبضوا على النساء والاطفال وذبحوهم ، ثم اخذوا يطلقون النار على كل فلسطيني . . .» .

«وتفيد مصادر موثوقة ان طائرات «هرقل» نقلت الجلادين من جلاوزة شارون الى مكان الاحداث لتطويق مخيمات اللاجئين الفلسطينيين ، ومهد هؤلاء الطريق لعصابات حداد الكتائبية التى دخلت المخيم بالتعاون مع مرتزقة من المانيا الغربية وبريطانيا وغلمان من جنوب افريقيا» .

ونقرأ عند فريدريك نيتشه : «. . . فى مختلف ارجاء المعمورة ، وفى مختلف الحضارات يصادف ان يظهر ما يعتبر جنسا ارقى ، وهو بالمقارنة مع البشرية جمعاء نوع بشرى متفوق . ان هذه المصادفات السعيدة كان يمكن ان تحدث دائما ويحتمل ان تحدث دوما» .

الى القراء

ان دار التقدم تكون شاكرة لكم اذا تفضلتم وابديتم لها ملاحظاتكم حول ترجمة الكتاب وموضوعه ، وشكل عرضه ، وطباعته ، واعربتم لها عن رغباتكم .

العنوان : زوبوفسكى بولفار ، ١٧ موسكو ، الاتحاد السوفيتى